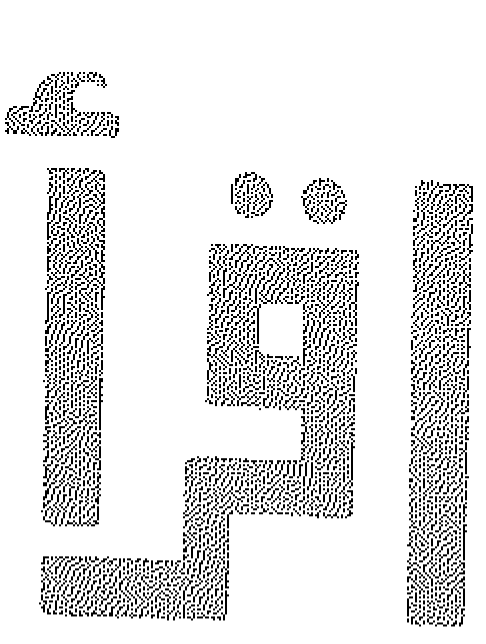
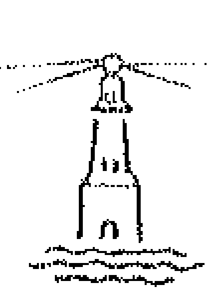


لكل زعيم قصة

مصطفى كمال أتاتورك

حلمي مراد



دار المعارف بمصر



تصدر فى أول كل شهر
رئيس التحرير: السيد أبو النجا





حلمى مراد

لكل زعيم قصة

مصطفى كمال
أتاتورك

اقرأ ٤٠٧

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

الإهــــداء

إلى الرئيس أنور السادات

إلى المكافح ، الوطنى ، الشجاع .. قائد ثورة ١٥ مايو لردّ الحريات والديمقراطية المسلوبة ، إلى الشعب الصامد الصبور ، وترسيخ قيم الاصالة المصرية ، والوفاء ..

إلى بطل قرار ٦ أكتوبر الجسور ، وقائد نصر ١٩٧٣ العسكرى المجيد ، حفاظاً على تراب مصر الغالى ..

تحية متواضعة — مع عميق الإعجاب والإكبار — لمناسبة حديثه بالتليفزيون يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٧٥ ، فى عيد مولده ، عن ذكريات كفاحه الوطنى وبدء اشتغاله بالسياسة .. وإشادته بكفاح محرر تركيا الحديثة مصطفى كمال أتاتورك ، الذى استلهم منه البطولة والوطنية فى طفولته ، منذ شب يرى صورته على جدار منزل والده بالقاهرة ، ويسمع قصص انتصاراته المجيدة ، وأمثلة تفانيه فى خدمة بلاده ..

حلمى مراد

مؤلف الكتاب



مؤلف هذا الكتاب – وثلاثة كتب غيره فى شئون تركيا – هو الكابتن (هـ . س . ارمسترونج) الملحق الحربي لبريطانيا فى تركيا سابقاً ، أما الكتب الثلاثة الأخرى فهى (تركيا تعمل) و (تركيا وسوريا تولدان من جديد) و (المعركة غير المنتهية) . وقد عاش المؤلف فى الشرق فترة طويلة من حياته ، فقد عين فى البداية – قبل الحرب العالمية الأولى – ملحقاً بالجيش الهندى ، وعهد إليه بمراقبة الحدود التى كان الأفغانيون يتخطونها ، فى غارات كثيرة متكررة فى ذلك العهد . ثم أرسل إلى العراق حيث عمل ملحقاً بقيادة الجنرال « سيرتشارلس ميلليس » – القائد البريطانى المشهور ، الحائز على وسام صليب فيكتوريا – ثم أسره الأتراك مع فرقة

الجيش السادس بأكملها . . وسار على قدميه مع الأسرى من أقصى جنوب بلاد العرب إلى تركيا ، ماراً بالأراضى السورية !

وقد حاول « أرمسترونج » الفرار من هذا الأسر بعد حين ، لكن محاولته باءت بالفشل ، فقبض عليه وصدر حكم بحبسه لستة أشهر .

وكان القائد أنور باشا هو الحاكم بأمره فى تركيا خلال ذلك العهد ، فالتمس مقابلته ، وجرى بينهما حديث طويل انتهى بأن أمر أنور باشا بأن يزج به فى السجن منفرداً ، عقاباً له على ما اعتبره إهانة له ! . . ثم فوجئ بإفراج السلطات التركية عنه بعد قليل وتعيينه على أثر ذلك ضابطاً مشرفاً على جميع أسرى الحرب الآخرين ! . وبعد ذلك اختير ممثلا للاتهام فى إحدى المحاكمات العسكرية التركية لقواد معسكرات أسرى الحرب ، بتهمة تهجمهم على الأسرى الموضوعين فى حراستهم ورعايتهم !

وقبيل نهاية الحرب العالمية الأولى فرّ الكابتن أرمسترونج من تركيا ، عن طريق استخدام الرشوة ! . . . وبعد انتهاء الحرب أعيد إلى تركيا فى مهام رسمية عهدت بها إليه السلطات البريطانية المحتلة ، وهناك بقى أعواماً كان خلالها على اتصال مباشر بالأتراك عامة ، وبمصطفى كمال خاصة . . وشهد نهوض تركيا الجديدة ، ثم هزيمة اليونانيين والإنجليز والإيطاليين والفرنسيين ، الذين كانوا يحتلون أراضى تركيا ، بحكم انتصارهم عليها وعلى حليفتها ألمانيا فى تلك الحرب .

وفى سنة ١٩٢٧ عين « أرمسترونج » ملحقاً بريطانياً فى لجنة تعويضات الحرب بتركيا . ومكث هناك ثلاث سنوات طاف خلالها بجميع أنحاء تركيا .

تمهيد

فى القرن الثالث عشر الميلادى أجدبت الأرض فى جزء كبيرمن المعمورة نتيجة لقلة الأمطار ، فأصاب القحط أكثر البلاد الممتدة بين سور الصين وآسيا الوسطى .. بحيث اضطرت القبائل التى تقطنها إلى الهجرة بحثاً عن مراع جديدة ، وكان « الأتراك العثمانيون » من بين أولئك المهاجرين ، وكان زعيمهم يومئذ « سليمان شاه » الذى جعل شعاره علماً عليه صورة لرأس « ذئب أغبر » .

والواقع أن هؤلاء الأتراك العثمانيين كانوا جبابرة قساةيعيشون على الفطرة ، أقوياء ، ذوى وجوه مغولية مسطحة ، تتوسطها عيون مشقوقة .. وكانوا أشبه بالذئاب الغبراء التى تجوس خلال تلك البرارى الفسيحة فى آسيا الوسطى ... لكنهم — برغم ذلك — كانوا منظمين ، يدينون لزعمائهم بالخضوع التام والطاعة العمياء . وقد انقضت عليهم قرون وهم ينصبون خيامهم السوداء فى سهول « سنجاريا » عند حافة صحراء « جوبي » ... فلما اضطرهم نقص الماء والخضرة إلى النزوح عن بلادهم ، قادهم زعيمهم سليمان شاه نحو الغرب ، ثم وجد أمامه قبائل التتار فانثنى بقومه جنوباً عبر (أرمينيا) ، إلى أن استقروا فى آسيا الصغرى ، حيث بدأ هناك تاريخهم الحديث !

ومات سليمان شاه ، فخلفه « ارطغرول » ، ثم تتابع الزعماء والسلاطين على حكم الأتراك العثمانيين لمدة عشرة أجيال كاملة ، ابناً عن أب ، فكان

منهم الحاكم . والزعيم . وقائد الجيش ، وعرف أكثرهم بالقسوة والجبروت . ولم يجدوا مشقة فى غزو البلاد المحيطة بهم والاستيلاء عليها ، فقد كان بعض هذه البلاد تحت حكم الإمبراطورية البيزنطية الفاسدة الملوثة ، وبعضها تحت حكم إمبراطورية العرب الممزقة فى بغداد . وهكذا لم تمض ثلاثمائة عام بعد وفاة سليمان شاه – الجد الأكبر للأتراك العثمانيين – حتى كان خليفته العاشر العظيم السلطان « سليمان القانونى » ، يحكم امبراطورية شاسعة تمتد من (ألبانيا) ، على البحر الأدرياتيكى ، إلى حدود فارس ، ومن مصر إلى القوقاز ، ودانت لحكمه هنغاريا والقرم ، وجاءه ملوك أوربا بالهدايا يلتمسون معونته فى حروبهم ، وتغلغلت جيوشه فى الطريق إلى الشرق . . وأبحرت أساطيله مرفوعة الراية فى أرجاء البحر الأبيض وسيطرت عليه . ثم اعترفت بسيادته بلاد شمال أفريقيا . . ودانت له القسطنطينية ، فتطلع إلى سيادة العالم كله ، وأعد لذلك عدته . فما جاء عام ١٥٨٠ حتى كانت جيوشه تدق أبواب « فيينا » عاصمة النمسا ، فى قلب أوربا !

على أن أمنيته الكبرى هذه لم تتحقق ، ثم دب الفساد فى إمبراطوريته فى عهد خليفته سليم الأول ، وتفاقم الفساد فى العهود التالية ، ففيما عدا واحدا من سبعة وعشرين سلطاناً تعاقبوا على عرش الإمبراطورية العثمانية ، كان الحكم فى واقع الأمر لحريم القصر والخصيان « الأغوات » . . ووجد الأتراك أنفسهم بلا قائد ولا زعيم يوجههم إلى سواء السبيل ، فأمعنوا فى المجون وانساقوا مع الملذات والأهواء ، فأصابهم الانحلال ، وفقدوا صلابتهم الفولاذية ونشاطهم وحيويتهم وبسالتهم ، وكل قواهم المادية والمعنوية . وأخذت الشعوب التى حكموها تشق عصا الطاعة وتعلن العصيان ،

وحصل بعضها على الاستقلال ، كاليونان والصرب والبلغار ! وهكذا ، لم تمض ثلاثمائة عام أخرى بعد سليمان القانوني حتى تهاوت الإمبراطورية العثمانية مفلسة ، عاجزة ، متداعية ! . . وانتهزت دول الغرب القوية فرصة تفكك هذه الإمبراطورية الشرقية وانحلالها ، فسارعت إلى الإجهاز عليها واقتسام أسلابها ! . . فاستولت روسيا على القرم والقوقاز ، وطالبت بالقسطنطينية والطريق إلى البحر الأبيض عبر الدردنيل ، ووضعت فرنسا يدها على سوريا وتونس ، واحتلت بريطانيا مصر وقبرص !

وكانت ألمانيا يومئذ فى مرحلة التوسع فانحازت إلى صف السلطان العثماني « عبد الحميد الثاني » ضد بقية أوربا ، لا رغبة فى إنقاذ إمبراطوريته المنحلة ، بل لكى تستأثر لنفسها بالنصيب الأكبر من الغنيمة !

وفى سنة ١٨٧٧ قررت روسيا أن تضع حداً لذلك الترقب ، فأعلنت الحرب وتقدمت جيوشها حتى صارت على مسيرة عشرة أميال من القسطنطينية . . . وعندئذ حذرتها بقية دول أوربا – بتحريض من « دزرائيلى » فى مؤتمر برلين – من مواصلة الزحف ، وطالبتها بالانسحاب فوراً ، بدعوى وجوب المحافظة على سلامة الإمبراطورية العثمانية !

وبعد أربعة أعوام من ذلك التاريخ ، وفى مدينة (سالونيك) – الواقعة عند قمة بحر إيجة – ولد لأب تركى يدعى « على رضا » ، وأم تركية تدعى « زبيدة » ، طفل أطلقا عليه اسم « مصطفى » . . وكان هو نفسه « مصطفى كمال » أو « أتاتورك » . . أو « الذئب الأغبر » الذى شاء القدر أن يتم على يديه إنقاذ تركيا من التقسيم والفناء !

الفصل الأول

البيئة التي ولد فيها

كان (علي رضا) وزوجته (زبيدة) يعيشان – مثل سواد الشعب التركي في ذلك العهد – معيشة فقر وإملاق ، وإن استطاعا المحافظة على كرامتهما الشخصية ومكانتهما المرموقة بين الجيران ! . وكان منزلهما يقع في الحي التركي من بلدة (سالونيك) عند منتصف الطريق الصاعد إلى القلعة القديمة في أقصى تلك البلدة الصغيرة العامرة باليهود ، وأكثرهم من التجار الذين يتحكمون فيما يرد إلى مينائها من صادرات البلقان .

ولم يعرف (علي رضا) بما يميزه من مواطنيه الكادحين في المدينة ، ولم تكن له مبادئ جديدة يؤمن بها ولا آمال كبيرة في المستقبل يسعى في سبيل تحقيقها . وكل ما عرف عنه أنه انحدر إلى البلدة في صباه من جبال ألبانيا على حدود الصرب ، ثم عمل كاتباً في (إدارة صندوق الدين العثماني) بالميناء ، فكان يؤدي عمله – مثل الألوف من موظفي الحكومة التركية – في غير حماسة ! . ولما كان مرتبه ضئيلا لا يكفي لسد مطالب حياته فقد اضطر إلى استغلال أوقات فراغه في ممارسة التجارة !

ولم يكن الشارع الذي يقع فيه البيت إلا «ممراً» ضيقاً أرضه من الأحجار التي تتعثر فيها القدم ، وسقفه «تكعيبة» خشبية تتسلق عليها أغصان

الكروم ، وكان البيت ذاته نصف مهدم ، يميل طابقه الأعلى فى زاوية على الطريق ، وكانت جميع بيوت الحى التركى ساكنة موحشة ، أبوابها ونوافذها مغلقة على الدوام ، لا تنبعث منها حركة أو حياة ! . وبين حين وآخر ترى بعض الصبية يلعبون فى الحارة ، أو نفراً من الرجال يتلكأون ويتسكعون أمام المقهى القريب ، أو يجلسون فيه يحتسون القهوة أو يدخنون.

ومن حين إلى حين كانت تدلف إلى الطريق من أحد المنازل امرأة متشحة من قمة رأسها إلى قدميها ، بعباءة سوداء ، وبعد أن تغلق الباب خلفها بعناية ، ترفع ذيل ملاءتها متخذة منه نقاباً يخفى وجهها فلا يظهر منه غير إحدى عينيها ، ثم تتابع سيرها إلى نبع الماء وكأنها شبح أسود يسير فى وضح النهار !

أما نوافذ البيت فكانت كلها مغلقة ، بحكم العادة السائدة فى ذلك العصر — عصر الحريم والمحظيات اللواتى يحرسهن الأغوات — لا فرق فى ذلك بين هذه البيوت التى هى أشبه بالأكواخ ، والقصور الفخمة التى يسكنها الباشوات والأثرياء !

وكانت زبيدة فى الثلاثين من عمرها حين ولدت « مصطفى » . وقد تعودت الحجاب منذ كانت فى السابعة . . وفيما عدا أهلها وبعض جاراتها لم تكن تتحدث إلى مخلوق . كما أنها لم تتلق شيئاً من التعليم على الاطلاق ، فبقيت تجهل القراءة والكتابة ، بل تجهل جميع الشئون العادية التى تجرى خارج نطاق بيتها ! لكنها مع ذلك كانت الحاكمة فى أسرتها ، بفضل طبيعتها المسيطرة وطبعها النارى الذى سرعان مايثور إذا استثير ، برغم أنها من أصل ريفى طيب ، فقد انحدرت من أب كان فلاحاً بسيطاً فى جنوب ألبانيا ، وأم مقدونية .

وكانت طويلة القامة ، قوية البناء ، زرقاء العينين ، كستنائية الشعر ذات حيوية تنم عن صحة خارقة ، كما كانت شديدة التدين ، متحمسة لوطنها ، ذات نزعة محافظة وفكر ثاقب ، وحكم صائب على مختلف الأمور !

وككل امرأة تركية ركزت عنايتها كلها فى ابنها الذكر ، وكانت قد فقدت قبله طفلا ذكراً آخر عقب ولادته . فلم يبق لها غيره وابنة تكبره بسنوات اسمها « مقبولة » . . ومن ثم دللته دون تحفظ ، لكنه لم يستجب لتدليلها إلا قليلا ، فقد كان صبياً صامتاً متحفظاً ضعيف البنية نحيل الجسم ذا عينين زرقاوين شاحبتين وشعر فى لون الرمال . وكان يندر أن يبدى أى عاطفة ، ويتقبل تدليل أمه كأمر لا بد منه – ولا فضل لها فيه ! – بل كان يعصى أوامرها ويأبى فى عنف كل عقاب !

كان اكتفاؤه بذاته خارقاً للمألوف ، فلم يبد ميلا إلى مصادقة زملائه من الصبية إلا فيما ندر ، وكان يلعب وحده فى أكثر الأحيان !

ولم يلبث أبوه قليلا حتى استقال من وظيفته الحكومية ليتفرغ لتجارة الخشب . وكان يرغب فى أن يخلفه ابنه فى احتراف التجارة ، بينما أصرت زبيدة على إعداده ليكون واعظاً . وتغلبت وجهة نظرها فأدخلته مدرسة ملحقة بأحد المساجد لكى يحفظ القرآن ويتلقى مبادئ الدين ، ثم ألحقته بمدرسة أفضل ، يديرها رجل يدعى الشمسى أفندى ، فأظهر الصبى تقدماً ملموساً فى دراسته . ولكن حدث أن توفى والده على رضا بعد قليل تاركاً تجارته مفلسة وأسرته معدمة . . فاضطرت زبيدة إلى إخراج مصطفى من المدرسة لتلجأ به وأخته إلى بيت أخيها الفلاح فى قرية قريبة من سالونيك . وهناك عهد إلى الصبى فى تنظيف الحظائر وإطعام



السيدة « زبيدة » ، والدة مصطفى كمال

الماشية ورعاية الأغنام .. وبدا أن هذه الحياة راقت له ، وأكسبه العمل الشاق والهواء المطلق قوة وازداد صلابة وعناداً ؛ على أنه كان كلما تقدم في السن يبدو أكثر تحفظاً وميلا إلى العزلة ، والاستقلال عن الناس !

الثائر الصغير

وبعد عامين ، حين بلغ مصطفى الحادية عشرة من عمره ، استطاعت أمه أن تقنع شقيقة لها بأن تنفق على تعليمه ، لنفورها من أن ينشأ راعياً للغنم أو عاملا في حقل ، ومن ثم ألحقته من جديد بإحدى مدارس سالونيك . لكن الصبي الذى ألف الحياة الحرة الطلقة لم يطق الخضوع للنظام ، فصار مشاغباً متمرداً شرساً مع أساتذته ، متعالياً على زملائه في المدرسة ، يأبى مشاركتهم في ألعابهم ، ولا يطيق أن يتدخل أحد منهم في أمر من أموره . ومن هنا كثرت مشاجراته معهم ، وضربه إياهم ، إلى أن اشتبك في معركة مع نفر منهم ، فانتزعه مدرسه انتزاعاً من وسطهم ، وألقى عليه درساً بيده وعصاه ، فأعماه الغضب لكرامته وبادر بالفرار من المدرسة .. ثم أبى العودة إليها بأية حال ، كما أبت خالته أن تتحمل زيادة في نفقة تعليمه بمدرسة أخرى ، وكلما حاولت أمه مراجعته في الأمر أبى إلا إصراراً على عناده !

واقترح خاله إلحاقه بسلك الجندية ، نظراً إلى شدة مراسه وطبيعته التى لا تؤهله للمثابرة على تجارة .. واستصوب إرساله إلى المدرسة الحربية الابتدائية في سالونيك ، وكانت تحت رعاية السلطان ولا تتقاضى من تلاميذها رسوماً ، بينما يتيح برنامجها للتلميذ الناجح فيها أن يرتقى حتى يصبح

ضابطاً ، أو جاويشاً على الأقل !

ورفضت أمه هذا الاقتراح ، لكن الفتى كان قد بت فى الأمر وقرر قبول اقتراح خاله فى اغتباط شديد ، ولا سيما أنه رأى « أحمد » ابن جارهم بعد أن تخرج فى تلك المدرسة يختال بسترته العسكرية فى زهو الطاووس . هذا إلى أنه لم يكن يميل إلى أن يصير واعظاً دينياً ، وكانت التجارة فى رأيه حرفة لا تليق لغير اليونان والأرمن واليهود ومن إليهم . أما الأتراك أمثاله فالحرفة التى تليق بهم هى الجندية . . ولا شىء غير الجندية !

ولم يصبر الفتى على تأجيل والدته وخاله تنفيذ الاقتراح فمضى إلى ضابط مسن متقاعد من أصدقاء والده ، وأقنعه بأن يضمنه لدى إدارة المدرسة الحربية . . ثم تقدم لامتحان الالتحاق ونجح فيه فصار طالباً بالمدرسة ، ووضع أمه وخاله أمام الأمر الواقع !

وفى المدرسة الحربية وجد الفتى مجاله الذى أعدته الطبيعة له ، فنجح فى دراسته . . لكنه لم يكن محبوباً من المختلطين به ، فإنه — وقد خلق مرهف الحساسية بفطرته — كان يثور ويغضب إذا انتقده أحد أو تحدث إليه فى خشونة . ولذلك آثر أن ينطوى على نفسه ، وشغل بالدراسة عن اتخاذ الأصدقاء ، وإن لازمه شوق دائم إلى أن يكون ملحوظ المكانة مرموق الشخصية من الجميع ، وأن ينظر إليه الناس على أنه ممتاز متفوق على أقرانه ، خارق للطراز الشائع من الشباب !

ولم يكن أحد من زملائه يجرؤ على أن يتدخل فى أمر من أموره ، فقد كان الضرب أهون ما يرد به على ذلك التدخل ! وفى بعض الأحيان كان أحد إخوانه يسعى إليه ليدعوه إلى مشاركتهم لهوهم ، أو ليسأله فى أمر من الأمور . وهنا كان يجيب فى خشونة وجفاء : « لست أحب

أن أصير مثلكم بل أريد أن أكون أبرز شخصية وأكبر أهمية ! »

ونجح فى دراسته ، فقد كان ذا ميل خاص إلى الرياضيات ، وجميع العلوم العسكرية . . كما كان بارعاً فى الطوابير والاستعراضات وفى عامه الثانى بالمدرسة أعجب به سميه الكابتن مصطفى أحد أساتذته ، فرقاه إلى مرتبة « تلميذ مدرس » وعهد إليه فى الإشراف على فصل من الفصول الصغيرة . وأطلق عليه لقب « كمال » حتى لا يحدث لبس بسبب تشابه اسميهما ، فصار منذ ذلك التاريخ يعرف باسم « مصطفى كمال » .

واستمر فى دراسته مبدياً تفوقا كبيراً فى الامتحانات ، وفى تعليم التلاميذ الصغار ، إذ كان شغوفاً بالأمر والنهى والسيطرة . كما كان يظهر أحياناً قدراً غير قليل من الغيرة ، نحو كل زميل يحرز نجاحاً أكبر منه ، لأنه لم يكن يطيق أن يتقدمه غيره ، ويأبى إلا أن يكون الأول فى كل ميـدان ، أو لا يكون شيئاً على الإطلاق ! .

وكما أفادته رعاية الكابتن مصطفى تقدماً فى الدراسة ، كانت وبالا عليه من جهة أخرى ، إذ أنضجت شخصيته وغرائزه قبل الأوان ، فلم يبلغ الرابعة عشرة حتى كان قد جاوز مرحلة الصبا وتفتحت ميوله الجنسية مبكـراً ، فانغمس وهو فى هذه السن فى مغامرة غرامية مع ابنة الجيران ، وبينما كان أنداده يلهون ويلعبون ويمرحون ، كان هو يذرع الطرقات مرتدياً أحسن ثيابه ليتطلع إلى النساء المختبئات وراء النوافذ ، أو ليغازل بنات الهوى فى الميناء !

وحين بلغ السابعة عشرة نجح فى الامتحان النهائى للمدرسة العسكرية الابتدائية وأرسل إلى المدرسة العسكرية العليا فى « موناستر » . .

فى الكلية الحربية

شوارع موناستر يسودها الضجيج والغبار والذعر والقلق ، فاليونان احتلت جزيرة كريت ، ولم يسع تركيا إلا إعلان الحرب عليها ! . . وهذه هى طوابير جيوشها الزاحفة إلى ميدان القتال !

والعهد كله يسوده الاضطراب والمنازعات ، والحروب وشائعات الحروب ، بينما الإمبراطورية العثمانية فى الرمق الأخير تعالج سكرات الاحتضار ، ودول الغرب أنشبت مخالبها فى عنق الفريسة العاجزة ووقفت تتبادل فيما بينها النظرات الشزراء ، وكل منها تتحفز للنهش والقضم والابتلاع . . . !

وأدهى من ذلك وأمر ، أن الإمبراطورية المحتضرة كانت تمزقها من الداخل أيضاً عوامل التذمر والسخط ، فمقاليد الأمور فيها مازالت كلها مركزة فى يد السلطان ، مثلما كانت فى القرن السادس عشر ، ولكن شتان ما بين الحالتين ، فهناك كانت الإمبراطورية فى أوج قوتها ومجدها . أما الآن فهى محطمة القوى تتناهبها عوامل الانحلال والفساد من كل جانب . . فالفقر سائد فى كل مكان ، والعجز وعدم الكفاية يسيران دفة الدولة ، والسخط على كل لسان ، وصيحات الشباب تدوى مطالبة بإصلاح عاجل حاسم كفيل بالإنقاذ !

أما السلطان « عبد الحميد » أو الثعلب الأحمر كما كانوا يسمونه حينذاك ، فيخشى رعاياه بقدر ما يخشى الأجانب ، ولذلك يقمع كل فكرة جديدة ، ويرفض كل إصلاح ، ويغطى الإمبراطورية كلها بشبكة

من الجواسيس ، بحيث لم يكن ثلاثة يتحدثون فى أمر إلا كان على مقربة منهم رابع يتولى نقل حديثهم إلى إدارة البوليس السرى ! . . لم تبق حرية مكفولة ولا أمن شخصي لمخلوق ، بل ملأ السلطان السجون برعاياه !

وفى البلقان ، وحول موناستر خاصة ، كان السخط والثورة على أشدهما ، ونار الفتنة والعصيان متأججة على الدوام ، وكانت « الأفكار الجديدة » تملأ بلاد العالم الخارجي المتقدم فى المدنية والحرية ، فاستوعبها مصطفى كمال جميعها بحماسة الشباب المضطرمة فيه .! . وكان ككل ألباني أو مقدوني يقاوم بفطرته كل سلطان ، وكثيراً ما حلق به خياله الثائر فتصور نفسه قائداً لثورة تطيح بالظالمين وتنقذ الوطن وتطهره !

وفى أيام العطلة المدرسية كان يعود إلى سالونيك ، ولكنه كان يتجنب بيت أمه قدر طاقته ، إذ كانت قد تزوجت من تاجر رودسى ميسور الحال ، ولم يرض هو عن ذلك الزواج فصارحها برأيه هذا فى خشونة ، وقامت بينهما مشادة سرعان ما تحولت إلى مشاجرة ! . . ومنذ ذلك التاريخ أبي مصطفى أن يعترف بزوج أمه ، بل أبي حتى أن يكلمه . . أما أين كان يقضى وقته فى سالونيك ففى صحبة بعض الرهبان المقدونيين الذين لقنوه مبادئ اللغة الفرنسية ، ثم مع صديق جديد له هو شاب مقدوني خجول يكبره بقليل ، واسمه فتحى . وكان هذا يتقن الفرنسية ، فصار الاثنان يلتهمان معاً كل ما يصل إلى أيديهما من كتب فولتير وروسو وغيرهما من كتاب فرنسا الأحرار ، ومن مؤلفات « هوبز » و « جون ستيوارت ميل » فى الاقتصاد السياسى . وكانت كلها كتباً ممنوعة محرمة ، يسجن كل من يضبط متلبساً بقراءتها . لكن الخطر ضاعف من استمتاع الشابين بقراءة هذه الكتب !

ثم أخذ مصطفى كمال يمارس الخطابة فى زملائه الطلبة ، فيحدثهم عن وطنهم وكيف ينبغى إنقاذه من براثن الأجنبى ومن فساد حكم السلطان ! . كما أخذ يدبج المقالات الحماسية فى معاني الحرية والوطنية ، وينظم الشعر الملتهب بنيران المشاعر القومية المتأججة فى صدره ! . ومع ذلك كله كان فى دراسته فى موناستر – كعهده دائماً – ناجحاً متفوقاً تصفه تقارير أساتذته ومراقبيه بأنه « شاب نابه صعب المراس ، يتعذر على المرء أن يصادقه » . وأخيراً وقع عليه الاختيار ليسافر فى بعثة إلى كلية أركان الحرب الكبرى فى القسطنطينية ، ورقى إلى رتبة « ملازم ثان » قبل أن يرسل إلى هناك !

الحياة الصاخبة فى القسطنطينية

إنه الآن فى العشرين من عمره ، قوى البنية ، ذو حيوية غير محدودة . ولكن خبرته بالحياة والمجتمع كانت محدودة ، فالبلدتان اللتان عاش فيهما أعوامه السابقة – وهما سالونيك وموناستر – من البلاد الإقليمية الصغيرة نسبياً ، وليس فيهما إلا القليل من دور اللهو وأسباب الغواية ، وهو نفسه لم يكن على شيء من تدين أمه وإيمانها العميق ، فلما وجد نفسه فى العاصمة الصاخبة « القسطنطينية » انغمس لفوره فى ملاهيها وحاناتها ومقاهيها . .

وعلى حين فجأة أفاق الشاب الذكى الثائر الطموح لنفسه فإذا هو يضيق بهذه الحياة ، وإذا هو يركز همه كله فى عمله ، فيمضى فيه متقد الحماسة والنشاط ، وكأنما أدرك أن تحقيق أمانيه مرهون بما يبذل فى سبيل ذلك من جهود ، إذ لم يكن فى تركيا ما يحول دون الترقى من الحضيض إلى القمة ، فليست هناك مدارس مخصصة لأبناء الأغنياء وذوى الحسب

والنسب ، ولا أفضلية فى الوظائف والمناصب للأبناء بسبب نجاح آبائهم فى الحياة أو مولدهم فى حلة من الأرجوان . . وإذن ما كان انتسابه للفقراء والفلاحين بالذى يعوق طموحه وبلوغه الغاية التى ينشدها ، متى توافرت له الشخصية القوية والذكاء ، وهما عنده متوافران ، ولما كان قد جاز جميع امتحانات المدرسة بتفوق كبير ، فقد اختير للدراسة ذات برامج خاصة تابعة لكلية أركان الحرب ، ونجح فى هذا أيضاً بتفوق . . فتخرج فى يناير سنة ١٩٠٥ ورقى تبعاً لذلك إلى رتبة اليوزباشى !

وخلط السياسة بعمله ، فنى موناستر كان غلاماً ممتازاً بين الغلمان ، وفى كلية أركان الحرب بالعاصمة كان محاطاً بضباط شبان اختيروا جميعاً بعناية خاصة وكلهم فى مثل سنه ومستواه . . وقد وجدهم جميعاً ثوريين ، فكل ضابط شاب كان ثائراً ضد استبداد السلطان المدمر وتدخل الدول الأجنبية فى شئون البلاد . كان الشباب هم ورثة الإمبراطورية العثمانية ، وكانت تركتهم مثقلة بالديون ! . . وفى الوقت ذاته كان أساتذة الكلية وكثيرون من كبار الضباط يعطفون على الطلبة ويشاركونهم مشاعرهم ، لكنهم اكتفوا بأن أغمضوا أعينهم وسكتوا ، ولم يجرؤوا على البروز للعيان أو تزعم الحركة !

وكانت فى الكلية جمعية ثورية تعرف باسم « الوطن » ، تقيم مناظرات سرية وتوزع منشورات خطية تنتقل من يد إلى يد ، تهاجم فيها كل الأوضاع فى تركيا وأحوالها الراهنة ، وتخص بالعداء المرير أسس النظام القديم ، وطغيان السلطان ، وخنقه للحريات وقمعه للأفكار والآراء الحديثة ، وعدم كفاية مرؤوسيه وأعوانه الرسميين . . كما تهاجم الوعاظ ورجال الدين الذين يعوقون كل تقدم وإصلاح ، وتنادى بهدم صوامع الدراويش



منذ القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر ، كان قصر (سيراجليو) بالقسطنطينية مقر سلاطين الإمبراطورية العثمانية ، وفيه جرت أخطر أحداث التاريخ . وأغرب مؤامرات العشق والغرام . . وهو اليوم متحف يضم مجموعة من المجوهرات والتحف والأسلحة والخرائط والمخطوطات القديمة ، من أندر وأثمن مثيلاتها في العالم . والجانب الأيسر من الصورة يفضى إلى جناح الحريم بالقصر !

الذين يضللون الشعب ، وبوجوب إلغاء القوانين العتيقة الرجعية !

وأقسم أعضاء الجمعية معاهدين أنفسهم على المضى فى مكافحة استبداد السلطان وإنشاء حكومة دستورية يختارها برلمان شعبى ، تكون مهمتها تحرير الشعب من رجال الدين وتحرير النساء من الحجاب ونظام الحريم . « فقد كانت تركيا بمثابة المخنوقة بيد السلطان وجواسيسه ، وما لم يسمح لدم الأفكار الجديدة بالمرور فى عروقها فمصيرها حتماً إلى الموت » ! وانضم مصطفى كمال إلى جمعية « الوطن » ، وصار يكتب المقالات النارية والشعر الملتهب للنشرة السرية ، ويخطب فى المناظرات والمناقشات السياسية فى حماسة شديدة . وكان مدير الكلية الحربية على علم بأعمال الجمعية ، لكنه تجاهلها وغض الطرف عنها ! . . كذلك علم بأمرها جواسيس السلطان وكتبوا تقريراً عن نشاطها رفعوه إلى القصر ، فانزعج السلطان « عبد الحميد » أيما انزعاج ، ولم يخفف من غضبه أن كل أفرادها من « الشباب الذين لم ينضجوا بعد » لأن هؤلاء الشباب هم ضباط الجيش وقواده فى المستقبل . . ومن ثم أصدر السلطان أمره إلى « إسماعيل حقى باشا » ، القائد العام للتدريب الحربى ، لكى يقضى على « جمعية الوطن » هذه من أقرب سبيل . . وسرعان ما دعا حقى باشا إليه مدير الكلية ، واشتد فى لومه وتعنيفه على تهاونه فى معاقبة القائمين بأمر الجمعية ، ومنذ ذلك التاريخ منع المدير عقد أى اجتماع داخل أسوار الكلية ، ولكن أعضاء الجمعية واصلوا عقد اجتماعاتهم فى الخارج ، وكفوا عن المناقشات العلنية والمناظرات الكلامية ليركزوا جهودهم فى العمل سراً على تقويض دعائم الحكم الاستبدادى . . وهكذا تحولت جمعية « الوطن » إلى منظمة من المنظمات السرية التى ازدحمت بها العاصمة!

فى السجن الأحمر !

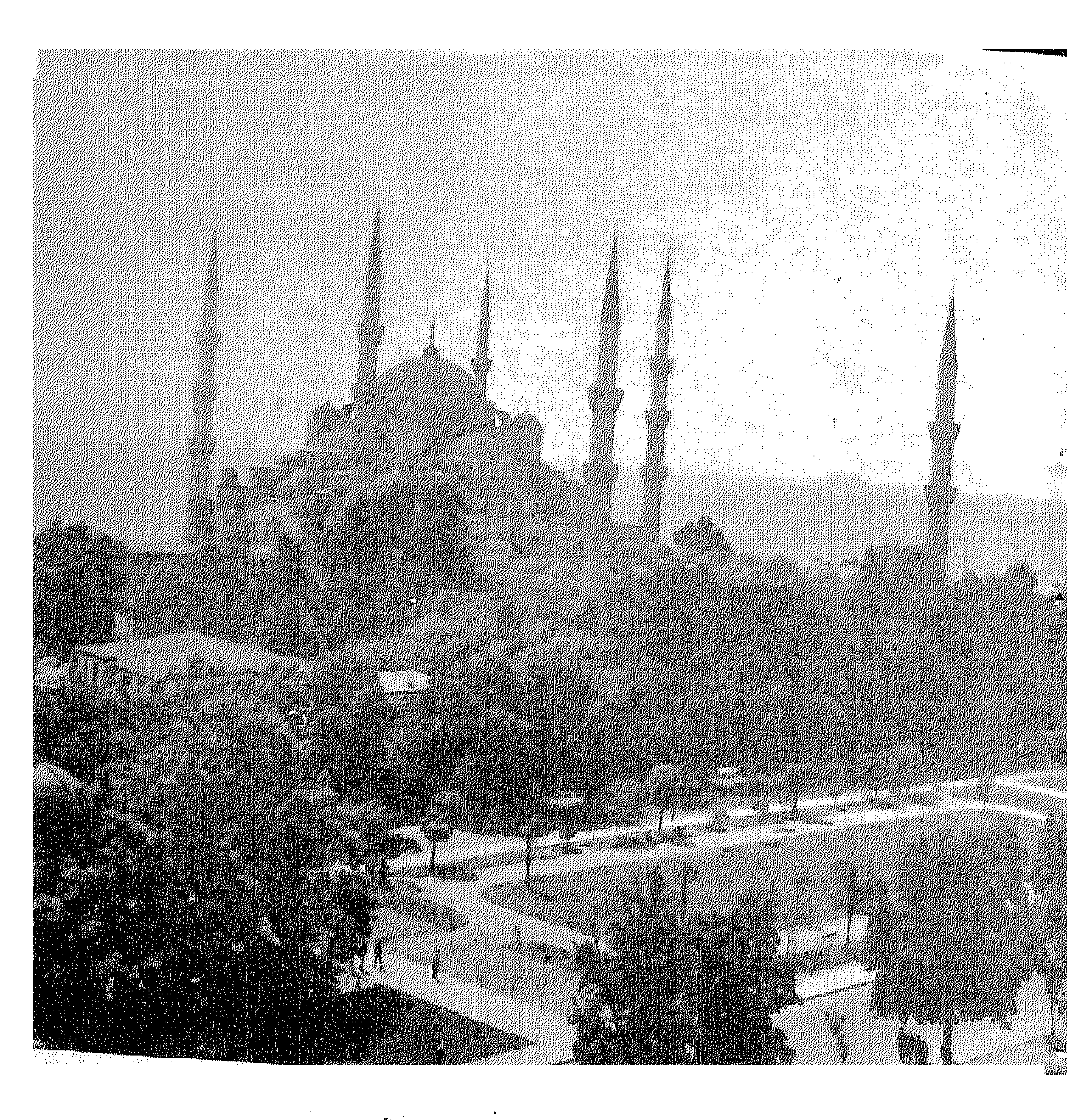
كانت هناك بضعة أسابيع أمام مصطفى كمال بعد تخرجه فى الكلية إلى أن يعين فى المنصب الذى يلائمه ، وكانت حالته المالية أكثر يسراً من حالة أكثر زملائه ، فقد صار فى مقدور أمه بعد زواجها أن ترسل له إعانة شهرية منتظمة . . ومن ثم تولى إدارة جمعية « الوطن » ، فاستأجر غرفة فى شارع غير مطروق كى تكتب فيها وتنسخ المنشورات الثورية . ونظم عقد الاجتماعات فى منازل الأعضاء أحياناً وفى الغرف الخلفية بالمقاهى أحياناً أخرى ، فكان أفراد الجمعية يتسللون إلى مكان الاجتماع خفية وهم يختلسون النظر إلى ما حولهم خشية أن يتبعهم أحد الجواسيس ! وأمتعت مصطفى كمال هذه السرية ، والأخطار التى تكتنف الحركة ، فبدأ يدرس أنظمة الجمعيات الثورية ، وطرق تأليف الخلايا ، واختبار إخلاص الأعضاء الجدد ، كما درس الملاكمة ، واستعمال الشفرة والرموز والإشارات وصيغ الأيمان المغلظة التى يتبادلها الأعضاء . . إلى آخر ما يتصل بالغاية التى يسعون فى سبيلها .

وكان رجال البوليس يراقبون نشاط الجمعية خفية ، لكى يضبطوا أعضاءها « متلبسين » بالجريمة . ولم يكن ذلك عسيراً ، فقد كانوا « مبتدئين » ، تغلب حماستهم على حكمتهم . . وهكذا استطاع الاندساس بينهم جاسوس للحكومة أخذ يموه على الشبان الأغرار حتى كسب ثقتهم ، وفى الوقت المناسب قام – على رأس قوة من رجال البوليس – بمهاجمة مكان الاجتماع أثناء وجود الأعضاء فيه فضبطوا جميعاً متلبسين واعتقلوا

ومعهم مصطفى كمال ثم زج بهم فى « السجن الأحمر » باستانبول ! وكان موقفه يدعو إلى القلق ، فقد تجمعت لدى البوليس أدلة كثيرة ضده ، ومن ثم عزل عن الباقين فى زنزانة خاصة وبدا المستقبل مظلماً أمامه ، فأقل ما ينتظره إذا اعتبره السلطان « خطراً » أن يبقى فى السجن الأحمر إلى ما شاء الله ، وهذا أخطر من نفيه من البلاد ، لأن كثيراً من نزلاء هذا السجن قبله اختفوا من الوجود ولم يخلفوا وراءهم أى أثر يدل على مصيرهم الرهيب !

وجاءت أمه زبيدة وشقيقته مقبولة من سالونيك لترياه .. لكن السلطات حالت بينهما وبين مقابلته ، فلم تستطيعا أكثر من إرسال بعض النقود إليه . وانقضت أسابيع وهو حبيس زنزانة ضيقة قذرة عامرة بالحشرات والهوام ، لا يدخلها الهواء والنور إلا من كوة صغيرة فى أعلى الجدار !

وأثر السجن فى نفسيته أسوأ الأثر ، فغدا ثائرا متوحشا . وذات يوم ، وبلا مقدمات ، فتحت زنزانته واقتيد منها عبر ميدان وزارة الحربية الى مكتب اسماعيل حقى باشا ، حيث وقف يؤدى التحية العسكرية فى حراسة اثنين من رجال البوليس الحربى . وجلس الباشا يرقبه برهه صامتاً ، وكان رجلا من الطراز العتيق ذا لحية ، وثياب فضفاضة زاهية ، وحركات بطيئة وقورة . وكان من رجال السلطان المخلصين . وبعد أن تفرس فى السجين برهة ابتدره قائلا : « لقد أظهرت مقدرة فائقة . وأمامك – إذا شئت – مستقبل باهر فى خدمة صاحب الجلالة . لكنك بدلا من ذلك قد جلبت لعار على نفسك وعلى سترتك العسكرية ، فعشت مع رفاق من أسوأ لشبان ، تنفق وقتك فيما لا ينفع . وأنكى من ذلك أنك صرت خائناً ، انغمست فى السياسة والمؤامرات الانقلابية التى يقوم بها خونة يضمرون



مسجد السلطان أحمد ، أو « المسجد الأزرق » باستانبول ، من أشهر المعالم التى تمثل رواء ومجد الإمبراطورية العثمانية . والمسجد شهير بمآذنه السامقة الرفيعة ، وقد شيد فى بداية القرن السابع عشر ، وقت أن امتدت حدود الإمبراطورية العثمانية من ليبيا إلى أبواب (فيينا) عاصمة النمسا !

الشر لمولاك السلطان ، وشجعت رفاقك على أن يحذوا حذوك » .

وقبل أن ينبس مصطفى كمال بكلمة يدافع بها عن نفسه ، واصل حتى باشا كلامه فقال : « على أن صاحب الجلالة رأى مع ذلك كله أن يظهر نحوك الرأفة والحلم ، على أساس أنك شاب طائش ، أقرب إلى أن تكون منساقاً إلى ذلك الإجرام بحكم شراستك وعنادك وحماقتك . وعلى هذا سوف نلحقك بإحدى فرق الفرسان المعسكرة فى دمشق .. ومستقبلك يتوقف على التقارير التى سوف نتلقاها عنك . فيجب عليك أن تكف عن كل هذه السخافات والحماقات ، وتكرس وقتك وجهدك للنهوض بواجباتك العسكرية . . فخذ حذرك واعلم أنه لن تتاح لك فرصة أخرى ! » وفى الليلة ذاتها وضع مصطفى كمال فى سفينة متجهة إلى سوريا ، دون أن يسمح له برؤية أمه أو أحد أصدقائه .

شتاء فى دمشق

بعد رحلة شاقة استمرت ثمانين يوماً هبط مصطفى كمال من السفينة فى ميناء بيروت ، ثم امتطى جواداً مضى به عبر جبال لبنان إلى حيث وجد فرقته الجديدة المعسكرة هناك متأهبة للزحف ضد الثوار الدروز ، الذين يعيشون فى الجبال الشامخة الواقعة إلى الجنوب من دمشق .

وأفاد مصطفى كمال من تجربته الأولى هذه فى الخدمة العاملة بالجيش . لكنها كانت مهمة عسيرة شاقة ، فالإقليم يتكون من جبال صخرية متداخلة تقطعها وديان عميقة ، وليس هناك ماء ولا طرقات معبدة . وكان الدروز من الجبليين المتوحشين الذين لم يروضوا ، وهم يعرفون كل شبر من

الأرض فى بلادهم ! . بينما الطوابير التركية ظلت أياماً تهيم على وجهها عاجزة عن الاهتداء إلى مقر الثوار أو الاشتباك معهم فى معركة ، فقد كان من دأب الدروز أن يتجنبوا المعارك ، وما يكادون يشعرون بخطر يتهددهم حتى يغادروا مكان تجمعهم مسرعين ، ليتبعثروا فى كل مكان ، ثم يتصيدوا أعداءهم ليل نهار من وراء قمم الصخور ومنعطفات الجبال ! . .

وهكذا كان أقصى ما استطاعه الأتراك أنهم لقنوا الدروز درساً قاسياً بحرق قراهم المهجورة وحقولهم القليلة المتواضعة . . فلما فرغوا من ذلك عادوا إلى دمشق ليقضوا فيها فصل الشتاء !

عكف مصطفى كمال بعد عودته مع فرقته إلى دمشق على إنشاء فرع لجمعية « الوطن » هناك ، ومن هذا يبدو أن الأسابيع التى قضاها فى زنزانة السجن الأحمر ، والتهديدات التى وجهها إليه حتى باشا ، لم تضعف عقيدته ضد السلطان أو تخيفه من سطوة حكومته . . فقد كان بفطرته ثائراً ` يحترم عرفا أو إنساناً أو وضعاً من الأوضاع . وكان ما يزال يلتهب بحماسة شباب ، لكنه قرر أن يهجر الأدب والشعر والكتابة ، لأنها لا تتفق ع الحركة والإقدام ، وتضعف العزيمة والقدرة على البت فى الأمور ! . . ركز همه فى التفصيلات العملية والتنظيم الدقيق للثورة . . . !

ووجد التربة صالحة لبذر البذور . . فالشبان من الضباط الأتراك ، دمشق كانوا كزملائهم فى القسطنطينية ساخطين متذمرين من الحالة ، لكبار منهم يؤيدون الحركة فى الخفاء ، ويبذلون عطفهم للقائمين بها ! . . قد وجد مصطفى كمال بين ضباط حامية دمشق زميلا قديماً من إخوانه ن المدرسة الحربية يدعى « مفيد لطفى » يشاركه ميوله وحماسته ، فاتخذه معيناً له . . ونمت الجمعية نمواً سريعاً فكثر عدد أعضائها وانتشرت مبادئها

فى صفوف شتى الحاميات التركية المتفرقة فى أنحاء سوريا ، وهكذا بدأ مصطفى كمال يصبح شخصية ذات أهمية . . لكنه تبين بعد قليل أن جهوده لن تؤتى ثمارها إلا إذا انصبت كلها على إشعال فتيل الثورة من دمشق ، وقد كان ذلك أمراً عسير التحقيق ، لأن ضباط الحامية التركية الصغيرة هم وحدهم المستعدون للثورة ، أما أهل البلاد السورية أنفسهم فكانوا أقرب إلى عرقلة الحركة وإحباطها ، إذ تنقصهم الحماسة للفكرة بحكم كونهم أجانب عن النزاع !

وفى أثناء ذلك تلقى مصطفى كمال رسالة من بعض أصدقائه فى إستانبول أكدوا فيها أن البلقان مركز القلاقل هى أصلح مهد للثورة ، واقترحوا أن يسعوا فى سبيل نقله إلى سالونيك ، لكى يتيسر له استغلال الفرصة هناك . فرأى أن يبحث بنفسه هذا الأمر ويذهب إلىَ سالونيك سواء أأذنت السلطات المختصة له بذلك أم لا . . وكان قائد حامية « يافا » – ويدعى أحمد بك – صديقاً له ، ومن أعضاء جمعية الوطن ، فاتفق معه على خطة رسمها لذلك ، ثم حصل على إجازة لبضعة أيام وسافر إلى يافا . وهناك حصل على جواز سفر مزور باسم تاجر سورى ، ثم أبحر متنكراً على سفينة متجهة إلى مصر ، ومنها عبر البحر إلى أثينا ثم إلى سالونيك ، وقد سره أن وجد السخط والتذمر ، والجمعيات السرية ، والجو الذى ينذر بالثورة ، فى كل مكان !

وهناك فى سالونيك اختبأ فى بيت أمه فترة من الوقت واستطاع عن طريق أمه وأخته أن يتصل ببعض زملائه القدامى فى كلية أركان الحرب ويبذل المساعى لكى ينقل من دمشق ، بعد أن تبين صحة ما قيل له عن تضخم حركة التذمر فى البلقان وتأهب الضباط الشبان للقيام بحركة

كبيرة ، فى الوقت المناسب !

على أن أمره انكشف قبل أن يتاح له الوصول إلى نتيجة ، إذ عرفه بعض جواسيس السلطان فى سالونيك ، وجاءت الأوامر من القسطنطينية بإلقاء القبض عليه فوراً ، ولكن نائب مدير البوليس فى المدينة — ويدعى جمال — كان عضواً فى جمعية الوطن بالعاصمة ، فأرسل إليه خفية بنبأ الأمر الصادر باعتقاله ، ونصح له بالفرار من المدينة خلال يومين على الأكثر ، لأنه لن يستطيع تأخير اعتقاله أكثر من هذه الفترة القصيرة !

فراره إلى اليونان ، ويافا ، وغزة !

وبادر مصطفى بالفرار عبر الحدود إلى اليونان ، ومن هناك استقل السفينة عائداً إلى يافا ، لكن أمر القبض عليه كان قد سبقه إلى هناك . . وبدا أنه لن ينجو هذه المرة ، ولن يجد فى السجن الأحمر رأفة ولا رحمة . . ولن تتاح له فرصة ثانية للتوبة والتكفير . . !

وعهدت السلطات إلى « أحمد بك » فى تنفيذ أمر القبض على مصطفى كمال ، فذهب إليه فى السفينة لدى وصولها ، ولكن لا ليقبض عليه ، بل ليسلمه أوراقه الخاصة وسترته العسكرية ويعاونه على الفرار إلى « غزة » ، حيث كانت منطقتها تعاني بعض الاضطرابات ، وكان صديقه الآخر « مفيد لطفى » يتولى قيادة الحامية التركية فيها ! . . ثم كتب أحمد بك إلى القسطنطينية يطلب مزيداً من الإيضاح مؤكداً أن ثمة خطأ فى ذلك الأمر ، لأن مصطفى كمال كان فى غزة منذ شهور ، ولم يبرح سوريا منذ جاء إليها ! . . وأيد هذا مفيد لطفى أيضاً ! . .

وهكذا أنقذه هذان الصديقان القديمان من شر الاعتقال الجديد

وما كان ينتظره بعده من خطر كبير ! وقضى مصطفى كمال العام التالى متجنباً كل نشاط عدائى ، فقد أدرك أنه لو وقع فى قبضة السلطان هذه المرة فلن يرى نور النهار بعد ذلك . . ومن ثم ركز همه فى عمله ، فكتب رؤساؤه تقارير يشيدون فيها بكفاءته وإخلاصه لواجبه . . واعتقدت السلطات المختصة فى القسطنطينية أن جواسيسها فى سالونيك أخطأوا فى مزاعمهم عن سفره إلى البلقان ، لأن الدلائل كلها تدل على أن هذا الضابط الشاب قد شفى من حماقته وثاب إلى عقله !

لكن مصطفى كان قد صح منه العزم على العودة لسالونيك ، إذ عز عليه أن يبقى فى سوريا بعيداً عن الأحداث الكبرى التى تجرى فى أرض الوطن ! . . وكان يعرف أعضاء جمعية « الوطن » المنبثين فى كل حامية أو فرقة ، وفى وزارة الحربية نفسها وما يتبعها من إدارات . . فاستغل كل فرصة وضرب على كل وتر ، حتى ظفر بأمر نقله إلى سالونيك آخر الأمر ، فهرع إلى مركز التمرد الذى تختمر فيه بوادر الثورة ، وكله تحفز !

وكان العمل الجديد لمصطفى كمال بسالونيك ، فى فرقة أركان حرب الجيش الثالث ، وهو عمل يقتضيه البقاء فترة من الوقت فى المدينة ، ثم السفر للتفتيش فى المناطق الأخرى فترة أخرى . وكان زوج أمه قد مات تاركاً لها منزلاً كبيراً وسط المدينة ، وقدراً كافياً من المال ، فأقام بهذا المنزل معها ومع أخته مقبولة .

وأتاح له عمله هذا أن يجتمع بكثير من الضباط الذين زاملهم فى كلية أركان حرب ، فحاول أن يؤسس منهم فرعاً لجمعية « الوطن » لكنه لم يوفق !

وكان يفاجئهم أحياناً وهم منهمكون فى الحديث فإذا بهم يسكتون

مرتابين ، كأنما يحسبونه جاسوساً مدسوساً عليهم ! وهكذا أيقن أنهم يدبرون أمراً لكنهم يحرصون على كتمانه عنه . ثم باح له واحد منهم أخيراً بأن منظمة ثورية كبيرة ألفت فى سالونيك وأطلق عليها اسم « الاتحاد والترقى » ، وبأن اجتماعاتها تعقد فى بيوت بعض اليهود المنتمين للجنسية الإيطالية والجمعيات الماسونية الإيطالية ، إذ أن جنسيتهم هذه تحميهم – بحكم المعاهدات والامتيازات الأجنبية – من الخضوع لأوامر القبض التى يصدرها السلطان ، ومن تفتيش البوليس لمنازلهم ، أو محاكمتهم أمام المحاكم التركية ، لأن لهم محاكمهم القنصلية الخاصة .. ومن ثم دأب أعضاء « الاتحاد والترقى » على الاحتماء بحصانة هؤلاء اليهود ، فكانوا يجتمعون فى بيوتهم آمنين من كل خطر !.. وكان بعضهم – ومن بينهم « فتحى المقدونى » ، صديق مصطفى كمال القديم – قد انضموا إلى جماعة « الماسون » – البنائين الأحرار – واستعانوا على تأليف جمعيتهم الثورية وتنظيمها باقتباس أساليب المنظمات الماسونية . وصاروا يتلقون الإعانات المالية الوافرة من مختلف الجهات ، ويتصلون اتصالاً منتظماً باللاجئين السياسيين البارزين الذين نفاهم السلطان إلى خارج البلاد !

ومضت فترة طويلة راقبت جماعة « الاتحاد والترقى » خلالها مصطفى كمال مراقبة خفية دقيقة ، ثم دعته إلى الانضمام لصفوفها بعد أن وثقت بأمانته وحسن نواياه ! وبدأ الأعضاء القدامى يدربونه على نظم جمعيتهم . ثم ألحق بإحدى الشعب التى تتألف منها الجمعية ، لكنه وجد نفسه فى جو غير ملائم له ، إذ كانت هذه الشعبة فرعاً من منظمة « النيهيلست » الدولية التى تؤمن بالفوضوية أو « العدمية » فلا تقيم وزناً للقيم والمعتقدات . والتى تضم أشتاتاً من الناس يتحدثون عن اضطهاد روسيا لليهود ، ويتغنون

بفضائل النمسا ، وإتاحتها لهم فرصاً لجمع المال ! .. وكان أكثر الأعضاء من معتلى الصحة ، الولوعين بالأسرار والتحدث بالرموز الغامضة ، فأدرك مصطفى أنه قد تورط فى الانضمام لمنظمة دولية سرية هدامة لا يدرى ما هدفها على التحقيق .. ولم يكن يعنيه فى شيء أمر الأهداف الدولية أو متاعب اليهود أو طقوس الماسونية .. وإنما كان كل ما يعنيه أنه تركى فخور بتركيته ، حريص على إنقاذ تركيا من طغيان السلطان وتجاوزه حدود سلطته ، ومن قبضة الأجانب الخانقة ! ولما كان حديث عهد بالجمعية ؛ لم يعهد إليه بشيء أكثر من تنفيذ أوامر الأعضاء القدماء المستترين خلف نقاب الطقوس الماسونية المعقدة .. فى حين كانت طبيعته تميل إلى أن يكون هو الآمر الناهى فى الجمعية ، أو لا يكون فيها على الاطلاق !

على أنه – أيًّا كانت مكانته بين الأعضاء – كان أبعد ما يكون عن الطاعة العمياء لسواه ، بل كان دائم الانتقاد حاد اللسان . وكانت انتقاداته قاطعة بتَّارة ، لا تقيم وزناً لمخلوق ، وإنما يكفى أن يعارضه أحد حتى يغدو شرساً متوحشاً !

وكان يحنقه من جمعية « الاتحاد والترقى » أنها جمعية جعجعة بلا طحن ، يكثر فيها القول ويقل الفعل ، فى حين كان هو يريد حقائق لا نظريات ، يريد أعمالاً تدبر بعناية وتنفذ فى مزيج من الحزم والحذر .. ومن ثم لم يظهر أى احترام لزعماء الجمعية ، بل تشاجر معهم جميعاً : مع « أنور » .. و « جمال » .. و « يافيد » اليهودى الأصل . و « نيازى » الألبانى المتوحش الدعىّ . . و « طلعت » ، الذى كان موظفاً صغيراً فى مصلحة البريد ! أولئك كانوا زعماء الجمعية ، وقد عاملهم مصطفى كمال جميعاً فى تعالٍ وخيلاء . كان يكلمهم كما لو كانوا فتية فى فصل دراسى وهو

أستاذهم !.. وفى إحدى المناسبات تحدث بعضهم فى مقهى « جنوجنو » عن « جمال » باعتبار أنه وطنى عظيم ، فقاطعهم مصطفى ساخراً وألقى عليهم محاضرة طويلة عن العظمة الحقيقية . وفى الصباح التالى التقى بجمال فى القطار أثناء ذهابهم جميعاً إلى أعمالهم ، فصارحه برأيه فيه وكونه « طالب شهرة » لا أكثر ولا أقل . . ثم كرر على مسمعه محاضرته !

وحتى علاقاته بزملائه الضباط كان فيها معتداً بنفسه ، دائم السخرية ، مرير الانتقاد ، دون ما دعابة تخفف من مرارة كلماته !.. ولذلك كرهه إخوانه ، وأساء اليهود الظن به .. وحرص زعماء الجمعية على تركه خارج نطاق الدائرة السرية الضيقة التى تدير أعمال المنظمة !

قلب الأم ... وحيرتها !

وكذلك كان شأنه فى البيت ، فلم يكن يقبل أية ملاحظة إلا من أمه زبيدة . بل لقد كان معها أيضاً كثيراً ما يعتصم بجموده وتحفظه إذا أخطأت مرة فخدشت كبرياءه .. ولم يكن يسمح لها بالتدخل فى شئونه الخاصة ، وقد حدث مرة أنه أحضر زملاءه المتآمرين معه إلى المنزل . وفيما هم يتباحثون سمع الخدم طرفاً من الحديث فنقلوه إلى أمه، وتسللت هى إلى باب الحجرة حيث أصغت إلى ما يدور فى داخلها !. فلما انصرف القوم خلت إليه واشتدت فى معارضة ما يدبرون ، ولم يستطع مصطفى إقناعها ، إذ كانت من الجيل القديم لا تؤمن بغير العقائد والمبادئ التى رسخت فى ذهنها . وهكذا حمى وطيس الجدل بينهما ، لكن زبيدة كانت من الحكمة بحيث قبلت أن تساعد ابنها فى مشروعاته فقد كان رب البيت ، ويعرف من أمور الدنيا التى

لمسها فى حياته العملية أكثر مما تعرف ، وقد يكون الحق فى جانبه برغم ثقتها بغير ذلك ، ثم إنها كانت تخشى أن يترك البيت فاضطرت إلى مساعدته راغمة ، وإن لم تكف عن الشكوى والتذمر من تهوره ، وعن تحذيره فى كل مناسبة من عاقبة التآمر ضد السلطان ورجال الدين !

ووقع ما خشيته زبيدة .. فقد ضاق مصطفى بلجاجتها وبقيود الحياة البيتية ، وثرثرة النساء .. فاستأجر لنفسه غرفة فى الخارج مؤثراً أن يظل سيد نفسه ، واكتفى بالتردد عليها بين الحين والآخر .

وكان خلال النهار يؤدى واجباته العسكرية بنشاط وهمة خارقين .. ثم يقضى أكثر لياليه فى المقاهى ، حيث يأكل ويجتمع بزملائه المتآمرين فى حجرة خلفية من مقهى « جنوجنو » .. أو فى بيت أحد الأصدقاء ، بعد إحكام إغلاق النوافذ والأبواب فى وجه عيون البوليس وجواسيس السلطان ! . وهناك ، بين كؤوس الطلا ودخان السجائر ، وعلى ضوء شمعة أو مصباح بترول ، كان المتآمرون يسهرون حتى ساعة متأخرة من الليل ، يتناقشون ويدبرون أمر الثورة المقبلة ! ..

وحرص مصطفى كمال مع حضوره هذه الاجتماعات ، على عضويته فى جماعة « الاتحاد والترقى » . على أن نصيبه من العمل فيها أخذ يقل ويتضاءل .. ولاسيما أن زعماءها استمروا يذودونه عن دائرتهم الخاصة الضيقة ، ولم يكن هو بالذى يقبل أن يكون مرؤوساً خاضعاً لأحد .. فإما الصدارة وإما الانزواء !

وهكذا كان يزداد ميلاً إلى العزلة والصمت كلما تقدمت به الأيام !

وأخيراً ، اندلعت الثورة التى كان القوم يحضرون لها . وكان ذلك فجأة وبلا مقدمات ، فقد جمع « نيازى » حفنة قليلة من الرجال ، ثم شرع بتهوره

المعروف — ومن غير أية دراسة سابقة — فى الزحف عبر جبال مقدونيا الجنوبية متحدياً الحكومة . وفى الوقت نفسه أصدر « أنور » بياناً أعلن فيه الثورة ، ورحف هو الآخر بفيلق من الجنود فى شرق مقدونيا !

لم يكن شيئاً معداً أو منظماً ، بل إن جمعية الاتحاد والترقى ذاتها لم يكن فيها أكثر من ثلاثمائة عضو عامل . وما كان أحد يعرف شعور الجنود أنفسهم وميولهم ! . . أما مصطفى كمال فقد اعتصم بالهدوء واستمر يؤدى واجباته العسكرية .. فهو لم يكن من الحمق بحيث يقامر بالاشتراك فى مغامرة جنونية مرتجلة كهذه . كان يرى أن الإقدام على خطوة من هذا القبيل لا بد أن تسبقه دراسة دقيقة حذرة ، وأن تعد العدة الكافية لكل احتمال !

لكن « المغامرة الجنونية » نجحت ، خلافاً لما كان يعتقده مصطفى كمال ! وكان تاريخ الأشهر القليلة التى تلت شروع نيازى وأنور فيها أشبه بحلم عجيب غريب . فالثوار الذين اشتركوا فى الزحف لم يكن عددهم يزيد على بضع مئات ، وقد تفرقوا فى الجبال بلا أمل فى معونة أو مدد ، ولكن القوات التى أرسلت للقضاء عليهم سرعان ما انحازت إلى جانبهم فرقة بعد فرقة ، وكان الجنود قد أهملوا سنوات ، ولم تدفع لهم مرتباتهم بانتظام ، وأعجب من ذلك أن القوات التى أرسلت بعد ذلك من داخل تركيا انضمت هى الأخرى إلى الثوار . وهكذا وجد أعضاء الجمعية أنفسهم أمام نصر مبين جاوز كل ما كان فى حسبانهم ، وبدأ جبروت السلطان يضمحل ونفوذه يتبدد كأوراق الشجر فى الخريف حين تذروها الرياح ! وسارع « ثعلب إستانبول » الماكر العجوز — السلطان عبد الحميد — إلى اتخاذ قرارات عاجلة لإنقاذ الموقف ، فأعلن تأليف حكومة دستورية ، ولام مستشاريه على أخطاء الماضى ومظالمه ، ثم ألغى الجاسوسية ، وأعلن ترحيبه باستقبال زعماء الثوار ، فعاد نيازى وأنور على رأس

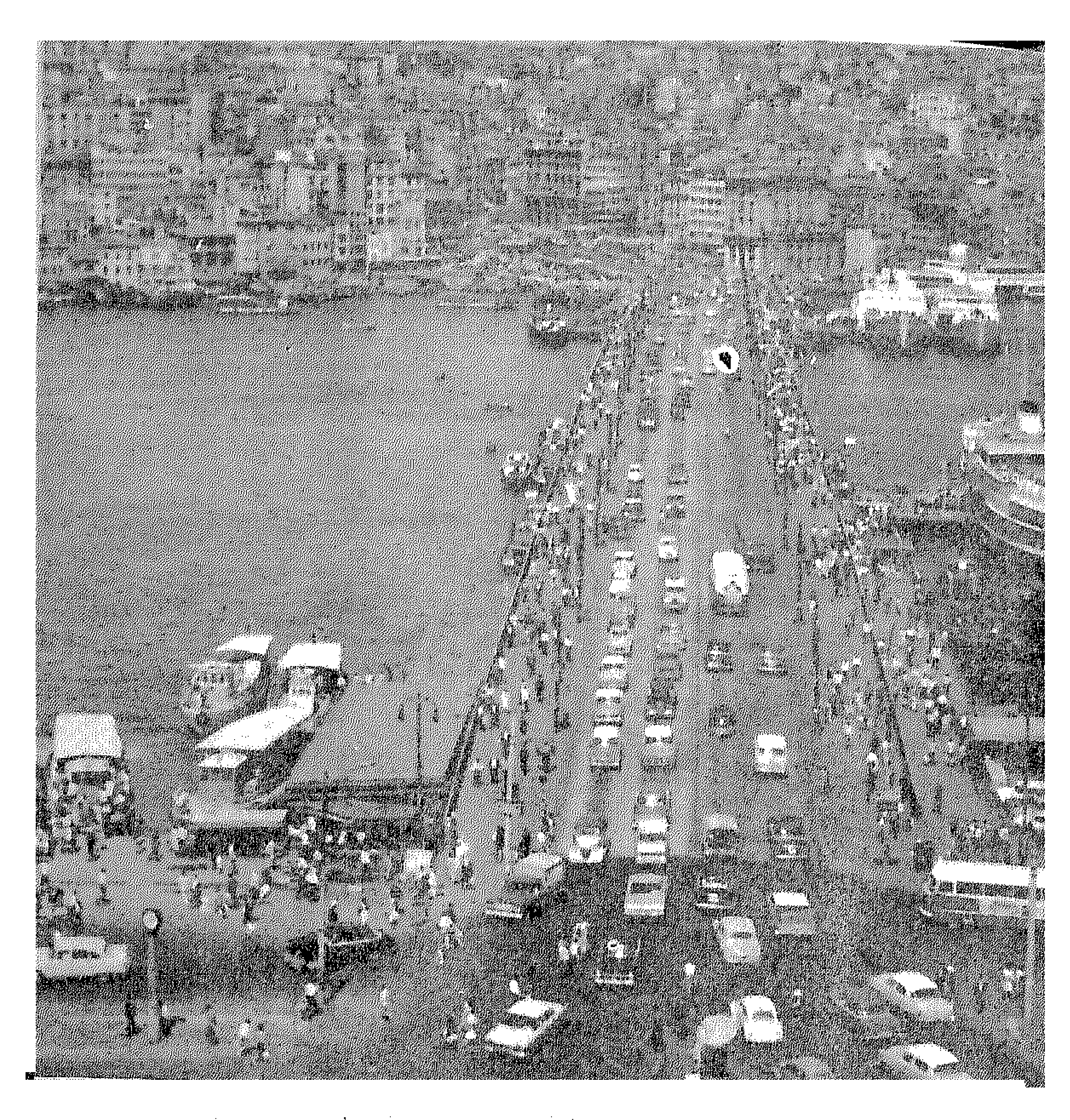
قواتهما إلى سالونيك ، واستقبلتهم هناك جموع حاشدة متحمسة من اليونانيين والأتراك ، واطمأن الجميع إلى أن عهد الإرهاب قد زال !

وكان بين المستقبلين مصطفى كمال وغيره من أعضاء الجمعية الذين لم يضطلعوا بأى دور إيجابي فى الثورة . وأعلن « أنور » دستور الحكم الجديد من شرفة فندق « أوليمبيا بالاس » الواقع فى الميدان الرئيسى بسالونيك . ووسط زحام الضباط الذين اصطفوا خلفه وقف مصطفى كمال يدير عينيه فى تلك الجموع ، ولا يكاد أحد يعرفه سوى أفراد قليلين يعتبرونه أحد الأعضاء الصغار الذين لا وزن لهم فى الجمعية !

وفى الأيام التالية تدفقت على المدينة جموع من المنفيين السياسيين الذين أبعدهم « عبد الحميد » منذ عشرين سنة . وبينهم الأمراء ، ورؤساء الوزارات والوزراء السابقون ، وغيرهم ، وانضم أكثرهم إلى الضباط الشبان الثائرين ، واشتركوا فى الإشراف على جمعية « الاتحاد والترقى » . . ثم هرعوا إلى القسطنطينية ينشدون الظفر بنصيب من الغنيمة ويتآمرون للاستئثار بالحكم !

وفى أثناء ذلك عاد نيازى إلى ألبانيا فما لبث قليلاً حتى اغتيل هناك ، وعين أنور ملحقاً حربياً بسفارة تركيا فى برلين .. أما مصطفى كمال فأرسل فى مهمة إلى أفريقيا الشمالية ليكتب تقريراً عن حامية طرابلس . وعم الاضطراب كل شيء ، واستغلت الدول الأجنبية الفرصة فاغتالت النمسا منطقة « البوسنة والهرسك » ، وضمت اليونان إليها جزيرة كريت .. وأعلنت بلغاريا استقلالها التام بمعاونة روسيا ! . . وقامت الثورات فى ألبانيا ، وفى شبه جزيرة العرب !

ووسط هذا الارتباك كله نشط أعوان السلطان للعمل ، فرشوا بالمال جنود القسطنطينية ، وأرسلوا الوعاظ ورجال الدين يحذرون الناس من الحكام الجدد ويتهمونهم بالإلحاد واعتناق المبادئ الباريسية الهدامة ،



قنطرة (غالاطا) الشهيرة ، على خليج (القرن الذهبي) ، إحدى معالم استانبول (القسطنطينية) . . المدينة التي تربط قارتي آسيا وأوربا ، والتي عاصرت ثلاث إمبراطوريات ، وشهدت أحداثاً غيرت مجرى التاريخ !

كما يتهمونهم بأنهم يهود وماسونيون ، وليسوا أتراكاً ولا مسلمين ، وكل ما يهدفون إليه هو القضاء على الإسلام والخلافة !

وكانت النتيجة أن تمرد جنود القسطنطينية فقتلوا ضباطهم أو سجنوهم ، وأعلنوا ولاءهم لدين الإسلام وللسلطان ظل الله فى الأرض وخليفة الرسول العظيم . ثم استولوا على القسطنطينية وطردوا منها أعضاء « الاتحاد والترقى » !

ولجأ أعضاء الجمعية إلى الجيش المعسكر فى مقدونيا يلتمسون منه العون حتى لا يعود عبد الحميد وزبانيته إلى استبدادهم وطغيانهم ! وكان القائد الأعلى لقوات مقدونيا عربياً من المقربين لدى السلطان عبد الحميد ، وهو شوكت باشا ، وكان طويل القامة نحيلها ، شاحب الوجه كالموتى ، فأخذته الحيرة برغم براعته فى فنه العسكرى ، ولم يدر ماذا يفعل إزاء هذه المشكلة ! . وأخيراً عمل بمشورة بعض الضباط أركان حربه ومنهم مصطفى كمال الذى كان قد عاد من طرابلس ، فأصدر أمره بزحف جيشى مقدونيا الثانى والثالث نحو القسطنطينية ، وأسند إلى مصطفى كمال قيادة أركان الحرب ، بينما تولى أنور قيادة إحدى فرق الفرسان ، وكان قد عاد من برلين حين سمع بالأحداث الأخيرة !

خلع السلطان عبد الحميد !

وأخمد الجيش المهاجم تلك الثورة المضادة ، وخلع السلطان عبد الحميد وسجنه فى « فيللا » بمدينة سالونيك ، ثم عهد فى حراسته إلى « فتحى » المقدونى وولى مكانه على العرش ابن عمه الكسيح ، وأعاد مقاليد الحكم إلى اللجنة العليا لجمعية الاتحاد والترقى . . وكان أنور أبرز أعضاء الجمعية ،

فبدا لأنظار الناس بطلاً شعبياً ، وأعانه على الظهور ذكاؤه وحماسته وجرأته وحبه للإعلان والدعاية .. فى حين كان مصطفى كمال لاذعاً ساخراً متحفظاً ، فبقى فى الظل .. مجهولاً من الجماهير ، غير محبوب من القادة . وكان رأى اللجنة فيه أنه ضابط كفؤ لكنه بغيض لا يكف عن انتقاد الجميع وعصيان الأوامر . ومن ثم دفعوه إلى المؤخرة وأعادوه إلى عمله العسكرى الذى أسند إليه من قبل !

عاد مصطفى كمال إلى عمله العسكرى مشتعل النشاط إذ كان عسكرياً بفطرته . وأخذ يبذل مجهوداً شاقاً فى تنظيم الطوابير وإلقاء المحاضرات ، ودرس التاريخ الحربى لحملات نابليون و « مولتكه » قائد الألمان .. فلم يمض وقت طويل حتى أحرز ترقيات عدة متتالية أوصلته ، وهو دون الثلاثين ، إلى منصب قائد أركان الحرب للجيش المقدونى الثالث ! وفى سنة ١٩١٠ عين ملحقاً بقيادة الجنرال « على رضا » فى البعثة العسكرية التى أرسلت إلى فرنسا ، فمكث بضعة أيام فى باريس ، ثم توجه إلى « بيكاردى » حيث كانت تجرى المناورات العسكرية السنوية .. وكتب الجنرال على رضا تقريراً عنه قال فيه : « إنه أظهر كفاءة ملحوظة وحسن تقدير للأمور ، وكان ضابطاً مقداماً بعيد النظر » .. فلما عاد بعد ذلك إلى سالونيك عين مشرفاً على مدرسة الضباط بها ، فأعاد تنظيم المدرسة بما شهد له بالكفاية العظيمة ، لكنه لم يكن راضياً أو قانعاً بهذا المنصب ، لأنه برغم ميوله العسكرية كان دائم الحنين إلى السياسة .

لم تكن الثورة قد أصلحت من الأمور شيئاً ، وقد تولى مقاليد الحكم فى البلاد زملاؤه القدامى الذين عرفهم فى سالونيك : أنور ، وطلعت ، وجمال .. لكن مصطفى كان يغض من شأنهم ، ويعتقد أنهم لا يصلحون

حكاماً !.. وقد جاهر بآرائه هذه فى مدرسة الضباط ، وفى المجتمعات المختلفة .. وصرح بأن الدول الكبرى تزداد شراهة وطمعاً فى خيرات البلاد ، فألمانيا تضيق الخناق على تركيا ، وماليوها يبتاعون كل يوم لأنفسهم حقوقاً وامتيازات جديدة ، وقد ظفروا بامتياز السيطرة على سكة حديد بغداد ، إذ باعه إليهم الوزير اليهودى الخائن « يافيد » ، عضو الاتحاد والترقى القديم الذى صار وزيراً لمالية تركيا !.. وهؤلاء هم كبار الدبلوماسيين الألمان ينشطون فى القسطنطينية لبث دعايتهم وتحقيق مصالحهم .. أما فى الداخل فكل شىء ما زال على فساده الأول فى عهد عبد الحميد ، والفقر آخذ بخناق الشعب ، والسخط شامل عام فى جميع الطبقات ولا سيما فى صفوف الجيش ! . . ثم يختم مصطفى كمال حديثه الصريح الجرئ مؤكداً ألا بد من تطهير عاجل شامل !

وهكذا أخذ اسم مصطفى كمال وكفايته فى الذيوع والانتشار ، وكان بين الضباط عدد كبير من الساخطين المتأهبين لإحداث القلاقل ، فبدأوا يصغون إلى أحاديثه هذه ، وينظرون إليه فى إكبار ، ويلتفون حوله معجبين مؤملين ! وأمتعه أن صار مرموق المكانة بارز الشخصية محترماً من الجميع ، فتغير مسلكه وصار أكثر تلطفاً مع الملتفين حوله وأكثر شعبية !.. وبلغت أخباره مسامع محمود شوكت باشا – وكان قد أضحى وزيراً للحربية – فأدرك خطره على منطقة البلقان التى يمارس فيها نشاطه ، ونقله من مدرسة الضباط إلى منصب قائد فرقة المشاة الثامنة والثلاثين فى سالونيك !.. لكن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً ، فمارس مصطفى نشاطه فى بيئته الجديدة ، وكان فى الوقت نفسه يؤدى واجباته العسكرية على الوجه الأكمل ، فازداد عدد الضباط الملتفين حوله ، وبدأ يدبر خطة أكثر وضوحاً وتحديداً ، للقيام

بحركة مفاجئة لقلب نظام الحكم !. ومرة أخرى عاد يقضى أمسياته فى الاجتماعات السرية وراء الأبواب المغلقة .. لكنه فى هذه المرة كان العقل المسيطر ، وكان خصومه هم رجال الثورة القدامى الذين أصبحوا حكاماً !..

وكانت خطته ترمى إلى تأليف حكومة وطنية صالحة وإبعاد كل نفوذ للأجانب ، وقد اتخذ لخطته الجديدة هذه شعارا هو « تركيا للأتراك » ! وأبلغ رجال الحكومة رؤساءهم أن مصطفى بات رجلاً خطيراً !.. فطالبت اللجنة بمعاقبته . وإذ ذاك دعاه محمود شوكت باشا ووجه إليه تهمة تحريض الجنود على الثورة ضد الحكومة ! . لكنه لم يجد دليلاً كافياً يبرر القبض عليه فاكتفى بإعفائه من منصبه وانتدبه للعمل فى ديوان الوزارة بالقسطنطينية !

وكان عسيراً أن يجد المسئولون وسيلة للتخلص من خطر مصطفى كمال فالتحذير والتهديد لا يجديان شيئاً معه لأنه لا يعرف الخوف . ولم تكن هناك تهمة محددة يمكن إثباتها عليه ، فقد كان حذراً شديد الحرص !.. لكنه فى العاصمة سوف يكون بعيداً على الأقل عن مركز القلاقل فى البلقان ، وبعيداً عن أصدقائه وأتباعه ، كما تتيسر مراقبته فيها !

وفى تلك الفترة – أكتوبر سنة ١٩١١ – عمدت إيطاليا فجأة بلا إنذار أو مقدمات ، إلى إنزال حملة من قواتها فى ميناء طرابلس بشمال أفريقيا ، فاستولت على المدينة ، وعلى شطر من الساحل .. وكانت طرابلس وقتئذ تابعة لتركيا !

وعند ذاك طرح مصطفى كمال السياسة جانباً ، فقد لاحت له مهمة تليق بالرجال أمثاله : إنه ينبغي أن يهرع إلى طرابس ليقاتل الإيطاليين . .

ضابط مصرى ينقذه !

لم يكن يصل بين تركيا وشمال أفريقيا غير الطريق البرى الطويل الذى يخترق سوريا ومصر ، فقد كان الإيطاليون يسيطرون على البحر ويغلقون الدردنيل . وكان الأسطول التركى مؤلفاً من بارجتين وبضعة طرادات حربية . لكن مراجلها كانت صدئة وبحارتها قد اختفوا ، فتركت مهجورة راقدة فى الوحل فى خليج « القرن الذهبى » . . وهكذا كان مستحيلاً إرسال قوات نظامية لنجدة طرابلس ، وصار لزاماً على الضباط الراغبين فى التطوع للقتال دفاعاً عنها أن يبحث كل منهم عن الوسيلة الكفيلة بوصوله إلى الميدان ، وكان أكثر الضباط الشبان راغبين فى ذلك التطوع ، وقد سارع « أنور » إلى الذهاب إلى هناك ، ثم لحق به « فتحى » الذى كان قد عين ملحقاً حربياً فى باريس ، مستقلاً سفينة صيد فرنسية نقلته من مرسيليا إلى تونس !

أما مصطفى كمال فقد سلك الطريق البرى ، يصحبه اثنان من أصدقائه ، فعبروا آسيا الصغرى إلى سوريا ففلسطين فمصر ، إما بالقطار وإما بالمركبات أو على ظهور الجياد ! . على أنهم ما كادوا يصلون إلى الإسكندرية حتى وجدوا أن إنجلترا قد أعلنت حياد مصر وأغلقت حدودها فى وجه المحاربين من الفريقين !

وثار مصطفى كمال واستبد به الغيظ ، فقد كان يعتبر مصر تابعة لتركيا ، فكيف يجرؤ الإنجليز على إغلاق حدودها فى وجه الأتراك الذاهبين لمساعدة أتراك مثلهم فى أرض تركية ؟ ! ولكن لم يكن هناك ما يمكن عمله .. فافترق الرفاق الثلاثة ، على أن يتخذ كل منهم الطريق الذى يختاره للوصول إلى غايته !

وتنكر مصطفى كمال فى زى عربي ، واستقل القطار الحديدى المتجه إلى الغرب . لكنه أوقف عند الحدود بين مصر وطرابلس ، ولم يكن يعرف من العربية إلا ألفاظاً قليلة ، كما أن زرقة عينيه ولون شعره كانا ينمان عن أصله التركى . وكان ضابط الحدود المصرى قد تلقى من القائد الإنجليزى لمنطقة الإسكندرية أوصاف مصطفى كمال ، مشفوعة بأمر صريح بإعادته مخفوراً من حيث أتى .. لكن هذا الضابط كان يطوى قلبه على الكراهية للإنجليز والإيطاليين ، ويمالئ الأتراك بعواطفه ، فاعتقل مسافراً آخر ذا عينين زرقاوين .. وترك مصطفى كمال يواصل رحلته على بركة الله ! واتجه مصطفى رأساً إلى القيادة التركية فى « عين المنصور » ، على بعد خمسة عشر ميلاً من ميناء « درنة » . . فاستقبل بالترحيب ، ولا سيما أن القيادة هناك كانت تعاني نقصاً فى الضباط وأنه كان ذا خبرة بالإقليم وأهله منذ طاف بالبلاد فى العام الأسبق .. وهكذا رقى من فوره إلى رتبة بكباشى وأسندت إليه القيادة فى المنطقة المواجهة لدرنة وجعل مقر قيادته فى عين المنصور ، حيث يقيم « أنور » ، القائد العام للجبهة كلها . !

وكان الإيطاليون – بمعاونة أسطولهم – قد احتلوا جميع البلاد الواقعة على طول الساحل ، لكنهم عجزوا عن التقدم فى الداخل ، حيث واجههم الأتراك ومن خلفهم شعوب شمال أفريقيا كلها التى امتشقت السلاح وأعلنت « الجهاد » أو الحرب المقدسة . وجعل الوعاظ يثيرون حمية الأهالى بالضرب على نغمة الدين ، فتدفقت القبائل من ليبيا ومن واحة الكفرة لنصرة الأتراك إخوانهم فى الدين . وأعلن السيد السنوسى أن « أنور » يمثل عظمة السلطان خليفة المسلمين ، ومضى يزوده بالمحاربين .. فضلاً عن المتطوعين الذين جاءوا من كل حدب وصوب !

وعرف أنور كيف يستخدم الجميع ، وأقام لنفسه خيمة عظيمة فرشت بالسجاد وبطنت جدرانها بالجوخ والأصواف المزركشة ، وفيها كان يستقبل المشايخ ورؤساء القبائل ويستمع إلى آرائهم .. ونظم المحاربين تحت إمرته وقسمهم إلى جماعات تقيم فى أربعين خيمة ، خصصت لكل منها امرأة تسهر على راحة قاطنيها وتعد طعامهم . . ويشرف على كل جماعة ثلاثة من الضباط الأتراك . . وكان يسخو فى دفع أجور المحاربين وإطعامهم ، وإرسال الهدايا والعطايا إلى أرامل الذين يستشهدون منهم . . وهكذا مضى فى صبر ومثابرة ونشاط يلهب حماستهم للقتال ، حتى استطاع أن يرد الإيطاليين إلى الشاطئ !

وكان مصطفى كمال على صلة مستمرة بأنور ، وكان يكبره بعام واحد فى السن ، وإن عد مرؤوساً له . . ولم يستطع الإثنان أن يتفقا فى رأى ، بل كانا دائماً على خلاف . كان كلاهما أبياً سريع الغضب قوى الإرادة ، بحكم ما يجرى فى عروقه من الدم الألباني . كما كان كل منهما لا يقبل نقداً أو معارضة ولا يعرف المخوف من الأخطار . !

وبينما كان أنور يتحمس للمشروعات الضخمة والخطط الجبارة من غير أن يعبأ بالتفصيلات أو الحقائق والأرقام .. كان مصطفى كمال على نقيض ذلك ، شديد الحذر لا يجرى وراء الأحلام العريضة وإنما يسعى إلى أهدافه المحددة بعد أن يمعن فيها النظر طويلاً ويقلبها على شتى وجوهها .. ولم يكن يميل إلى استمالة العرب أو الأجانب بل كان معتداً بتركيته إلى حد احتقار كل ما عداها !

والواقع أنه كره أنور منذ عرفه فى سالونيك ، ولكنه الآن صار يكن له ازدراء شديداً ومقتاً هائلاً ، لم يحاول حتى أن يخفيهما . وكان يشوب ازدراءه شئ

من الغيرة لاعتباره مرؤوساً له مع أنه يكبره سنًّا وخبرة ، ومن ثم صار ينفس على أنور سلطانه ومكانته العريضة ومظاهر أبهة منصبه التي تحيط به فى خيمته الفاخرة .. فأخذ يكثر من انتقاد كل خطة لأنور ، وتسفيه كل مشروع له ، بأسلوبه الساخر وتهكمه اللاذع !

وبمرور الأيام ازداد سوء العلاقات بينهما ، وصار القتال سلسلة مرهقة من الهجمات فى إقليم صخرى تتسلط عليه حرارة الشمس المحرقة التى تستنفد صبر أقوى الناس احتمالاً وأعظمهم حلماً . . فبات الغريمان يتشاجران علناً . وعبثاً حاول « فتحى » أن يوفق بينهما . فانتهى الأمر بأن لاذ مصطفى بخيمته الصغيرة ، التى كان يعيش فيها معيشة بسيطة خشنة مثل معيشة جنوده . . وصار يأبى المشاركة فى ضروب اللهو والتسلية أو حضور المناسبات التى يبدو فيها فى صورة التابع المغمور وسط « حاشية » أنور !

وبعد انقضاء عام على بدء القتال ، كانت النتيجة لا تكاد تذكر ، فقد أنزل الإيطاليون نجدات كبيرة ، ودعموا مراكزهم على الساحل ، وإن لم يستطيعوا التقدم إلى الداخل !

وحدث بعد هذا أن أعلنت حكومة « الجبل الاسود » الحرب ، فإذا بدول البلقان المسيحية تتحد كلها ، لأول مرة فى تاريخها ، ضد تركيا . وإذا بالحكومة التركية تسارع إلى مهادنة إيطاليا كى توجه جهادها إلى الحرب المتاخمة .. وأرسلت تعليمات إلى طرابلس تقضى بسحب قواتها إلى مصر وإعلان استقلال طرابلس ، وعودة الضباط الأتراك فوراً إلى وطنهم .. لأن العدو على الأبواب ، يهدده بخطر الفناء !

٤٨
هزائم متلاحقة للجيوش التركية !

هرع مصطفى كمال عائداً إلى وطنه ، عابراً البحر الأبيض إلى فرنسا ومنها إلى النمسا ورومانيا فالبحر الأسود فتركيا . . وفى كل دولة من هذه الدول كانت تعوقه بعض العقبات ، بحيث لم يصل إلى القسطنطينية إلا فى الأسبوع الأول من ديسمبر . وهناك وجد كل شيء فى العاصمة مضطرباً : فالجيوش التركية قد هزمت فى كل الجبهات ، وقوات الصرب قد ضربت ضربتها بدورها من الجنوب فاحتلت سالونيك وأسرت خمسة وعشرين ألفاً من الأتراك . . والبلغار جعلوا وجهتهم القسطنطينية وراحوا يدقون الخطوط المحصنة فى « شطلجة » التى لا تبعد سوى خمسة عشر ميلا عن العاصمة ! . . وهكذا اكتسحت الجيوش المهاجمة تركيا الأوربية جميعها فلم يبق منها غير بضعة الأميال المحيطة بالعاصمة ، وقلعة « أدرنة » الكبيرة التى عزلت وحاصرها البلغار حصاراً شديداً ؟! وسط هذه الظلمة المدلهمة والدمار الشامل لم يلمع غير ضوء واحد باهر . كان القائد البحرى الشاب « رؤوف » قد فر بالطراد القديم « الحميدية » فاخترق الحصار عند فم الدردنيل وراح يشن الغارات به فى بحر إيجة فيظهر فجأة ليدمر ميناء أو يغرق ناقلة ، حتى أمسى بطلاً وطنياً . . لكن بطولته لم يكن لها أثر وسط الهزيمة العامة الشاملة التى حاقت بتركيا !

وازدحمت العاصمة بالجرحى ، فغصت بهم المستشفيات والكنائس والجوامع والدور الخاصة . . وأصبح الإقليم المحيط بها حاشداً بمعسكرات اللاجئين . وانهار نظام التموين . . ومات الألوف بالكوليرا والتيفوس ،

وألوف غيرهم من الجوع والبرد . . وفى ظل ذلك استمر الساسة يتنازعون من أجل السلطان والنفوذ ، بحيث لم توجد حكومة وطيدة الدعائم لتسيطر على الحالة . . !

وراح مصطفى يتسقط فى انزعاج أنباء أسرته ، بعد استيلاء الأعداء على سالونيك ، فقال له اللاجئون الذين قدموا منها إن المدينة قد أخذت غيلة وغدراً . . وأن اليونانيين قتلوا كل المدنيين الأتراك الذين صادفوهم ، وساد المدينة السلب والنهب . . !

على أن مصطفى كمال عثر أخيراً على أمه زبيدة وأخته مقبولة فى أحد معسكرات اللاجئين ، فنقلهما إلى غرفة أعدها لذلك على الفور . وكانت زبيدة قد جاوزت الستين ، وأثقلتها السنون وأظلم بصرها ، وقد عانت وابنتها ويلات الجوع والبرد خلال الفرار من سالونيك . . فلم تكد تلقى ابنها حتى استخفها المرح ولم تصدق عينيها ، لكنها حين استقر بها المقام صارت تتأوه وتندب أقرباءها الذين قتلهم اليونانيون فى سالونيك ، وبيتها الذى ضاع ، ومتاعها الذى فقد ، وبلدتها التى صارت موطئاً لنعال الأعداء !

ولم يكد مصطفى يكفل الراحة لأمه وأخته حتى توجه إلى الإدارة الحربية مقدماً نفسه لها . . فعين على الفور قائداً لفرقة فى شبه جزيرة غاليبولى كانت تدافع عن خط التحصينات الأخير ضد غزو البلغار للدردنيل وفتحهم الطريق إلى تركيا الأسيوية لقطع كل اتصال بالعاصمة !. وما وصل إلى مقر قيادته حتى بدأ البلغار هجومهم العام ، بقيادة الجنرال سافا سافوف . وكانت تحصينات الأتراك لا تزيد على مخلفات خط دفاعى بنى قبل خمسين عاماً بواسطة المهندسين الإنجليز أثناء حرب القرم ،

فكان المتوقع ألا تصمد طويلاً أمام هجوم البلغار المتواصل ، ولكن الفرقة التركية بقيادة مصطفى كمال استماتت فى القتال والدفاع عن هذا المعقل الأخير . وفيما هى كذلك عقدت الهدنة فى جميع الجبهات . . ثم تطورت الأحداث بسرعة فائقة ، فدعت الدول الكبرى إلى مؤتمر صلح ، طالبت دول البلقان فيه بأن تسلم إليها فوراً تركيا الأوربية كلها – عدا القسطنطينية – كى تقسمها فيما بينها . . وأصر البلغار على استسلام « أدرنة » بغير إبطاء !

وهنا انقسم الأتراك على أنفسهم ، واختلفت آراء قادتهم . . فرأى بعضهم ، وعلى رأسهم رئيس الوزارة ، أن تقبل تركيا الصلح بأى ثمن . . بينما أصر آخرون وفى مقدمتهم الضباط الشبان على مواصلة القتال ورفض التسليم بهذه الشروط المزرية !

واشتد الشد والجذب بين الفريقين ، وتعددت المؤامرات السياسية ، وعمت الفوضى . . ونشبت الثورات الصغيرة هنا وهناك !

انقلاب دموى فى مجلس الوزراء !

وفى وسط هذا الاضطراب الشامل عاد أنور من طرابلس . ولم يشأ أن يضيع وقتاً ، فدعا أعضاء « الاتحاد والترقى » إلى الاجتماع ، وحشد الضباط الشبان حوله ، ثم زحف وإياهم نحو مقر « الباب العالى » واقتحم المكان أثناء انعقاد مجلس الوزراء ، فلما حاول « ناظم » وزير الحربية أن يعترض سبيله أطلق أنورُ عليه رصاصة من مسدسه فقتله . . ثم طرد بقية الوزراء من المكان وأخذ مكانهم ، ومعه زملاؤه : جمال ، وطلعت ، ومحمود شوكت باشا ، وولى الأخير رئيساً للوزارة ! ولم يترك أنور لخصومه

أية فرصة لإضعاف الحركة ، فلما عارضه بعض الساسة سارع إلى شنقهم ! . . كما سارع إلى إخماد الثورات ، ورفض أن يقبل شروط الدول البلقانية لعقد الصلح ! . .

ولكن كان لا بد من إنقاذ أدرنة من البلغاريين الذين يحاصرونها ، فدبر أنور خطة واسعة النطاق لبلوغ هذه الغاية . وعقد اجتماعاً حربياً على ظهر إحدى البوارج للتشاور فى الأمر ، كان مصطفى كمال أحد الذين حضروه ، فانتقد الخطة انتقاداً بتاراً ، خلاصته أن الخطة فى ذاتها سليمة ، لكن تفصيلاتها لم تدرس دراسة كافية ولا يمكن تحقيقها !

وضايق النقد أنور ، وكان هو الرئيس صاحب النفوذ الأعلى والقول الفصل . . فطلب من مصطفى كمال أن ينفذ ما يكلف القيام به من أدوار الخطة دون مناقشة ! . . ونفذت الخطة فعلاً كما رسمها أنور ، فقامت فرقتان بالهجوم على العدو فى فجر ٨ فبراير ، وكان مصطفى كمال بين قوادها . . وتقدمت القوات التركية بضعة أميال ، ثم أوقفها الضباب الكثيف . . فزحف البلغار حول الجناح الأيسر للأتراك وفتحوا أفواه النيران . . فانهزمت إحدى الفرقتين وولت الأدبار ، بينما انسحبت الفرقة الأخرى – وهى التى كان يقودها مصطفى كمال – بعد أن بلغت خسائرها خمسين فى المائة أو يزيد . . أما الجيش العاشر الذى اقتضت الخطة أن ينزل إلى البر فى إحدى المناطق ، بعد نقله بالسفن ، فقد اضطره البلغار إلى العودة من حيث أتى بعد أن تكبد خسارة بلغت ستة آلاف من جنوده وضباطه !

وهكذا فشلت خطة أنور فشلاً كاملاً . . ولم يمض شهر حتى سقطت أدرنة ، واضطرت حكومة أنور إلى التوقيع على اتفاق الهدنة مع العدو

بالشروط الأولى نفسها ، التى أحدث انقلابه وأسال الدماء وبطش بمعارضيه احتجاجاً عليها !

أما مصطفى كمال فعاد للقسطنطينية ، وقد هزمت تركيا ورقدت جريحة تلعق جراحها . . بينما راح أعداؤها يتنافسون فى اقتسام الغنائم والأسلاب التى انتزعت منها . وسرعان ما دب بينهم النزاع فهاجمت بلغاريا حليفتيها اليونان والصرب ، لكنها هزمت وتراجعت إلى حدودها . . وهكذا نسى المنتصرون عدوتهم تركيا وأمسك بعضهم برقاب بعض !

وانتهز أنور الفرصة فعمد – فى جرأة منقطعة النظير ، ودون إعلان حرب – إلى تسيير كل ما تيسر له من قوات نحو جبهة البلغار ، فاكتسح فلولهم التى أبقى عليها حلفاؤهم ، ومضى بجيوشه قدماً نحو أدرنة ، فدخلها منتصراً على رأس فرسان الطليعة ، تحف به الأعلام ، وتدق له الطبول ، ويفسح له الأهالى الطريق التى فرشوها بأغصان الزيتون . . ! وعلى رأس أحد الطوابير الزاحفة كان مصطفى كمال يحرق الأرم غيظاً وينفس على أنور هذه المظاهرة الظافرة المزهوة ، فى حين كان هو كالعهد به مغموراً مجهولاً من الجميع !

الفصل الثاني

نشوب الحرب العالمية الأولى

عاد مصطفى كمال إلى العاصمة ليعيش فيها مع أمه وأخته معيشة الانزواء والإهمال ، وكان قد رقى بعد فتح أدرنة إلى رتبة القائمقام ، ولكنه لم يجد العمل الملائم له ، ولم تكن أمامه أهداف محددة ، فعاد يختلط بساسة الصف الثاني الذين يكن لهم الكراهية !

وكانت الحكومة القائمة قوية حازمة ، يسيرها ثالوث مؤلف من : طلعت وأنور وجمال ، بعد أن قتل محمود شوكت باشا رئيس الوزارة ، وانفرط عقد الجماعات والعصابات القديمة !

وازداد الساسة زهداً فى مصطفى كمال ، أكثر من أى وقت مضى . . لقد أمسى خارج المسرح تماماً ، وتفوق عليه زملاء الأمس فخلفوه فى المؤخرة .. صار جمال وطلعت وزيرين ، وصار أنور شخصية (دولية) فوق كونه وزيراً للحربية .. وكان قد تزوج من أميرة وعاش معيشة أبهة ورفاهية فى قصر يطل على البوسفور ! . . وإن له لخططاً ومشروعات عظيمة : أن يوحد المسلمين جميعاً تحت زعامة السلطان « الخليفة » . . وأن يوحد كل الشعوب الناطقة بالتركية حول تركيا « الأم » ومن ثم يعيد مجد الإمبراطورية العثمانية ! . . هذا إلى أن الألمان ينظرون إليه باعتباره حليفهم !

ولم يكن مصطفى كمال أكثر من ضابط شاب (أركان حرب)

مكروه من زعماء الحكومة الثلاثية ، ومن جميع أعضاء « الاتحاد والترقى » ، فيما عدا صلته الودية مع جمال ، بحكم كراهيتهما المشتركة للألمان .

ورأى أنور – لكي ينفذ مشروعاته العظيمة – وجوب البدء بتنظيم الجيش ، ومن ثم دعا القائد الألماني الجنرال « ليمان فون ساندرز » كي يضطلع بهذه المهمة . . فلم يكد النبأ يبلغ مصطفى كمال حتى ثارت ثائرته واحتدم غضبه ، فراح يحرض رجال السياسة والضباط سراً وجهراً ، على الانضمام إليه فى الاحتجاج ، قائلاً : « إنه لجنون منا أن نسمح لهؤلاء الألمان بالسيطرة على الجيش أساس قوتنا وعصب كياننا . . بل إنها لإهانة للأتراك جميعاً أن نستعين بهذا البروسى ! » . . ثم قابل جمال وناقشه فى الأمر . . وطلب مقابلة أنور ، فلما رفض هذا أن يقابله كتب إليه مصطفى خطاباً مراً !

ووجد فيه زعماء الحكومة مشاغباً لا يكف عن مضايقتهم ويحسن إبعاده عن العاصمة ، لا خوفاً من تأثيره أو خطره – فما كان أحد ليصغى إليه أو ينحاز إلى صفه – وإنما تخلصاً من شغبه ومتاعبه . . وكان فتحى صديقه قد عين وزيراً مفوضاً فى صوفيا ، فعين ملحقاً عسكرياً له !

عد مصطفى كمال تعيينه فى منصبه الجديد بصوفيا بمثابة نفى له من تركيا ، وقد انقطعت كل صلة له بالحياة فى القسطنطينية . ومنصب الملحق العسكرى لا ينطوى على عمل يلائم مواهب العسكرى المحترف . ولكن حيثما وجد هذا العمل ، كان مصطفى يؤديه على خير وجه . .

وارتبط بصداقة مع القائد العام البلغارى « كيتشيف » ومع أركان حربه . . وحضر المناورات والاجتماعات والاستعراضات ، وكتب تقارير بمشاهداته قدمها لصديقه فتحى الوزير المفوض .

وكان أغرب ما فى الأمر أنه صار صديقاً حميماً للقائد البلغارى

« سافا سافوف » ، الذى هزم فرقته فى الحرب وردها مدحورة محطمة ! . .

وقد كان مصطفى يكره الضابط أو السياسى المنافس له ، لكنه يحترم العدو الشجاع الباسل .! . على أنه لم يكن ليستطيع أن يظل هكذا طويلا ، لا يعمل شيئاً ، فطبيعته تفرض عليه أن يشغل نفسه على الدوام ، إن لم يكن بالعمل فباللهو . . فلما لم يجد عملا ، ركز همه فى اللهو ، وكفل له منصب الملحق الحربي كل امتيازات الدبلوماسى وحصانته ، كما كفل له زيه العسكرى فرص خطب ود الحسان ، فاستغل ما توافر له من الناحيتين أكمل استغلال . . تعلم الرقص الكلاسيكى على مدرس خاص ومارسه حيثما وجد إلى ممارسته سبيلا . . وغشى الصالونات والحفلات ، وحاول أن يكون نجماً من نجوم المجتمع ، فغازل نساء صوفيا . . لكنهن لم يجدن فيه ما يحببه إليهن من الوسامة أو الجاذبية ، فضلا عن كراهيتهن التقليدية لكل الضباط الأتراك . . هذا إلى فظاظته وحدة لهجته ، وجهله التام بالأساليب العصرية للغزل . . وقد كاد يوماً أن يتورط فى حب حسناء هى ابنة القائد البلغارى الجنرال كوفا تشيف ، لكنها لم تحفل به ، فعاد إلى طبيعته ساخطاً على الحب والمحبين !

وسرعان ما تبين نساء المدينة مدى الفارق بينه — فى طبعه الفظ الشبيه بطبع التتار المتوحشين — وبين طبع فتحى ، التركى الرقيق الدمث الأخلاق ، فسخرن من رقص مصطفى ومن محاولاته تعلم قواعد السلوك اللائقة بر واد الصالونات . . وانتهى بهن الأمر إلى الضيق به ثم إلى تجاهله ! . وهكذا ازداد انطواء على نفسه ، وازداد مقتاً لنساء المجتمع وأساليبهن الناعمة التى تجعلهن يفضلن الثرثرة والغزل البرىء على التمادى فى المغامرات الغرامية حتى نهايتها . .

يسعى ليخدم وطنه ، ولا من سميع !

ومرت الأيام ، ثم اندلعت شرارة الحرب العالمية ، واشتبكت أكثر الدول العظمى فى القتال ، فانضمت تركيا إلى ألمانيا ، لكن بلغاريا ظلت على الحياد ترقب الأحداث !

ويقى مصطفى كمال فى صوفيا يشتعل صدره غيظاً ، وقد كان يؤمن – مثل كثيرين من الأتراك – بأن الحكمة كانت تقتضى تركيا أن تقف على الحياد حتى ترى أية كفة ترجح فتساومها على مؤازرتها ! . . على أنه – وقد سبق السيف العذل ودخلت تركيا فى المعمعة – كان كأى ضابط نظامى يعتقد أن الحرب لن تطول أكثر من أسابيع معدودة . فلما انقضت الأسابيع والقتال ما زال دائراً ، من غير أن يشترك فيه ، استشاط غيظاً وكمداً ، لأن الفرص التى أعد نفسه لها وانتظرها ملهوفاً ، تفوته واحدة بعد الأخرى ! . . وأخيراً أبرق إلى أنور يسأله أن يسند إليه القيادة فى إحدى الجبهات . . فتلقى منه رداً مؤدباً ، وحازماً فى الوقت نفسه ، أمره فيه بأن يبقى حيث هو . . لأن بلاده تحتاج إلى خدماته هناك ! وأبرق إليه مرة أخرى ، ولكنه فى هذه المرة لم يتلق رداً ! . . فأخذ يكتب فى ذلك إلى كثيرين من أصدقائه فى العاصمة التركية ، ويلح على صديقه فتحى لكى يسعى بدوره فى سبيل تحقيق أمنيته تلك ، ولكن مساعيه كلها لم تفده شيئاً !

ومرت الأيام ، حتى أقبل فبراير سنة ١٩١٥ ، وكان صبره قد نفد ، فآثر أن يغادر صوفيا بغير إذن ليتطوع للقتال . . وفيما هو يحزم حقائبه وقد بيت أمره ودبر خطته . . تلقى أمراً باستدعائه إلى القسطنطينية !

كان أنور بعيداً عن العاصمة ، إذ مضى إلى القوقاز ليقود جيشاً ضد الروس . وأناب عنه فى تصريف شئون الدولة القائد الأعرج حتى باشا . . ولم يكن هذا ليحفل بميول أنور الخاصة وعواطفه الشخصية ، فأخذ يزود الجيش بحاجته من القواد الأكفاء ، ولا سيما بعد أن حاول الإنجليز مرتين اقتحام الطريق إلى الدردنيل ببوارج أسطولهم ، وكانت الدلائل تدل على أنهم يحشدون فى مصر جيشاً عظيما لمهاجمة غاليبولى ، بينما انهمك الجنرال الألماني ليمان فون ساندرز فى إعداد جيش جديد على وجه السرعة لمواجهة هذا الهجوم !

وكان حتى باشا يعرف ماضى مصطفى كمال ، ويعرف كفاءته العسكرية الممتازة حين يبتعد عن السياسة ، فأبرق إليه يستقدمه إلى العاصمة على عجل ، وقدمه للجنرال فون ساندرز ، فأسند إليه هذا قيادة القطاع الجنوبي فى شبه جزيرة غاليبولى .

كان فون ساندرز سيىء الظن بكفاءة الضابط التركى العادى ، لكنه قدر مواهب مصطفى كمال غير العادية ، برغم مالمس فيه من خشونة غير مألوفة فى مخاطبته وفى التعبير عن رأيه . فى إحدى المناسبات قال له مصطفى كمال « إن بلغاريا قد أصابت بالوقوف على الحياد ، لأن انتصار ألمانيا آخر الأمر ، أمر غير موثوق منه ! » .

وفى مناسبة أخرى قال له : « إن هيئة أركان حرب القيادة الألمانية العليا تبدى تراخياً إجرامياً ! » .

لكن مصطفى كمال كان برغم ذلك يؤدى واجبه العسكرى على خير وجه . وكان صافى الذهن حازماً فى قراراته ، يستند فى تكوين آرائه إلى الحقائق الثابتة . . وقد اختلف غير مرة مع فون ساندرز ، وبلغ الخلاف

فى الرأى بينهما أشده ، إذ كان كلا الرجلين أبياً مزهواً بنفسه وكفايته . .

لكن القائد الألماني كان يقدر فى مصطفى كمال مواهبه الفذة وطبيعته التى تحاكى طبيعة الألمان ، فكان لذلك لا يكف عن امتداحه ومنحه ثقته ! وكذلك كان مصطفى كمال – برغم كراهيته للأجانب عامة وللألمان الذين جلبهم أنور خاصة – حريصاً على أن يحترم فون ساندرز ، ويقدر شجاعته وبراعته العسكرية . وجاءت الأنباء من كل مصدر فى القاهرة وأثينا تنبئ بتأهب الانجليز للهجوم ، بجيش قوامه ثمانون ألف مقاتل ، عدا الأسطول الجرار الذى يتحفز للاشتراك فى القتال ! وواجهت فون ساندرز مشكلة عسيرة ، إذ كان شاطئ شبه جزيرة غاليبولى لا يقل طوله عن آثنين وخمسين ميلا . وكان الأقليم جبليا ، وبعض جباله تشرف وتهيمن على الموقف كله . وعلى هذا فنى وسع الإنجليز بفضل أسطولهم أن ينزلوا إلى البر ذلك الجيش المكون من ثمانين ألف مقاتل فى أية نقطة من هذا الشاطئ المترامى ، ثم يقتحموا أحد الجبال ويفتحوا الطريق إلى القسطنطينية ! .

ووزع فون ساندرز قواته وعددها ستون ألف جندى على ثلاث مجموعات تتألف كل مجموعة منها من عشرين ألفاً . . ولم يبق أمامه غير أن ينتظر ما يأتي به الغد ، فما كان فى استطاعة أحد أن يتكهن بموعد الهجوم البريطاني ، أو موضعه !

وعاد أنور من روسيا ، فأرسل إلى فون ساندرز أمراً بتنحية مصطفى كمال عن قيادته وإحلال آخر محله . . فاضطر القائد الألماني إلى إطاعة الأمر ، لكنه أعرب عن أسفه لذلك علانية وأسند إلى مصطفى كمال قيادة الفرقة التاسعة عشرة الاحتياطية المعسكرة فى « مايدوس » ، وفى الوقت ذاته أمره بالحذر فى استخدام قواته حتى تنجلى حالة التوتر والترقب ويعر

الموضع الذى سيركز الإنجليز فيـــه هجماتهم . وإذ أدرك مصطفى كمال مبلغ ثقة فون ساندرز به واعتماده عليه ، صار شخصاً آخر . . انهمك فى عمله بهمة وحماسة أظهرتا مواهبه الحقيقية الكامنة ، فلم تنقض أسابيع حتى أحال فرقته التى كان ثلثاها من الجنود العرب غير المدربين ، إلى فرقة قوية من أحسن طراز . . وأردف ذلك بدراسة الإقليم ، والتأهب لجميع الاحتمالات !

خدعة بريطانية جازت على الألمان !

وفى يوم الأحد ٢٥ أبريل وقع الهجوم البريطاني المرتقب . . فبرزت من قلب الضباب المخيم على الشاطئ موجة هائلة من السفن المدرعة ، من بوارج ومدمرات وناقلات . . فهجم بعضها على القطاع الشمالى من شبه الجزيرة ، عند « بولير » — وكانت هذه خدعة لكنها جازت على فون ساندرز — وهجم بعضها الآخر على القطاع الجنوبي ، بينما وقع الهجوم الرئيسى على القطاع الأوسط . . وكان الجيش المهاجم يتألف من أستراليين . . وقد جعل هدفه أن ينزل إلى البر فى منطقة الأرض المنخفضة عند « جاباتيب » ثم يمضى قدماً عبر وادى « مايدوس » ومن هناك يستدير ويستولى على منطقة التلال المعروفة باسم « شونك بير » . . وكانت تقع لصق معسكر مصطفى كمال ، وتعد أحد « مفاتيح » الموقف كله !

لكن تياراً بحرياً قوياً جرف سفن الأستراليين إلى أبعد من المنطقة التى حددت لنزولهم إلى البر ، فهبطوا خطأ فى « أرى بورنو » ، وإذ وجدوا أنفسهم عند حافة منطقة التلال اتجهوا رأساً نحو مرتفعات « شونك بير » ،

ولم يعرف مصطفى كمال شيئاً من هذا ، لكنه كان قد أمر أقوى فرقة وهى الفرقة السابعة والخمسون ، بالخروج إلى العراء فى الساعة الخامسة والنصف صباحاً لإجراء مناوراتها العادية عند سفح أحد تلال « شونك بير » . . وفيما هو يتسلق سفح التل ، رأى طابوراً من الأتراك آتياً من قمة التل . وعلم منهم أن الإنجليز نزلوا إلى البر عند « أرى بورنو » واضطروهم إلى الانسحاب بينما كانوا يقومون بمهمة الاستكشاف على الساحل ، وسرعان ما أصدر مصطفى كمال أمره إلى قواته بالتحرك . . وبعد دقائق جاءه نبأ من الفرقة التاسعة المعسكرة فى اتجاه اليمين تؤيد نزول الإنجليز إلى البر وتطلب طابوراً لتغطية جناحها الأيسر . . فقدح مصطفى زناد فكره بسرعة وانتهى إلى ترجيح أن تكون « شونك بير » هى المنطقة التى يعتزم الأعداء مهاجمتها ، وسرعان ما قرر وجوب انقاذ هذه المنطقة دون إبطاء وبأى ثمن ، غير منتظر وصول أوامر القيادة العليا وتعليماتها .

إن للدقائق قيمتها ووزنها فى هذه الظروف . وقد كان مصطفى كمال كثيراً ما يردد فى هذا الصدد شعار نابليون المفضل : « السرعة . والسرعة دائماً ! » . . . ومن ثم سارع إلى إصدار أمره إلى قواته بالتقدم فوراً ، وبأقصى سرعة ، نحو « شونك بير » !

ولم تكن فى حوزته وقتئذ غير خريطة صغيرة ، غير موضح عليها حتى موقع « أرى بورنو » الذى هبط فيه الإنجليز ، فأمسك هذه الخريطة بإحدى يديه وأمسك « بوصلة » باليد الأخرى ، واصطحب دليلا يرشده إلى الطريق ، ومائتين من جنوده سار فى مقدمتهم لاستكشاف مراكز العدو !

كان الطريق وعراً تعترضه الصخور والخنادق والعقبات ، فعجز أكثر الجنود عن احتمال مشقة التقدم فيه ، بحيث لم يبق منهم مع قائدهم

حين وصل إلى قمة المرتفع غير نفر قليلين . وهناك رأى طلائع الطوابير الأسترالية الزاحفة تتقدم ، وقد بلغت منتصف السفح ، على مسافة لا تزيد على أربعمائة متر ! . . وهنا صاح بأقرب مرؤوسيه إليه : « هيا . . ارجع بأقصى سرعة واجمع كل من تستطيع جمعهم من جنودنا لمهاجمة العدو فوراً . . ! »

وبعد قليل وصلت وحدات الفرقة السابعة والخمسين وقد أرهقتها مشقة تسلق المرتفع وعواصف الطريق ، فأعاد مصطفى كمال تنظيمها على عجل ، ودفع بجنودها إلى الأمام . . ثم وصلت بطارية من المدفعية ، فساهم بيديه فى وضع المدفع الأول فى المركز الملائم ! . . ومضى تحت النيران المنطلقة يوجه قواته هنا وهناك وكأنه شعلة متقدة من الحمية والنشاط ! . . ثم استدعى فرقته الثانية وألقى بها فى المعركة على مسئوليته الخاصة أيضاً ، وقبل أن يتلقى أمراً بذلك من رؤسائه . . وحينما وجد ذلك كله غير كاف ، سارع إلى استدعاء الفرقة الثالثة والأخيرة وألقى بها هى الأخرى فى أتون القتال !

لقد تجاهل الأوامر الصادرة إليه بأن يكون حذراً ، وألقى بكل احتياطى الجيش من الجنود إلى المعركة ، آخذاً على عاتقه كل المسئولية عن هذا التصرف الخطير ، وذلك لاقتناعه بأنه يواجه الهجوم الرئيسى للعدو !

ولم يكن ليخفى على مصطفى كمال ما هنالك من خطر شديد أكيد على الجبهة كلها إن لم يصح تقديره وكان الهجوم الرئيسى فى موضع آخر ! وقد تبين بعد قليل أن تقديره صحيح ، واحتدم القتال طيلة ذلك النهار ، وكان الاستراليون قد قطعوا ثلثى السفح حين اشتبك الأتراك معهم ، فلم يستطيعوا بعد ذلك تقدماً ، وإن أنزلوا بالمدافعين الشجعان خسائر جسيمة ،

فأبيدت الفرقة التاسعة والخمسون ، وساد الارتباك جنود الفرقتين الأخريين من العرب !

والواقع أن خسائر الأستراليين كانت أفدح ، مما جعل ميزان المعركة معلقاً على وصول مدد إلى أحد الفريقين فترجح كفته بلا شك ، ولو لم يزد هذا المدد على خمسمائة جندى ! وهبط الظلام والتل ما يزال فى يد الأتراك ، بينما الأستراليون متشبثون بالسفح . . لكن مصطفى كمال لم ينتظر تطور الحوادث مكتوف اليدين ، بل اتخذ مركزاً لقيادته مخبأ يقع خلف كومة من الأحجار على بعد أمتار من القمة ، وظل طيلة تلك الليلة واليوم التالى كله يواصل العمل فى نشاط عجيب ؛ فينظم الهجوم تلو الهجوم لدفع الأستراليين إلى الخلف نحو البحر قبل أن يوطدوا أقدامهم . . وكلما فشلت هجمة شن غيرها فوراً فى غير يأس ولا كلال ! وكان يلهب حماسة جنوده بتنقله بينهم بنفسه ، عاملا على تدبير راحتهم وطعامهم ، وبذلك استطاع وقف تقدم الأستراليين ، وإن عجز عن دفعهم من سفح التل إلى البحر من حيث أتوا . . !

والواقع أن مرتفع (شونك بير) كان مفتاح الطريق إلى الدردنيل ، كما كان الدردنيل مفتاح الطريق إلى القسطنطينية . . فلو أن مصطفى كمال لم ينجح فى صد الأستراليين عن هذا الموقع لعزلت تركيا عن حليفتها ألمانيا وأجبرت على عقد الصلح ، بل ربما انضمت اليونان ورومانيا وبلغاريا إلى جانب الإنجليز وتحالفوا جميعاً ضد تركيا ، الأمر الذى يكون له أسوأ الأثر المعنوى فى مجرى السياسة الأوربية كلها ، بل يفتح الطريق إلى روسيا ويمكنها من التزود بالسلاح والمؤن !

ومن هنا احتدم أوار المعركة بين الأستراليين المهاجمين لتحقيق هذه

الأطماع الواسعة ، وبين مصطفى كمال الذى وقف فى وجوههم بوجهه الأغبر وعزيمته الجبارة ، ليذود عن المرتفع الضيق بقواته القليلة العدد والعدة ، معتمداً على كفاءته الممتازة وشخصيته المسيطرة الجبارة .

لا يهاب الموت !

عجز كل من العدوين المتقاتلين عن قهر الآخر ، فبدأ كلاهما يحفر الخنادق فى مكانه ويتحصن وراءها . . وقد استقر عزم الأستراليين على الثبات فى المركز الذى بلغوه إلى أن تتاح لهم فرصة لمواصلة التقدم ، فى حين اعتزم الأتراك بقيادة مصطفى كمال ألا يتركوهم يستقرون ، إلا . . فى البحر . . !

ومضت الأسابيع والفريقان يعانيان الإرهاق الشديد من حرب الخنادق وما يكتنفها من متاعب وأخطار وأهوال وقلق مثير للأعصاب ، فانفجار القنابل وصفير الرصاص لا انقطاع لهما ، وإصلاح الأسلاك المقطوعة فى الظلام فى الشقة الحرام بين الخطين يبعث الرعب القاتل فى الأوصال ، وهناك عدا هذا وذاك ساعات الانفعال المرير فى انتظار هجوم مروع مفاجئ من العدو بالسلاح الأبيض والحراب الحادة ! . . وهناك الحشرجة الأليمة التى تنبعث من الجرحى فى الخنادق الضيقة تحت سطح الأرض ، والمذابح الوحشية التى تتناثر فيها أشلاء الأجسام الممزقة وتختلط فيها الدماء الحارة بشظايا القنابل المتفجرة !

ومع كل هذه الأهوال أقبل الصيف بما يلازمه من نقص فى الماء ، وزيادة فى تسلط الشمس الملتهبة على التلال الصخرية بحيث تكاد

تصهرها . . وبين الخطوط كانت جثث القتلى تتعفن فيمتلئ الجو بأسراب الجوارح ، كما تمتلئ الأرض بالحشرات والهوام وجيوش القمل الناقل للأوبئة والحميات . وهكذا بلغت قوة مقاومة كل من الفريقين وطاقته على الاحتمال حداً يهدد بالانفجار ! ولم يعط مصطفى كمال نفسه — مع هذا كله — فرصة للراحة أو الاستجمام ، لكنه بقى موفور النشاط ، سعيداً بأنه يمارس هوايته المفضلة . . هواية القتال !

لم يكن ينام إلا قليلا ، لكنه لم يبد مفتقراً إلى النوم . . وإنما واصل استنهاضه لهمم جنوده فى غير ملل وفى حمية موفورة ! وظل هادئاً بارد الأعصاب . يرسم خططه ويصدر قراراته فى دقة بالغة وحزم صارم عجيب !

وأدهشت كفاءته الجنرال « كانينجيسر » الألمانى ، قائد الفرقة التاسعة التى تقاتل فى ميمنته ، فقال عنه : « إن مصطفى كمال ضابط نشط صافى الذهن ، يقرر كل شىء معتمداً على ذاته ، ويعرف بالضبط ماذا يريد ! » . . وكان مصطفى دائم الطواف بخط القتال ، يدرس الأرض ويستطلع الأنباء ، ويعرض نفسه للأخطار التى تهدد المراكز الأمامية ، برغم ما جرى به العرف من ألا يستهدف لها القواد ! . .

وفى خلال هدنة قصيرة فى شهر مايو ، تنكر مصطفى كمال فى زى جاويش واشترك فى أعمال إحدى الفرق المخصصة لدفن الموتى ، وذلك ليتمكن من التجسس بنفسه على خنادق الأعداء ! . . وكان لا يكف عن تنظيم الهجمات المحلية المتواصلة لإرهاق قوى العدو ، وكان يقود الهجوم بشخصه أحياناً ليضاعف من حماسة جنوده ، ولم يسترح يوماً واحداً أو يترك قوى رجاله المعنوية تضعف أو تخور ! وكم من مرة استهدف للنيران ! . . فالواقع أنه لم يكن يجنب نفسه خطراً محدقاً ، بل كان يشارك جنوده كل

المخاطر . . ومع ذلك ، بينما كان من حوله يتساقطون قتلى من كل جانب ، لم يصب هو يوماً بأذى !

وكثيراً ما أقدم على تصرفات جاوزت حد الاستهتار بالموت ، فألهب بذلك همم رجاله وحماستهم ! . . وحدث مرة أنه كان جالساً خارج خندق جديد ، حين فتحت « بطارية » إنجليزية مدافعها على الخندق ، وأخذت القنابل تتساقط من حوله بحيث أيقن رفاقه ألا مفر من إصابته ، فألحوا عليه فى أن يلجأ إلى مخبأ آمن ، لكنه أبى قائلا : « كلا ! . . لست أحب أن أكون مثلا سيئاً لجنودى ! » . ثم أشعل سيجارة ومضى يتكلم فى ثبات وعدم مبالاة بالخطر ، بينما كان الجنود من قلب الخندق ينظرون إليه متعجبين ! . . وبقى كذلك حتى تحولت مدفعية العدو إلى هدف آخر غير الخندق الذى يجلس خارجه ، فلم يصبه من أذاها غير غبار البارود الذى أثاره انفجار قنابلها !

وفى مرة أخرى كان عائداً إلى غاليبولى ، فتساقطت حول عربته قذائف زورق حربى سريع الطلقات ، وأصابت ما أمام العربة وما خلفها ، بل إن قذيفة سقطت على مقدمة العربة فقتلت السائق . . ومع ذلك لم يصب مصطفى بأى سوء !

وأحياناً كان يتناول بندقيته ، ثم يخرج رأسه من الخندق ليصوب النار إلى هدف معين فى خنادق الأستراليين ، غير عابئ بالخطر ! . . وفى المناطق المكشوفة كان يبطئ فى سيره عامداً ، لكى يشجع جنوده ويقوى عزائمهم ! . . وقد فشل قناصة العدو غير مرة فى أن يصيبوه برغم قربه منهم ! وكان يؤكد لمن حوله أنه موقن كل اليقين بأن قذيفة ما لن تصيبه ، وأنه لذلك لا يعد تعرضه لقذائف العدو جرأة تستحق الذكر ،

فكان جنوده إذ يسمعون ذلك يزدادون حماسة واستهانة بالاخطار !

وفى شهر يونية ، اكتشف مصطفى كمال مركزاً ضعيفاً فى خطوط العدو ، وسرعان ما دبر خطة محكمة للهجوم على ذلك المركز ، لإشاعة الاضطراب فى خنادق الأستراليين وإجبارهم على الانسحاب ، وحدد لذلك الهجوم يوم ٢٨ يونية ، وأعد للقيام به طابوراً كان قد وصل حديثاً ، هو الطابور الثامن عشر ، على أن تقوم الفرقة بأكملها بشد أزره !

وقبيل موعد الهجوم بيومين زار « أنور » جبهة القتال فى غاليبولى ، وكان قد أصبح وزيراً للحربية وقائداً عاماً بالنيابة ، فلما علم بأمر هذا الهجوم سفهه وعارضه قائلا : « إن مصطفى كمال ينبغى أن يستشير السلطات العليا ، قبل أن يبدد الأرواح فى هجوم خاسر ! » . . وكان مصطفى قد أعلن استيلاءه على مدفعين رشاشين ، فأبدى أنور أنه غير مصدق له ، وطلب أن يرى المدفعين بنفسه ليستوثق من صحة النبأ ! . . وإذ ذاك ثارت ثائرة مصطفى كمال ، ولم يطق صبراً على هذه الطعنة التى أصابت كرامته ، فقدم استقالته !

لقد كان يرى أن أنور ليس سوى شاب تافه مغرور وصل إلى قمة السلطان عن طريق السياسة الملتوية الرخيصة ، ولهذا يأبى إلا أن يتدخل فى كل شىء ، ويفسد كل شىء ! ولكن استقالة مصطفى كمال ما كادت تصل إلى القائد الألمانى « ليمان فون ساندرز » حتى سارع إلى إقناعه بسحبها ، إذ عز عليه أن يفقد أكفأ معاونيه ، وكان يشارك مصطفى كمال احتقاره لأنور واستياءه من تدخله فيما لا يعنيه ! . .

وإزاء هذا لم يسع أنور إلا أن يعدل عن معارضته ذلك الهجوم المرسوم ، فتم فى موعده وفقاً للخطة التى رسمها مصطفى كمال . . لكنه أسفر

عن فشل تام ، وأيد الطابور الذى قام به ، بسبب إهمال المختصين فى اتخاذ بعض الاستعدادات ، وسوء تصرف هيئة أركان الحرب ! . . فاستغل أنور فرصة هذا الفشل للنيل من مصطفى كمال ، وزار الفرقة التاسعة عشرة حيث أعرب لمصطفى كمال عن لومه إياه على تلك النتيجة . وإزاء ذلك قدم مصطفى كمال استقالته للمرة الثانية ، وعبثاً حاول « فون ساندرز » أن يقنعه باستردادها ، إذ وجد منه تصميماً وعناداً . فعهد إلى أركان حربه « كاظم » فى محاولة التفاهم معه لعله يفلح فى إقناعه !

واتصل كاظم بمصطفى بالتليفون ، وسأله : « كيف ترى الموقف ؟ . . وماذا تطلب فى شأنه ؟ »

فقال له مصطفى : « لقد صارحتك من قبل بحقيقة الموقف وبما ينبغى أن يتخذ فى شأنه . . والآن لم يعد هناك غير حل واحد . . . وهو أن تضع جميع القوات التى فى حوزتك رهن تصرفى ! »

وعندئذ أجابه كاظم متهكماً : « أهذا كل ما تريده ؟ وهل تكفى هذه القوات لتنفيذ ما لديك من خطط جديدة ؟ ! »

فما كان جواب مصطفى كمال إلا أن وضع السماعة فى عنف !

على أن عودة أنور للعاصمة على أثر ذلك هيأت الفرصة لإصلاح ما أفسده بموقفه من مصطفى كمال ، فأفلح « فون ساندرز » فى إقناع هذا بالعدول عن استقالته الجديدة !

معركة الإنقاذ

بدا واضحاً فى أواخر شهر يولية أن الإنجليز يدبرون خطة للقيام بهجوم كبير ! . . فقد شوهدت فى مياه مصر وجزر اليونان ناقلات تحمل فرقاً

جديدة وإمدادات كبيرة . وعلى هذا سارع الأتراك إلى تعزيز جيشهم فى شبه الجزيرة ! ووقع الهجوم المنتظر ليلة ١٦ أغسطس ، وكان هـدفه قمة جبل يعرف باسم « حاجى شيمين » يقع إلى الشمال من منطقة « شونك بير » ويتصل بها بوساطة معبر جبلى يقع خلف الجناح الأيمن لخط القتال الذى يشرف عليه مصطفى كمال !

وكان الإنجليز يأملون من وراء الاستيلاء على القمة الجديدة أن يلتفوا حول منطقة(شونك بير) وبذلك يطوقون القوات التركية جميعها ويسيطرون على شبه الجزيرة !

ودبر الإنجليز أن يخرج طابور واحد من يسار الأستراليين متجهاً إلى « حاجى شيمين » رأساً ، فى حين ينزل طابور آخر أكبر قوامه خمسة وعشرون ألفاً من الجنود على بعد خمسة أميال من ساحل خليج « سوفلا » ثم يزحف إلى الداخل حتى ينضم إلى الطابور الأول ويهجمان معاً للاستيلاء على « عنق » شبه الجزيرة ، وبذلك يفتح أمامهم الطريق إلى الدردنيل ومنه إلى القسطنطينية !

وقبيل وقوع الهجوم بأسبوع ، أخذ الإنجليز ينزلون إلى البر كل ليلة — فى تكتم شديد — قوات جديدة على الساحل الواقع أسفل خط الأستراليين المواجه لمصطفى كمال ، وكانت ليلة السادس من أغسطس شديدة العتمة ، فانتهز الإنجليز هذه الفرصة وبعثوا من خلف خطوط الاستراليين بطابور مؤلف من ستة عشر ألف مقاتل ، سار فى محاذاة الساحل حوالى ميل ، ثم توغل إلى الداخل متجهاً رأساً إلى « حاجى شيمين » لكى يبلغ قمة التل هناك عند الفجر !

وما كادت هذه الأنباء تصل إلى « فون ساندرز » حتى أصدر أمره

إلى « كانتجايسر » بأن يقود الفرقة التاسعة المعسكرة عند ميمنة فرقة مصطفى كمال ، ليصد الهجوم الجديد . . فهرع كانتجايسر عبر الإقليم الوعر قاصداً قمة « حاجى شيمين » ، فبلغها فى الساعة الرابعة والنصف قبيل الفجر . . وهناك على ضوء السحر الباهت رأى على بعد ثلاثمائة ياردة طليعة طابور العدو الذى بدأ يصعد التل فى بطء ومشقة . . ولم يكن معه على القمة إذ ذاك سوى عشرين جندياً فقط ، لكنه لم يشأ أن يضيع الوقت فى انتظار وصول بقية جنوده فأمر من معه بإطلاق النار على طليعة العدو الزاحفة !

وخيل إلى الإنجليز أنهم بازاء مقدمات مقاومة منظمة ، فوقفوا حيث هم ، وبدأوا يحفرون الخنادق استعداداً لقتال طويل ! . . وكان قناصة الأتراك قد قاوموهم لدى نزولهم إلى البر مقاومة عنيفة أنهكت قواهم واضطرتهم إلى تلمس النجاة فى الظلام عبر المجارى المائية المليئة بالصخور الحادة المدببة ، يضاف إلى هذا أن الليلة كانت حارة ، وأن الماء كان شحيحاً ، فكان طبيعياً أن يرحب الإنجليز بالتوقف التماساً للراحة من كل ذلك العناء !

واستراح الإنجليز طيلة النهار ، بينما انهمك الأتراك فى جلب الإمدادات وإقامة التحصينات . وكان قائدهم الجرىء قد أصيب بجرح بليغ خلال مناوشة الفجر ، وفى الوقت نفسه أمدهم مصطفى كمال بكل من استطاع الاستغناء عنه من رجاله !

على أن الخطر الأكبر على الأتراك كان يتمثل فى ذلك الطابور الإنجليزى الآخر المؤلف من خمسة وعشرين ألف جندى ، فقد استطاع النزول إلى البر فى خليج « سفلا » دون أن يلقى مقاومة تذكر ، ثم حط

رحاله فى أقرب موضع ليأخذ أفراده قسطاً من الراحة !

ولم يخف هذا الخطر على « ليمان فون ساندرز » فسارع إلى الاستعداد لمواجهته بأن جلب من « ما يدوس » على عجل فرقتيه الإحتياطيتين ، كما استقدم من « بولير » ومن تركيا الآسيوية كل الجنود الذين فى متناوله ، على أن قواته حتى تلك الساعة لم تكن تزيد على ألف وخمسمائة ، فكيف تستطيع الصمود فى وجه ذلك الهجوم الخطير ؟ !

وبقى الانجليز طيلة اليوم السابع من أغسطس مخلدين إلى الراحة أمام خليج « سفلا » ، فى حين كان فى مقدورهم أن يتقدموا بسهولة ويسحقوا تلك القوات الضئيلة من الأتراك فيربحوا المعركة كلها !

ومن فجر اليوم التالى هجم الإنجليز فى جبهة « حاجى شيمين » ، موجهين قلب هجومهم نحو القمة ، وجناحهم الأيمن نحو « حاجى شيمين » وجناحهم الأيسر نحو خنادق مصطفى كمال فى شونك بير . واحتدم القتال بشدة ووحشية ، واستطاع جنود نيوزيلندة أن يثبتوا أقدامهم فوق قمة شونك بير ، فكر عليهم مصطفى كمال وجنوده فى هجوم مضاد ، لكنهم استطاعوا رده على أعقابه . وساد الارتباك هيئة أركان حربه وتوقعوا الهزيمة والانسحاب من ذلك الموقع الحربى الهام !

لكن مصطفى كمال ظل بارد الأعصاب ثابت الجنان ، ومضى يتنقل بين جنوده تحت النيران ، يبث فى نفوسهم الثقة والأمل بشجاعته ورباطة جاشه ، ويشجعهم على الصمود لهجمات العدو ! . وهكذا لم يستطع الإنجليز التقدم خطوة أخرى نحو القمة الوسطى ، أو نحو « حاجى شيمين » . لكنهم ظلوا متشبثين بالمركز الذى بلغوه فى « شونك بير » . وفى ساعة متأخرة من ذلك المساء ، أرسل « فون ساندرز » فى طلب مصطفى

كمال ، وصارحه فى سورة من الغضب والسخط بيأسه من الموقف لأن المدد الذى طلبه من « بولير » لم يصل بعد ، ولأن القائد « فوزى » أثبت نقصاً فى الكفاءة استحق من أجله أن يفصله ، بينما جبهة « سفلا » التى زارها فى الصباح ليس فيها غير فرقة واحدة ضعيفة ممزقة ، وإذن . . ليس ثمة ما يمنع الإنجليز من التقدم وفصل شبه الجزيرة عن بقية تركيا !

الألمان يسلمونه القيادة !

والواقع أن القائد الألماني كان على حق ، فقد قضى طيلة النهار فى طلب الإمداد بكل الوسائل . . بالبرق والتليفون ، والرسائل إلى كل الجبهات المختصة ، مؤكداً تأهب الإنجليز للهجوم فى جبهة « سفلا » خلال الساعات القليلة المقبلة ، وأن الموقف غاية فى الحرج ! . لكنه لم يتلق أى مدد ، من أية جهة ! . . وقد ختم كلامه مع مصطفى كمال قائلا : « إننى قررت أن أجمع كل القوات المشتتة فى الميدان فى جيش واحد . . وأريد أن تتولى أنت قيادته ! » . ولم يتردد مصطفى كمال ، ولم يستفسر عن أى شيء ، فقد كانت المسئوليات الجسام والمهام الضخمة تستثير حميته وكفاءته الكامنة . . وعلى هذا قبل العبء الخطير الذى ألقى على عاتقه فى هدوء ، ثم أعد خططه بملء حريته ، ومضى لتنفيذها بنشاط خارق . . . وكان الحظ حليفه فوصلت قوات « بولير » بعد قليل ، قاطعة حوالى ثلاثين ميلا فى فترة وجيزة ، فاستقبلها مصطفى كمال مغتبطاً ومنحها فترة قصيرة للراحة ثم أعدها للهجوم المضاد ، الذى هو الأمل الوحيد الباقى لصد

الإنجليز ، إذ لم يكن فى الوقت متسع لإعداد مراكز للدفاع !

وفى تلك الليلة نفسها ، كان الإنجليز بدورهم يعدون عدتهم لحسم الموقف فى أقصر وقت ممكن ؛ وقد وصل « هاملتون » القائد الأعلى لقواتهم ، وأصدر أمره بمواصلة التقدم فوراً ، وحدد له فجر اليوم التاسع من أغسطس ، وهكذا وقع الهجومان فى وقت واحد ، واستمر القتال سجالا بين الفريقين ، فثبت الأتراك فى موقعهم ، ولم يستطع الإنجليز الاستيلاء على قمة « شونك بير » و « حاجى شيمين » ؛ بل أجبروا على التراجع قليلا ؛ ولكن لم يلبث أن اندفع طابور من الهنود والإنجليز إلى القمة حيث هاجموا الأتراك بالحراب وطردوهم إلى أسفل السفح ، وكادوا يبيدونهم لولا أن مدافع الأسطول البريطاني فتحت فوهاتها خطأ مصوبة قذائفها إلى مواقع الإنجليز أنفسهم بدلا من الأتراك فأصابتهم بخسائر فادحة واضطرتهم إلى الانسحاب !

وكان النيوزيلنديون قد تمكنوا من الاستيلاء على موقع فى (شونك بير) جعل فى متناولهم إصلاء الخطوط التركية بنيرانهم الحامية ، وفشلت جميع الهجمات المضادة فى زحزحتهم عن ذلك الموقع . . وهكذا يئس قواد الفرقة التركية التاسعة عشرة من الحالة ، فاتصلوا بمصطفى كمال بالتليفون ، وأبلغوه أن التعب والوهن أعجزا رجالهم عن مواصلة الهجوم ، وأن مدفعية العدو الرهيبة تواصل الفتك بهم وقد تفشى الذعر بين صفوفهم ! وكان جواب مصطفى كمال أن قال لمحدثه فى صوت هادئ : « لا تنزعجوا . . اثبتوا فى مواقعكم أربعاً وعشرين ساعة أخرى حتى أدبر الموقف هنا فى جبهتى وعندئذ ألحق بكم وأضع كل شىء فى نصابه ! »

وفى الساعة الثامنة مساء كان مصطفى كمال قد عاد إلى « شونك بير

فخرج بنفسه للاستطلاع ، وكاد القناصة يصيبونه مرتين . . فرجاه رجاله أن يأخذ حذره ، لكنه اقترب من خطوط الأعداء كي يدرس طبيعة الأرض بعناية ، ثم عاد على قدميه دون أن يغطى موقعه بأى وسيلة من وسائل الحماية ! . . وانتهى من جولته الاستطلاعية هذه إلى أنه ما لم يجبر النيوزيلنديين على التخلى عن قمة (شونك بير) فلا مفر من الهزيمة المحققة ! . . وعلى هذا أمضى تلك الليلة كلها يفكر ويدبر الخطط . . وكان (فون ساندرز) قد أرسل لنجدته الفرقة الثامنة من تركيا الآسيوية ، بينما عزز هو الفرقة التاسعة عشرة بما يعادل ثلاثة فيالق . وحشد الجنود فى الخنادق بقدر ما استطاع ، واستثار شجاعتهم بأن سار بينهم بنفسه يضاحكهم ويقوى عزائمهم قائلا لهم : « لا تتعجلوا المعركة يا أبنائى ، فسوف نختار لها اللحظة المناسبة بالضبط ، وعندئذ سأخرج أنا فى مقدمتكم . وحين ترونى أرفع يدى ، فأعدوا حرابكم فى أيديكم واتبعوني ! » وبهذه الوسائل وغيرها « حقن » الجنود الأتراك البسطاء بقوة معنوية هائلة ، فتأهب الجميع لأن يتبعوه ولو إلى الجحيم ! أما فى الجبهة المقابلة فقد أخذ مكان النيوزيلنديين المنهوكى القوى فيلقان جديدان كاملا العدة . . !

وقبل الفجر أطلقت المدافع التركية نيرانها على مواقع الأعداء ، ورد عليها هؤلاء بالمثل ، بينما خرج مصطفى كمال من الخنادق فى جرأة منقطعة النظير ، ومن خلفه الجنود الأتراك الشجعان.. وأصابت إحدى الرصاصات ساعته ، لكنه لم يصب بأى سوء . ولو جرح ساعتئذ لأبى الجنود التحرك ، وألغى الهجوم من أساسه ! . . وحينما توقفت نيران المدفعية بعد قليل وقف مصطفى كمال فى العراء وقفة القائد المسيطر الواثق من النصر ، ثم رفع يده صائحاً بجنوده « إلى الأمام ! » . وسرعان ما اندفع

مشاة الأتراك من خنادقهم وراءه . . موجة بعد موجة وكأنهم الوحوش المزمجـرة ، وبأيديهم الحراب مشرعة . . ثم هجموا على الفرقتين الإنجليزيتين فأبادوهما ، وواصلوا التقدم نحو السفح المواجه للبحر . . وعندئذ أطلق الأسطول البريطاني نيرانه عليهم فأحدث فى جموعهم الزاخرة ثغرات كبيرة اضطرتهم إلى التراجع وحفر الخنادق للإحتماء فيها . . لكنهم كانوا قد طهروا قمة (شونك بير) من الأعداء ، وأنقذوا الموقف بتلك المعجزة التي صنعها مصطفى كمال ، الذى منح رتبة الباشوية على أثر ذلك تقديراً لبراعته وشجاعته ، ولما أحرز من فوز عظيم !

وفى خلال الأشهر الثلاثة التالية استمر مصطفى كمال يشرف على الجبهة كلها . وكان القتال قد اقتصر على حرب الخنادق ! وقد هجم الإنجليز من « سفلا » مرتين ، فاحتدم القتال فى كل مرة وكانت الخسائر جسيمة للفريقين ، واضطر مصطفى كمال إلى أن يلقى بكل قواته الاحتياطية فى المعركة ! واستطاع بشخصيته الباهرة وجرأته النادرة أن ينقذ شبه الجزيرة ، وأن ينقذ العاصمة نفسها تبعاً لذلك من خطر لا شك فيه !

وفى ديسمبر سنة ١٩١٥ يئس الإنجليز من الانتصار ، فكفوا عن النضال وانسحبوا من البلاد . . فخفضت الجيوش التركية إلى قوة رمزية صغيرة عهد إليها بأعمال « الداوريات » . . وعاد مصطفى كمال – باشا – إلى القسطنطينية ، مع العائدين إليها من ميادين القتال !

منقذ الدردنيل والعاصمة !

عاد مصطفى كمال إلى القسطنطينية مفعم النفس شعوراً بمكانته . لقد صار الآن شخصاً مرموقاً يحسب حسابه . . وأطلقت عليه الصحف لقب « منقذ الدردنيل والعاصمة » . وأمسى يتمتع بشهرة عسكرية كبيرة ، بحيث لم يعد فى إمكان أحد تجاهله كما كان الشأن فى الماضى . فقرر أن يرغم الساسة على الإصغاء إليه ، وأن يفرض آراءه على أولئك « الجرذان » كما كان يسميهم ، ليساهم فى حكم البلاد !

لقد كان – كالعهد به من قبل – يحتقر أولئك الساسة الأتراك الجامدين ، ولكن السياسة كانت تجذبه إليها ! . . وطالما جاهر فى كل مناسبة بأن الأتراك يجب أن يستقلوا بشؤون بلادهم ، وإذا لم يكن بد من استخدام الألمان فيجب ألا يكونوا أكثر من موظفين مرؤوسين ، لا يقومون بغير ما يأمرهم به رؤساؤهم الأتراك .

كذلك كان مصطفى كمال لا يفتأ يندد بغرور أنور ونقص كفاءته ، ويصفه بأنه « خطر قومى » يجب إبعاده حتى لا يدمر البلاد ويلقى بها إلى التهلكة ! وكان الرأى العام ينحاز إلى آرائه ، فقد أخذ التحمس للحرب تخمد جذوته ، وشعر الألمان بتضاؤل ميل الأتراك إليهم ، وتكررت حوادث الشجار بين الأفراد من هؤلاء وأولئك ، نتيجة لنفور الأتراك من أن يكونوا أداة لا غير فى أيدى الألمان ، وسيادة الاعتقاد فى كل أنحاء تركيا بأنها هى الخاسرة على أى حال ، أياً كان المنتصر فى الحرب العالمية ! . . وبلغ من تفاقم الشعور العدائى نحو الألمان أن وضع الأتراك خطة جهنمية لاختطاف جميع الضباط الألمان وإبعادهم من البلاد !

وكان أنور - بمساعدة الألمان - قد جعل من نفسه دكتاتوراً ، فغدا مكروهاً من الرأى العام ، بل مكروها من أنصاره أنفسهم وفى مقدمتهم أعضاء اللجنة العليا لجماعة « الاتحاد والترقى » . . فدبرت ضده عدة مؤامرات . وصار دائم الخوف من الاغتيال ، لا يخرج إلا فى حراسة قوية ، منطلقاً بسيارته فى سرعة جنونية . . !

ولم يحاول مصطفى كمال إخفاء آرائه . ولما كان صديقه جمال غائباً وقتئذ فى سوريا فقد رأى أن يذهب إلى مقابلة طلعت باشا رئيس الوزارة . فاستقبله هذا مرحباً ، وأصغى إليه بانتباه وهو يشرح له مؤهلاته لتقلد منصب وزير الحربية ، ثم تظاهر بموافقته على طول الخط ، وما كاد يخرج من عنده حتى ضحك ساخراً منه متهماً إياه بالغرور ! . . ونقل أحدهم إلى مصطفى كمال أن طلعت كان يسخر منه ، فجرح ذلك كبرياءه وأغضبه إلى حد أنه لم يصفح عن طلعت بعد ذلك قط !

ورأى مصطفى كمال أن يجرب حظه مرة أخرى فتوجه إلى وزارة الخارجية حيث استطاع صديقه خليل وكيلها الذى كان معه فى صوفيا أن يهيئ له مقابلة مع وزير الخارجية « نسيم باشا » . وكان هذا معروفاً بكراهيته للألمان مثله . لكنه كان مشغولا ببعض المهام حين وصل مصطفى إلى دار الوزارة ، فتركه ينتظر بعض الوقت فى الحجرة الخارجية . . فلما أرسل فى استدعائه كان مصطفى فى حالة غضب وانفعال ، فقال للوزير فى فظاظة : « إن التقارير المتفائلة التى وضعتها قيادة أركان الحرب ليست صحيحة ، فالأحوال سيئة جداً ، ولا شك فى أن أنور سياسى عاجز مجرد من الكفاية ، ولا شك أيضاً فى أنك تعرف هذه الحقائق ، وعلى هذا تعتبر مشتركاً فى المسئولية عن الصدام المقبل الذى تبحث تركيا به

عن حتفها بظلفها ! » .

وساءت الوزير لهجة مصطفى كمال ، فأجابه بمثلها قائلا : « لقد أخطأت المرجع المختص بهذه الأمور إذ جئت إلى هنا للتحدث فى شأنها ، وكان ينبغى أن تتوجه بهذه الآراء إلى وزارة الحربية ! »

فقال له مصطفى كمال : « إن الإلتجاء إلى وزارة الحربية معناه الالتجاء إلى الألمان ، فهم يسيطرون على كل شىء ، وقد حاولوا أن يتخلصوا منى ! » . . ثم غادر مصطفى مكتب الوزير حانقاً .

وهكذا وجد نفسه ، كما كان فى الماضى ، غير مرغوب فيه من الساسة والمسئولين . والواقع أن تعدد مواهبه جعله يبدو غير صالح لمنصب معين بذاته . . وكان إلى ذلك شامخاً متعالياً ، لا يريد أن يختلط بأحد بل ينتظر من الجميع أن يأتوا إليه ويوافقوه فى الرأى ويطيعوه طاعة مطلقة ! . . . ولم يكن يرى أن يلتقى بأحد فى منتصف الطريق . . !

وإذ بلغ به الغيظ والسخط غايتهما ، صار يجاهر بآرائه هذه فى كل مناسبة .

وكانت العاصمة تعج وقتئذ بالمؤامرات التى يدبرها صغار القوم ، فبدأ اسم مصطفى كمال يقترن بأسمائهم ، باعتباره خصماً لأنور وللألمان ، ولو أنه كان فى الواقع أكثر حــذراً وذكاء من أن يشترك فى تلك المؤامرات . . !

وكادت إحدى هذه المؤامرات أن تبلغ غايتها ، فقد دبر ثرثار حقود يدعى « يعقوب جمال » خطة لقتل أنور ، انتقاماً لثأر شخصى ، وتحدث عن تنصيب مصطفى كمال مكانه ! . . وكانت مؤامرة « رخيصة » متهورة ، نسج خيوطها نفر من ضباط الصف الثاني ، فلما وصل خبرها

إلى أنور تأني وتريث حتى حصل على الأدلة الكافية لإدانة المتآمرين ، وعندئذ شنق يعقوب وزملاءه ، إنذاراً وعبرة للآخرين ، وعلى الأخص لمصطفى كمال . . وما كان ليحجم عن شنق مصطفى كمال بدوره لو استطاع سبيلا إلى ذلك ، ولكن لم يكن هناك أى دليل على اشتراكه فى المؤامرة . . !

على أن أنور خرج من الحادث وفى ذهنه أن مصطفى كمال مشاغب يحسن إبعاده عن العاصمة . . ومن ثم أسند إليه قيادة الجيش السادس عشر المرابط فى القوقاز . . ثم نقله إلى قيادة الجيش الثاني فى « ديار بكر » . . مبالغة فى ذلك الإبعاد المطلوب !

كارثة جيش القوقاز

كان يمتد من العاصمة خط حديدى مفرد ينتهى عند ملتقى الخطوط فى « أنقرة » ، على بعد ثلاثمائة كيلو متر منها . . ومن هناك ركب مصطفى كمال جواداً ، ثم عربة ، فسيارة ، قطع بها جميعاً مسافة الكيلومترات الستمائة الباقية التى تفصله عن جبهة القوقاز .

وكانت الرحلة طويلة شاقة ، والطرقات غير ممهدة ، لم تتناولها يد الإصلاح منذ سنوات ! . . ولم تكن أنقرة ذاتها إلا بلدة ريفية صغيرة تقع فى بقعة مرتفعة داخل البلاد . . ووراءها إلى الشرق إقليم جبلى صخرى كبير ، موحش قاحل كئيب ، يكاد يكون غير مأهول بالسكان إلا فى بضعة أودية خصيبة تتخلله ، طقسها شديد القيظ فى الصيف ، قارس البرد فى الشتاء . .

وقد وجد مصطفى كمال القوات التركية فى القوقاز فى حالة فوضى تامة . فإن أنور كان قد أعد فى العام السابق خطة – من خططه الضخمة – أراد بها أن يلتف جيشه حول جناح الجيوش الروسية ، وهناك يضرب خط تراجعهم ويضطرهم إلى العودة من حيث أتوا عبر القوقاز . وكان قد حشد لهذا الغرض جيشاً جراراً ، وجاء بنفسه خصيصاً من العاصمة كى يتولى قيادته ! . . والواقع أن خطته كانت من الناحية النظرية رائعة ، لكنه كان قد تجاهل التفصيلات العملية العديدة مثل عاملى المسافة والطقس ، فكانت النتيجة أن دهمت القوات التركية ، فى الممرات الجبلية ، أعاصير يناير الرهيبة . . فلم يعد من المائة ألف مقاتل الذين ذهبوا إلى هناك سوى اثنى عشر ألفاً من الأتراك تجمدوا من البرد بعد أن التصقوا ببعضهم بعضاً التماساً للدفء ! . وهؤلاء هم جنود فرق الأناضول ، زهرة الجيش التركى ! ومنذ ذلك اليوم أهملت جبهة القوقاز ، نظراً إلى شدة احتياج جبهة الدردنيل إلى كل رجل وكل سلاح . . فتقدم الروس ببطء ولكن بانتظام ، وأقاموا أثناء تقدمهم القناطر وأنشأوا الطرق ومدوا الخطوط الحديدية ، موطدين أقدامهم فى كل منطقة يظفرون بها . . وكانوا قد ظفروا بمدن : فان ، وبيطليس ، وموش ، ثم قلعة أرضروم الشهيرة . على أن مجهودهم الرئيسى كان مركزاً مع ذلك فى جبهتهم الألمانية . . وكانوا حين وصل مصطفى كمال يعدون هجوماً هائلاً للتوغل فى قلب تركيا . . وقد جاء قائدهم العام « الغراندوق نيقولا » ليتفقد بنفسه الحالة العامة فى الجبهة ! ولمس مصطفى كمال ضعف قوة المقاومة عند قواته التركية ، إذ كان ينقصها كل شىء : الطعام والذخائر والأسلحة ، وكانت ثياب الجنود قد غدت أسمالا مهلهلة ، كما كانت كل مواد تموينهم تختلس وتنهب . فمتعهدو الجيش

يرشون الضباط الذين بيدهم الأمر والنهى ويشاركونهم أرباح الصفقات ، فأثرى الفريقان من هذه السرقات على حساب تموين الجيش ! . وكذلك كانت الخدمة الطبية على أسوأ حال . . فالجنود يموتون بالألوف تأثراً بالدوسنطاريا والتيفوس وغيرهما من الأمراض ، فضلا عن موت الكثيرين منهم تأثراً بالبرد والجوع !

كل ذلك كان فى نظر مصطفى كمال دليلاً جديداً آخر على العجز الخطير فى كفاية أنور ، منافسه الدعى الأخرق . وقد زاد فى حنقه عليه أنه ألقى عليه عبء تطهير هذه التركة المثقلة ! ومع ذلك فإنه عكف من فوره على العمل بهمته ونشاطه الخارقين – إذ لم يكن هناك متسع من الوقت ! – وقدر ، بعد دراسة الأحوال والاحتمالات ، أن الروس سوف يهجمون فى أواخر ربيع سنة ١٩١٧ ، وأنه ما لم ينقذ ما يمكن إنقاذه فوراً ويبادر إلى اتخاذ إجراءات حاسمة ، فإنهم سوف يخترقون الخطوط التركية دون صعوبة !

ومن ثم أبرق فى الحال إلى وزارة الحرب فى العاصمة يصف الحالة العامة ويبين خطر الاستمرار فى سياسة إهمال هذه الجبهة ، ثم أردف ذلك بطلب الإسراع فى نجدته بالإمدادات اللازمة والذخيرة والدواء والرجال . . . فلما لم يتلق رداً أرسل إلى أنور رأساً فى وزارة الحرب برقية تنطوى صيغتها على التحدى والفظاظة . . لكنه لم يتلق رداً هذه المرة أيضاً ! . . لقد كانت جبهة القوقاز بعيدة عن أنظار القوم فى العاصمة ، وكان أنور ورجال هيئة أركان الحرب مشغولين بخططهم وتدابيرهم فى شأن أمور أخرى ! وازداد مصطفى كمال حنقاً وسخطاً على أنور ومعاونيه من الألمان ، لكنه برغم ذلك استمر فى العمل جهد طاقته لتنظيم قواته واستخدام القليل من

العتاد والأدوات التى تحت يده أحسن استخدام . . وبدأ بحملة تطهير شملت اللصوص من الضباط والموردين ، فأنزل بهم عقوبات صارمة ليس فيها شيء من الرحمة أو اللين ، وحينما جرؤ بعضهم – ممن أخطأوا فهم أخلاقه – على عرض الرشوة عليه كي يشاركهم فى أعمال السلب والنهب كان جوابه أن شنقهم وأمر بجلد كل من تثبت عليه تهمة مخلة بالنزاهة . . كما كان صارماً فى معاملته للكسالى والعاجزين . . وهكذا نجح إلى حد يثير الإعجاب فى إعادة تنظيم فرق الجيش التى تحت قيادته . وإدارات التموين والخدمات الطبية ، وعمل بغير توقف على بث روح جديدة فى صفوف المحاربين !

بداية ظهور « عصمت إينونو »

وكان يعاونه ضابط ذكى نشط هو الأميرالاى عصمت رئيس أركان حربه ، وينوب عنه فى القيادة عند الاقتضاء قائد يدعى الجنرال كاظم قرة بكير . وكان عصمت ضابطاً كفؤا مجرباً ، صغير الجسم شاحب اللون لكنه قوى البنية أنيق المظهر ، ذو رأس صغير وأنف كبير مقوس ، وكان هادئاً صموتاً ، به شيء من الصمم فى سمعه ، متزن الشخصية ، صبوراً مثابراً إلى أقصى حد ، خبيراً بالأعمال المكتبية وتصريف الأمور اليومية « الروتين » وتنفيذ الأوامر وغير ذلك ، مما جعله موضع تقدير مصطفى كمال .

أما كاظم قره بكير فكان ضخم الجسم ، بطئ العقل ، لكنه كان مخلصاً مجتهداً كفؤاً محبوباً من مرؤوسيه . وكان مثل عصمت نزيهاً أميناً إلى حد الترمت ، وقد قبل كلاهما مصطفى كمال رئيساً له وتعاونا معه تعاوناً رائعاً . . غير أنه برغم جميع الجهود والمحاولات التى بذلها هو ومعاونوه ،

ما لبث أن أدرك عند حلول الربيع أن هجوم الروس المنتظر لن يجد أمامه مقاومة مجدية ! ومرة أخرى أسعف الحظ مصطفى كمال . . فقد تغيرت الأحوال ؛ فاختمرت الثورة فى روسيا ، وأفسد التمرد والتذمر قواتها الحربية ، فساء النظام فيها واضطربت الأمور . . فبدأ الجنود يفرون من ثكناتهم وشاعت بينهم روح الهزيمة ، فاستدعى الغراندوق نيقولا إلى موسكو وأجل هجوم الربيع . . إلى أجل غير مسمى !

وفى خلال أشهر الربيع والصيف – من عام ١٩١٧ – فعل الانحلال فعله فى الجيوش الروسية ، فانهارت وتداعت وصارت كهشيم تذروه الرياح .

وهنا انتهز مصطفى كمال الفرصة فهجم بقواته ، لكنه لم يستطع التقدم إلا فى بطء ، نظراً إلى ما كانت عليه هذه القوات من ضعف وافتقار إلى العتاد . . فضلا عما أبدته قوات أرمينيا وجورجيا المحلية التى نظمها الروس من مقاومة شديدة للدفاع عن أرضها الخاصة ، وأخيراً . . تم له احتلال : « فان . . و « بيطليس » . . و « موش » . . ثم واصل تقدمه نحو باطوم ! وزال خطر الروس فى تلك الجبهة ، فقد تبددت جيوشهم واكتسحت . . ولكن الجبهة الجنوبية برز فيها خطر جديد ، فقد راح الإنجليز يعدون العدة لشن هجوم من طريق سوريا ، وجاءت الأوامر العاجلة من العاصمة – القسطنطينية – بنـــدب مصطفى كمال لتولى القيادة فى الجبهة السورية ، وبإرسال كل جندى وكل سلاح يمكن الاستغناء عنه إلى تلك الجبهة . . فعهد مصطفى كمال إلى نائبه كاظم فى أن يخلفه فى إتمام تطهير جبهة القوقاز ، وهرع هو إلى العاصمة ، ومنها إلى سوريا .

كان الانجليز قد غزوا – بجيش من الهند – بغداد عاصمة العراق ،

واستأنفوا زحفهم نحو الموصل . وفى الوقت نفسه أخذوا يعدون جيشاً آخر فى مصر كى يهاجموا به فلسطين وسوريا . . فكان لابد من وقف تقدمهم واسترداد بغداد من أيديهم !

وأرسل الألمان – بناء على طلب عاجل من أنور – الجنرال (فون فالكنهاين) لينظم قوات جديدة أطلقوا عليها فيما بعد اسم (الصاعقة) . وجعلوا مقر قيادتها العليا ببلدة (حلب) ، على أن تدعم بعدد كبير من الضباط والجنود الألمان ، وأرسل مصطفى كمال إلى حيث تولى قيادة الجيش السابع ، ولكنه لم يقنع بذلك المنصب واحتج بقوة على السيطرة الألمانية !

لقد عرف من قبل كيف يتعاون مع رئيسه الألمانى السابق (ليمان فون ساندرز) ، ولكنه لم يستطع أن يهضم رئيسه الجديد (فالكنهاين) . كما عجز هذا عن فهم شخصية مصطفى كمال القائد الكفء العنيد المعتد برأيه ، فلما فشل فى استمالته إليه أقدم على كبرى حماقاته فأرسل إلى مصطفى كمال « هدية » هى صندوق من العملة الذهبية . . فأرسل إليه مصطفى كمال ، رداً على ذلك ، إيصالاً يثبت تسلمه الذهب ، ثم أعاد إليه ذهبه فيما بعد واسترد إيصاله . . !

وفى أول اجتماع لهيئة القيادة العليا فى « حلب » التقى أنور وجمال – وكانا يتوليان قيادة الجيش الرابع – بمصطفى كمال وفالكنهاين وعدد من كبار القواد الألمان . . وانتقد مصطفى كمال بشدة كل خطط فالكنهاين ، وبخاصة خطته التى كان معتزاً بها وهدف بها إلى مهاجمة بغداد براً ومهاجمة قناة السويس جواً ! . . فقد كان مصطفى كمال مقتنعاً بأن مصير الهجوم إلى الفشل الذريع . . لكن الألمان لم يلقوا بالاً إلى اعتراضاته وانتقاداته ، ولم يؤيده فى رأيه هذا سوى جمال ، الذى كان يحاكيه فى نفوره من الألمان !

ثم توالت أسباب الخلاف بين الفريقين وازدادت حدة ، حتى لم يجد مصطفى كمال بدًّا من تقديم استقالته من القيادة الموكولة إليه . . وحاول أنور وفالكنهاين إقناعه بسحب استقالته ، لكنه رفض ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فعين خلفه وأصدر أمراً بذلك إلى الجيش !

وأراد فالكنهاين أن يحقق معه بتهمة العصيان والتمرد ، لكن أنور حال دون ذلك وأمر بعودته إلى مقر قيادته القديمة فى ديار بكر . فلما رفض مصطفى هذا الحل رأى أنور — حفاظاً على ماء وجهه وعلى النظام — منحه إجازة مرضية إلى أجل غير مسمى !

وكانت نقود مصطفى قد نفدت ، فأعطاه جمال مبلغاً مقابل ارتهان جياده ، وإذ ذاك استقل مصطفى كمال القطار إلى القسطنطينية ، وقد اقترب الخلاف بينه وبين أنور من مرحلته الحاسمة ، إذ أدرك هو أن موقفه سليم من كل شائبة ، بينما أنور لم يكن واثقاً من قوة مركزه ، وكان الشعور العام ضد الألمان وضده يزداد ، وفى الوقت نفسه كان مصطفى كمال قد صار ضابطاً كبيراً ذا شأن وصيت ذائع ، بحيث لو اتخذ أنور أى إجراء لاتهامه بالعصيان بسبب رفضه الخدمة تحت سيطرة الألمان لأثار عمله هذا عاصفة شعبية ، وخلق من مصطفى كمال بطلاً وطنياً . . !

وفى العاصمة عاش مصطفى كمال مع أمه وأخته فى المنزل رقم ٧٦ ، بشارع « أكارتلر » فى ضاحية « باش قطاش » ، القائمة فوق التلال الواقعة خلف المدينة ، لكنه — كعادته — وجد الحياة العائلية ثقيلة لا تحتمل . كما كانت القيود التى لا بد منها تثيره وتسخطه ، فهو يكره أن يرى النساء ملتفات حوله دائماً ، يثرثرن وينصحن وينتقدن ، بل ويعنين بأمره ويتدخلن فى شؤونه . . فى جميع الشؤون ، حتى فى أدق دقائق حياته وتفصيلاتها ،



مسجد (أيا صوفيا) باستانبول ، تحفة الفن البيزنطى ومن أروع نماذجه أنشئ فى القرن السادس الميلادى ليكون كاتدرائية القديسة صوفيا ، حتى غزا الأتراك المدينة عام ١٤٥٣ فحولوه إلى مسجد ، وفى عام ١٩٣٥ حوله أتاتورك إلى متحف . وهو الذى قال فيه شاعرنا شوقى بيته الخالد :

كنيسةٌ صارت إلى مسجدٍ هدية السّيدِ للسّيدِ

كان يبغى أن يكون حرًّا من كل قيد !

ومن ثم استأجر لنفسه حجرة فى فندق « بيرا بالاس » المطل على القرن الذهبى وإستامبول . . وهناك عاش منفرداً ساخطاً منطوياً على نفسه . وإن لم يدع فرصة تمر دون أن يجاهر برأيه فى وجوب مهاجمة أنور والسيطرة الألمانية !

وبدأ بعض الضباط والساسة الذين كانوا يعارضون أنور يلتفون حول مصطفى كمال . . حتى غدا من الخطر إبقاء هذا القائد الثائر فى العاصمة ، عاطلاً عن العمل ! . . فلما تم الاتفاق فى ربيع سنة ١٩١٨ على أن يقوم الأمير وحيد الدين ولى العهد بزيارة رسمية لألمانيا . . ألحق أنور مصطفى كمال بحاشية الأمير المرافقة له فى الزيارة . وذلك للتخلص مؤقتاً من وجوده فى العاصمة . . فضلاً عن إتاحة الفرصة له كى يرى آلة الحرب الألمانية وهى تعمل ، لعله يقتنع بقوة ألمانيا وأرجحية انتصارها فى الحرب !

وقبل مصطفى كمال المهمة التى أسندت إليه كى ينجو من التعطل الذى عاناه طيلة ثلاثة أشهر ، وكان بقاؤه بلا عمل أثقل ألوان العذاب على نفسه ، سيما وأنه لم ير فى الأفق بوادر « تغيير » قريب ، برغم امتلاء العاصمة — كالعادة — بالمؤامرات والدسائس . . ذلك أن القائمين بها نكرات ضئيلو النفوذ والشخصية ، ومن رجال الطبقة الثانية ، ومن ثم حرص على أن ينأى بنفسه عنهم . . وكان أنور ، بفضل سيطرة آلة الحرب ، مستولياً على مقاليد الأمور بقوة وحزم !

ومن جهة أخرى راق لمصطفى كمال أن يرى الجبهة الألمانية ويلتقى بكبار ضباط القيادة العليا هناك . وقد ندم فى البداية على قبوله السفر . . وقبيل حلول موعده بيومين توجه إلى قصر ولى العهد كى يقدم إليه رسمياً ، وهناك

جلس فى انتظار الإذن بالمقابلة على مقعد غير مريح فى حجرة مزركشة الجدران بأفخر أنواع السجاد ، بينما وقف رجال القصر حوله فى أرديتهم الرسمية يتهامسون !

ودخل وحيد الدين . . وكان رجلاً هزيلاً كثيف شعر الجسم ، ذا رقبة طويلة ووجه يبدو عليه الضعف ، يرتدى مجموعة من ثياب الصباح لا تلائم جسمه . . وجلس على أريكة مزدحمة بالوسائد والرياش ، وبعد أن تقبل تحيات رجال حاشيته أغمض عينيه ثم فتحهما مرتين بعد مجهود ، وأبدى ملاحظتين تافهتين ، ثم عاد يغالب النعاس . . فأدرك مصطفى كمال أنه أبله ! وفى موعد السفر وصل الأمير إلى المحطة فى ثيابه المدنية ، ومر يستعرض قرّه قول الشرف وهو يرفع يديه إلى جبهته بالتحية على الطريقة الشرقية ، فلم تهضم عقلية مصطفى كمال العسكرية هذه الحركة واحتج عليها لدى مدير إدارة المراسم « البروتوكول » ، فأسكته هذا طالباً منه ألا يتدخل فيما لا يعنيه ! . . ثم تبين أن رتبته العسكرية ومرتبه قد خفضا ، وأن المكان الذى خصص له يقع فى العربة الأخيرة من القطار ، مع أمتعة ومهمات بقية الركاب ، فلما شكا من ذلك لم يأبه لشكواه أحد . . وعومل كضابط صغير ، وأثار غضبه أن يحف به كل هؤلاء القوم من حثالة موظفى القصر ، بمسلكهم المنافى للياقة وتملقهم لمن هم أكبر منهم ، وفظاظتهم مع من يصغرونهم فى المقام ! . . وحين وقف يرقب الأمير ، بوجهه النحيل وعينيه الغبيتين ، مطلاً من إحدى النوافذ يتقبل فى إعياء هتافات الجماهير عند بدء تحرك القطار ، أدركه الندم على حماقته التى جعلته يقبل مثل هذه المهمة . . فقد آلمه — وهو التركى الفخور بتركيته — أن يرى بلاده تمثل فى أوربا بواسطة بعثة يرأسها مثل هذا الأمير العاجز

الأبله ! . . على أن القطار لم يكد يعبر الحدود التركية حتى جاءه ساع يحمل إليه أمراً بأن يذهب ليقابل ولى العهد فى عربته ! فمضى مصطفى كمال عبر الممر الطويل ثائر النفس منفعلاً ، وحين دخل العربة السلطانية أذهله أن يجد الأبله الغبى الذى رآه من قبل قد اختفى . وحل مكانه رجل يقظ موفور الانتباه ينظر إليه بعينين ذكيتين ثاقبتين !

ولى العهد الماكر !

كان وحيد الدين قد عاش ستين عاماً فى القصر تحت حكم السلطان عبد الحميد ، الذى كان قد أعجب به ودربه أحسن تدريب ، لكنه لم يكف عن مراقبته طيلة الوقت بواسطة عيونه وأرصاده ، فعاش الأمير كل ذلك الزمن فى خطر دائم . كان يكفى أن تفلت منه هفوة واحدة أو إشارة تنم عن طموحه أو اهتمامه بالسياسة أو العالم الخارجى ، فسرعان ما يختفى من الوجود ، أو يزج به فى غياهب السجون ! . . ومن ثم عمد إلى اتخاذ ذلك المظهر التنكرى الخادع ، مظهر الأبله الواقع تحت تأثير مخدر أو منوم ! . . بينما كان فى الواقع يخفى وراء هذا المظهر فكراً ثاقباً وعقلاً ذكياً . . !

وكان مطمعه وهدفه أن يصير سلطاناً . بينما أراد أنور وطلعت وبقية أعضاء اللجنة العليا أن يتجاوزوه إلى ابن أخيه عبد المجيد ، وعلم هو بذلك فكان من الحذر والمكر معهما ومع الجواسيس الذين أحاطاه بهم مثلما كان مع السلطان ! . . ومن ثم حرص فى العاصمة على أن يعامل مصطفى كمال بالإهمال والازدراء اللذين يقتضيهما الحذر . أما الآن فها هو ذا يحييه فى حرارة ويعتذر إليه بأنه لم يستطع التبسط معه فى الفرصة

السابقة . . ثم هنأه على نجاحه وانتصاراته كقائد حربى ، وبهذا الإطراء المستحب أرضى غرور مصطفى بحيث أزال استياءه وأثلج صدره من فوره . . ! وسرعان ما صار الاثنان صديقين حميمين ، وغدا مصطفى خدن الأمير وأمين سره . وكان كلاهما يكره أنور وطلعت ، فأنفقا فترة الرحلة كلها فى أحاديث تسودها روح الثقة والتفاهم المتبادل !

ورأى مصطفى كمال فى ذلك فرصته المرتقبة . . فالسلطان الحالى رجل مريض ولا يمكن أن يعيش طويلاً . . ووحيد الدين ضعيف هزيل لن يعمر . . وهكذا يستطيع هو أن يرقى العرش بعد زمن وجيز ، فيغدو سلطاناً وقائداً عاماً فى الوقت ذاته ! . . وإذن فيجب أن يوطد نفوذه وتأثيره على وحيد الدين ، كى يصبح القوة المحركة لصاحب العرش المقبل ، ومن هذا الطريق يرتقى إلى القمة ويستأثر بالسلطة التى يريدها ! . . وأول شىء ينبغى أن يفعله هو أن يقنع وحيد الدين بأن ألمانيا لا تستطيع أن تكسب الحرب ، وأن التحالف معها حماقة جنونية ، وأن أنور ومن يظاهره من الألمان يجب أن ينحوا عن الحكم !

وبقى خلال رحلته فى ركاب ولى العهد بألمانيا لا يكف عن إبداء انتقاده لكل ما لم يعجبه فى حرية تامة . . واستقبلهما الفيلد مارشال « هندنبرج » فى مقر القيادة الألمانية العليا ، وعرض أمامهما فى لهجة المتفائل تفصيلات الموقف فى جميع الجبهات – ومن بينها الجبهة السورية – فلما خرجا من عنده صارح مصطفى كمال ولى العهد بأن أكثر ما قاله القائد الألمانى وهم وخداع ، وبأنه هو نفسه يعرف من حقائق الموقف فى الجبهة السورية ما ينقض كلام هندنبرج !

ولم يستطع مصطفى إخفاء كراهيته للألمان وزهوه البالغ بتركيته ، وإيمانه

بتركيا والأتراك .

وكلما اقتربت الجولة من نهايتها ازداد مصطفى كمال سعياً إلى هدفه . . وأخيراً سأل الأمير ذات يوم – وكان فى فندق « ادلون » ببرلين – أن يسمح له بأن يكون صريحاً معه . . فلما أذن له فى ذلك أردف قائلاً : « أريد أن أقترح شيئاً من شأنه – إذا وافقت عليه – أن يربط حياتي إلى حياتك » .

وعندئذ أومأ إليه ولى العهد كى يستطرد ، فقال : « أرى إن تطلب من الألمان أن يعهدوا إليك فى قيادة جيش من جيوش تركيا . . إن جميع الأمراء الألمان يقودون جيوشاً فكيف لا يقود ولى عهد تركيا جيشاً من جيوشها ؟ وإنها لإهانة كبرى أن أنور لم يقترح ذلك من قبل . . ومتى تم ذلك فإنه يسعدني أن تجعلنى سموك نائباً عنك فى القيادة ! » فسأله وحيد الدين : « وأى جيش تقترحه ؟ » .

وإذ ذاك أجابه مصطفى كمال : « الجيش الخامس » ، وكان يعلم أن هذا الجيش يقرر مصير العاصمة والمنطقة المحيطة بها ، وسوف يكون العامل الحاسم فى أية أزمة سياسية !

فقال الأمير : « ولكنهم سيرفضون طلبى ! » .

فقال له : « لا بأس ! . . أظهر لهم أنهم بإزاء شخصية يحسب حسابها ، وأنهم لا يستطيعون تجاهل سموك ! » .

فقال الأمير : « حسناً ، سوف نتدبر الأمر ، عند عودتنا إلى العاصمة ! » .

السلطان الجديد

بدأ مصطفى كمال خلال العودة من ألمانيا يرسم خطط المستقبل ، وأصغى إليه الأمير وحيد الدين فى اهتمام . . لكنهما لم يكادا يبلغان العاصمة حتى سقط مصطفى فريسة لمرض شديد ، إذ كان أثناء مقامه فى صوفيا قد أصيب بمرض خطير أهمل علاجه فلم يشف منه تماماً ، ثم أرهق جسمه وعقله فى خدماته العسكرية ، كما كان فى حياته الخاصة يفرط فى السهر ويبدد صحته ، فكانت النتيجة أن أثر الداء فى كليتيه ، واضطر إلى ملازمة الفراش شهراً كاملاً كان خلاله فريسة لآلام مروعة ، ثم أشار عليه الأطباء بالاستشفاء فى فيينا وكارلسباد !

وكانت تصحب الداء نوبات انقباض وكآبة انحدرت به إلى مهاوى اليأس وأفقدته النشاط والمبالاة بأى شيء ، ومن هنا تلقى فى كثير من الفتور نبأ موت السلطان فى شهر يوليو وتولى وحيد الدين عرش تركيا والخلافة بعده . ولم يغره هذا النبأ بالمسارعة إلى البلاد لاستئناف عمله فى العهد الجديد !

وتلقى من العاصمة رسائل عدة نصح له فيها كاتبوها بأن يعجل بالعودة ، وذكروا أن السلطان قد اتخذ عزت باشا عدو جماعة « الاتحاد والترقى » مستشاراً له ، وانتزع من أنور لقب « نائب الجنرال » . كما بدأ يكشر عن أنيابه لكل زعماء الإصلاح . . على أن مصطفى كمال – برغم كل هذا – لم يجد فى نفسه أية رغبة فى اتخاذ خطوة إيجابية ، واكتفى بأن أرسل إلى السلطان الجديد كتاب تهنئة !

لكن رسائل أصدقائه توالت عليه ، كما تلقى خطاباً من عزت باشا

ناشده فيه أن يعود للعاصمة التركية . وإزاء ذلك لم يسعه إلا أن يتحامل على نفسه ويعود للقسطنطينية برغم مرضه الشديد ، فوصل إليها محطماً مهدود القوى ، سيما وأنه أصيب فى الطريق بانفلونزا حادة ، وكانت الانفلونزا فى ذلك الوقت أشبه بطاعون مخيف يكتسح أوربا ويقتل آلاف الضحايا كل يوم !

على أن مصطفى كمال كان بطبعه قوى الأعصاب إلى أقصى حد ، بل كان نشاطه العصبى هو القوة الكبرى المحركة له ، فلما وجد نفسه مرة أخرى فى القسطنطينية ، بين أعدائه وأصدقائه ، أمدته أعصابه بقوة أفادت صحته العامة ، وجددت آماله القديمة ، فقرر الشروع فى تنفيذ الخطط التى رسمها بالاتفاق مع السلطان الجديد الحاكم بأمره منذ كان معه في ألمانيا وهو بعد ولى للعهد !

واستقبله السلطان الجديد بكل مظاهر الود والترحيب . . بل ذهب وحيد الدين إلى حد أن أشعل له سيجارته بيده ، وهى عادة لها فى التقاليد التركية دلالة الإكرام والتبجيل ، الأمر الذى شجع مصطفى كمال على أن يصارحه بآرائه فى حرية تامة . . فشرح له خطته القديمة مؤكداً أن الدمار الذى يهدد البلاد قد صار قاب قوسين أو أدنى ، وإذن ينبغى أن يتولى السلطان بنفسه السيطرة التامة على الجيش ، وأن يجرد أنور والقواد الألمان من كل سلطة ، ليكون الأمر له حقاً ولا يكون سلطاناً بالاسم فقط كما يريدون . ثم عاد مصطفى كمال فأكد استعداده لأن يضطلع بأعباء القيادة العامة ، وبذلك ينقذ تركيا من الهاوية التى ستتردى فيها . . نعم ، عليه أن يتحرر من التحالف الألماني ويعقد صلحاً منفرداً على الفور ، قبل أن تفوت الفرصة الملائمة . . ! وسأله وحيد الدين : « هل هناك ضباط

آخرون يشاطرونك هذا الرأى ؟ » ، فأجابه مصطفى : « هناك كثيرون يا مولاى ! » .

لكن وحيد الدين لم يعد بأى شيء . . وفى المقابلة التالية لم يتقدم مصطفى كمال نحو غايته خطوة تذكر ، لكنه فى المقابلة الثالثة عاد إلى شرح وجهة نظره . . وكان يتكلم بلهجة التوكيد ، فقد رأى أحلامه القديمة العريضة فى متناول يده ، وليس ينقصه إلا أن يفلح فى التأثير على السلطان فيقفز إلى القمة فوراً ويستأثر بالسلطة التى طالما تحلب لعابه عليها . . ويطرد أنور – منافسه اللعين – وكل عصبته . . ! واحتد مصطفى فى كلامه ، محاولاً إقناع مولاه ، وإذ بدأ السلطان يجيبه تناسى مصطفى آداب اللياقة واستمر فى كلامه حتى طغى صوته على صوت السلطان . . فلما فرغ من قوله انبرى له وحيد الدين قائلاً فى لهجة الحزم والتوكيد : « لقد نظمت كل أمورى بالاشتراك مع صاحبى السعادة أنور باشا وطلعت باشا » . ثم صرفه من حضرته على الفور !

والواقع أن أنور كان قد هدد السلطان ، فاستشار وحيد الدين صهره وصفيه فريد باشا ، الذى أقنعه بأنه ليس من القوة بحيث يتصدى لمحاربة أنور وجمعية الاتحاد والترقى ، وبأن مصطفى كمال ليس له أتباع يذكرون . . ومن ثم فالحيطة تقتضيه أن يحذر فلا يخاطر بعرشه . . !

وهكذا أهمل السلطان الجديد مصطفى كمال أيضاً ، فزاده ذلك غضباً وحنقاً على أنور ، وبدا أن قد فشلت جميع خطط القائد المقامر وتبددت كل أحلامه . . ولم يكن فى وسعه أن يفعل شيئاً عاجلاً لمقاومة تيار القوى المناوئة له ، فانطوى على نفسه وقرر أن ينتظر ما تأتى به الأيام . . !

أما أنور فرأى من جانبه أن يتجنب كل خطر جديد من جهة مصطفى

كمال ، فقرر إبعاده عن العاصمة بأسرع ما يمكن . . ولم يمض أسبوعان حتى دعا السلطان إليه مصطفى كمال ، ووجده هذا فى رفقة أفراد حاشيته وبعض القواد الألمان ! . . وبعد أن استقبله محتفياً مرحباً ، خاطبهم قائلاً : « هذا هو مصطفى كمال باشا ، وهو من أكفأ الضباط الذين أثق فيهم ! » . . ثم استدار إلى مصطفى وقال له : « لقد عينتك يا صاحب السعادة قائداً لجبهة سوريا ، فهى ذات أهمية قصوى . . وأنا أريدك أن تذهب إليها فى الحال ، وألا تدعها تقع فى أيدى العدو ! . وأنا أعلم أنك ستؤدى المهمة التى أعهد بها إليك على خير الوجوه وأقربها إلى الكمال ! » ثم صرفه من حضرته على أثر ذلك من غير أن يترك له أية فرصة للكلام !

وفيما كان مصطفى كمال يعبر الحجرة المجاورة لمكتب السلطان التقى وجهاً لوجه بغريمه أنور ! . . فأدرك أنه المحرك الذى أغرى السلطان باتخاذ هذا القرار . وبعد أن لبث برهة واقفاً ينظر إليه . . قال له : « مرحى يا أنور مرحى ! . إنى أهنئك ، لقد انتصرت ! . . إن المعلومات التى عندى تقرر أن جيش سوريا لا يوجد إلا على الورق ، فبإرسالك إياى إلى هناك قد انتقمت لنفسك أعظم انتقام ! » ووقف الخصمان متواجهين ! أنور بجسمه الضئيل النشط ، المغطى بالأوسمة والنياشين ووجهه الصبياني الضاحك المرح ، وشخصيته الظريفة الشجاعة . . ومصطفى كمال بقوامه الطويل ووجهه الأغبر الداكن ، وشخصيته المشاكسة النكدة ، وحاجبيه المقوسين فوق عينيه المليئتين بالغضب !

وفى تلك اللحظة قال قائد ألمانى كان فى ركن الحجرة بصوت مسموع : « لم يعد فى الوسع عمل شيء للجيوش التركية . . إنها قطيع ماشية لا تعرف غير الهرب . . ولست أحسد أى شخص يتولى قيادتها ! » .

وإذ ذاك اندفع مصطفى غاضباً نحو القائد الألمانى وقال له وقد اشتعلت عيناه غضباً وانتفض جسمه كله : « أنا أيضاً جندى ، وقد توليت القيادة فى هذا الجيش . إن الجندى التركى لا يهرب أبداً ، وهو لا يعرف معنى التراجع .. فإذا كنت قد رأيت ظهور الجنود الأتراك يا سيدى الجنرال فلا بد أنك رأيتها أثناء فرارك أنت ذاتك .. كيف تجرؤ أن توبخ الجندى التركى من أجل جبنك أنت ؟ ! » .

وجلجل صوته فى أركان الحجرة وسط الصمت المطبق .. وما لبث أن عبر الحجرة ، مارًّا بأنور ، إلى خارج القصر !

الجوع والأوبئة تقتل الألوف !

وصل مصطفى كمال إلى مقر قيادته فى الجبهة السورية فى أواخر أغسطس ، فقدم نفسه إلى القائد العام الألمانى « ليمان فون ساندرز » — وكان فالكنهاين قد عاد إلى ألمانيا فى الربيع — فأبدى فون ساندرز سروره بالتعاون من جديد مع مصطفى كمال ، وقام معه بجولة فى أنحاء الجبهة كلها ، حيث كان الأتراك قد حفروا خنادقهم على طول الجبهة من الغرب إلى الشرق عبر فلسطين ، ابتداء من نقطة تقع على عشرة أميال إلى الشمال من يافا ، ثم بمحاذاة الشاطئ على طول السهل الفسيح ، فتلال « اليهودية » ، فنهر الأردن ، إلى سكة حديد الحجاز ، فالصحراء !

وتسلم مصطفى كمال قيادة الجيش « السابع » من الجنرال فوزى ، الذى نقل إلى القسطنطينية رئيساً لهيئة أركان الحرب .. وكان الجيش السابع يسيطر على القطاع الأوسط من خط الدفاع التركى ، ويتألف من فرقتين تعسكران فى الخنادق ، يرأس أحداهما الأميرالاى عصمت والثانية الأميرالاى

على فؤاد . وإلى اليمين كان الجيش الثامن والفرقة الثانية والعشرون بقيادة الأميرالاى رفعت يدافعان عن الخط الممتد إلى شاطئ البحر .. وإلى اليسار كان الجيش الرابع يحمى سكة حديد الحجاز !

ووجد مصطفى كمال حالة القوات التركية فى الجبهة أسوأ كثيراً من حالها فى القوقاز ! .. كان الجنود مهلهلى الثياب ، تعيث فى أجسادهم الحشرات والهوام . وينقصهم الطعام بل ينقصهم الماء فى كثير من الأحيان .. كانوا يموتون بالألوف من الدوسنطاريا والجوع تحت شمس الصحراء المحرقة المروعة ! .. وكانت روحهم المعنوية قد انهارت تماماً ، فلم تعد تبقيهم فى خنادقهم غير القوة ، ممثلة فى داوريات من حملة المدافع الرشاشة يطوفون بإنحاء الجبهة فى سيارات نقل كبيرة ولديهم أوامر بإطلاق النار على كل من يجدونه خارج الخنادق . ومع ذلك كان عدد الفارين يزيد على عدد الباقين !

وكان الإنجليز قد اتخذوا لأنفسهم خطًّا للقتال يقع فى مواجهة خط الأتراك .. وكان واضحاً أنهم يعدون العدة للقيام بهجوم كبير ، وأنهم متفوقون تفوقاً كبيراً فى العدد والعدة ، وفى الحماسة ، والروح المعنوية ، وهذا عدا تفوقهم فى التنظيم والتموين والخدمات الطبية .. وبما لديهم من المخازن الواسعة المملوءة بالذخيرة ، والمدفعية الوافرة ، والطائرات العديدة ، والمواصلات الميكانيكية المنتظمة ... بينما لم يكن عند الأتراك سوى ثماني طائرات ومدفعين مضادين للطائرات !

وكان العرب بزعامة الأمير فيصل بن الحسين ملك الحجاز ، قد انضموا إلى الإنجليز .. وأقبلوا يشنون الغارات المتوالية فى الصحراء – بقيادة صديقهم الإنجليزى « ت. ا. لورنس » – فيقطعون السكك الحديدية وخطوط التليفون والتلغراف وينسفون الكبارى ويأسرون القوافل ويهدون المواصلات ، ويخلقون

بين قوات الأتراك شعوراً بعدم الأمان .. ويثيرون الأهالى الوطنيين فى سوريا كى يرفعوا راية التمرد والعصيان .. !

ومرة أخرى انهمك مصطفى كمال فى عمله بحماسته المعهودة . باذلاً أقصى جهده فى سبيل تحويل الفوضى والاضطراب إلى شىء من النظام .. لكن مرض كليتيه لم يلبث أن عاوده بشدة فألجأه إلى أن يلازم فراشه فى مركز قيادته فى « نابلس » ، بلا حول ولا طول ، فى الوقت الذى أجمعت فيه كل التقارير السرية التى وردت عليه فى ذينك الأسبوعين الأولين من سبتمبر سنة ١٩١٨ على أن الإنجليز يتأهبون لشن هجومهم الحاسم !

وفى ١٧ سبتمبر أقبل على خطوط الجيش الثانى والعشرين أمباشى هندى هارب من الجيش الإنجليزى ، وأبلغ المسئولين أن الهجوم الكبير الذى يتأهب له الإنجليز سوف يحدث فى يوم ١٩ .. فنقل رفعت النبأ إلى مصطفى كمال ، وأكد صحته القائدان عصمت وعلى فؤاد .. وكان رفعت قد قضى ثلاثة أعوام فى محاربة الإنجليز فى هذه الجبهة فعرف أساليبهم ، ثم أرسلت هذه المعلومات إلى القائد الألمانى « ليمان فون ساندرز » بوصفه القائد العام . لكنه لم يوافقهم فى الرأى ، ورجح أن الأمباشى الهندى الذى جاء بالنبأ ليس إلا جاسوساً عليهم ، وأما الهجوم فسوف يأتى بمحاذاة السكة الحديدية إلى الشرق . ومن ثم نقل أحسن قواته إلى ذلك الاتجاه ! ..

وبقى مصطفى كمال عند ترجيحه صدق رواية الهندى ، وعلى هذا لم يجد بدًّا من أن يتحامل على نفسه ، ويترك الفراش برغم الحمى التى كان مصاباً بها ، وبرغم القيظ القاتل فى تلك الآونة .. ثم استعان بعزيمته لمواجهة الموقف ، واتصل بجميع مرؤوسيه ليكونوا على استعداد ! وفى منتصف ليلة ١٩ سبتمبر اتصل عصمت بزملائه بالتليفون ، وأخبرهم أن العدو بدأ يمهد للهجوم بحملة

قوية من القنابل الثقيلة . ثم بدأ الهجوم العام عند الفجر ، فركز الإنجليز جهودهم فى جبهة الجيش الثامن ، واخترقوا الجناح الأيمن لخط دفاع الأتراك .. ثم تقدموا نحو الساحل ، واكتسحوا الجيش الثاني والعشرين ، والجيش الثامن بأكمله ، حتى كادوا يأسرون القائد العام الألماني « ليمان فون ساندرز » .. ثم التفوا حول مؤخرة الأتراك وقطعوا الخط الرئيسى لتقهقرهم نحو الشمال .. !

وانسحب مصطفى كمال بجيشه وظهره إلى نهر الأردن ، ورغم أن جنوده كانوا قد ساد الذعر فى صفوفهم فإنهم استمروا فى القتال ، بفضل سيطرته الشخصية على من بقى منهم . وفى اليوم الخامس تأهب لعبور النهر وبقى يشرف بنفسه على جميع التفصيلات والدقائق حتى عبرته كل قواته ، ثم تبعها إلى الضفة الأخرى . ولكن لم تمض دقائق حتى كرت عليهم فرقة الفرسان الإنجليزية الحادية عشرة فقطعت الاتصال بينهم وبينه ، ونجا هو فى آخر لحظة !

وكان الجيش التركى الرابع ينسحب بمحاذاة السكة الحديدية ، فجمع مصطفى كمال فلول قوته ومضى بها نحو الصحراء ! .. لكن العدو هاجمه من الخلف والجناحين ، فحصدت مدافعه الرشاشة مؤخرة قواته مرتين ، وهاجمته طائرات الإنجليز من أعلى فحصدت من حصدت ودمرت مواصلاته ومدفعيته بالقنابل والمدافع الرشاشة .. فامتلأت ساحة القتال بجماعات من الرجال المذعورين الذين ينشدون الفرار بأنفسهم تاركين أسلحتهم وذخائرهم وعرباتهم وماشيتهم فى اضطراب لا حد له . وفى الوقت نفسه انقض عليهم العرب الذين يعملون مع « لورنس » فأعملوا فيهم الرصاص والسيوف !

وخلال ذلك كله ، ظل مصطفى كمال مسيطراً على طابوره الصغير

الذى بقى له بفضل شخصيته الجبارة ، وراح يستحث المحيطين به على القتال ، مزوداً إياهم بالشجاعة والحماسة حتى انسحب وإياهم بمحاذاة الخط الحديدى إلى دمشق فى سرعة أفقدت الإنجليز كل اتصال به !

وفى دمشق تمهل قليلاً ، وأمره « فون ساندرز » بأن ينشئ خطًّا دفاعيًّا جديداً فى « الرياق » ، فترك عصمت هناك ومضى لإنجاز هذه المهمة ومعه على فؤاد حيث عكفا معاً على العمل الشاق ، ولكن فى تلك الآونة جاءت الأنباء بأن الأهالى فى مدن الساحل استسلموا للإنجليز وأعلنوا ترحيبهم بهم ، وبأن بيروت سقطت فى أيديهم ، فأصبح أى خط ينشأ فى « الرياق » مهدداً بتطويق الجناحين من الأعداء !

انهيار . . فى جميع الجبهات !

وأخذ مصطفى كمال يفكر فى الأمر فرأى أن الانحلال المعنوى قد شمل جميع القوات ، حتى الضباط الذين من رتب عالية باتوا ينشدون الفرار ، وقد باءت بالفشل كل محاولاته فى سبيل وضع حد لحالة الذعر السائدة ، وحدث أن لمح قائد الجيش الرابع أثناء فراره فأوقفه وقال له : « أنت تستحق أن تشنق ، لكنى سأمنحك فرصة أخرى ، فهيا ضع نفسك تحت تصرف على فؤاد فى (الرياق) .. وكفر عن فرارك ! » ..

فحياه القائد وانصرف ، وفى الصباح التالى كان قد فر من جديد فلم يقف له أحد على أثر ! وإزاء هذه الحالة التى سادت صفوف ضباط القيادة العليا أنفسهم ، وجد مصطفى كمال ألا فائدة من أن يأمر بإعدام الجنود أو صغار الضباط الفارين ! .. وأدرك أن تنظيم الصفوف يحتاج إلى متسع من الوقت ، ولما كان الإنجليز ما يزالون بعيدين ، فى استطاعة الأتراك أن ينسحبوا فوراً

مسافة ميل إلى « حلب » متخلين عن سوريا كلها ، ثم يعيدوا التحصن وراء خط دفاع جديد فى الشمال . فيسدوا الطريق إلى تركيا ذاتها فى وجه الأعداء الزاحفين ! وتوجه من فوره إلى « ليمان فون ساندرز » ليعرض عليه هذا الرأى . فقال له القائد الألمانى : « إن خطتك وجيهة . لكنى لا أستطيع إصدار الأمر بتنفيذها . لأنى لا أريد أن أتحمل مسئولية ترك قطعة كبيرة من الإمبراطورية العثمانية لقمة سائغة للأعداء دون أن أضرب ضربة أخيرة !.. إنها مشكلة عليكم أنتم الأتراك أصحاب البلاد أن تقرروا ما ترونه فى شأنها ! » .

فأجابه مصطفى كمال : « أنا أتحمل المسئولية الكاملة ! » . ثم أصدر أمره بالكف فوراً عن كل صدام مع العدو وبالتأهب للانسحاب العام إلى حلب . وذهب بنفسه فى المقدمة وأعد خطًّا دفاعيًّا جديداً على بعد عشرة أميال شمالى (حلب) كي يحمى الطريق الوحيد الذى يخترق جبال طوروس الجبارة إلى تركيا نفسها . وكان جناحا الخط الجديد محميين ، لا يستطيع العدو أو الفارون من الخدمة أن ينفذوا منهما دون أن يصطدموا بالمدافعين عنهما . ولئن ضاعت سوريا وفلسطين وبلاد العرب – التى كان الأتراك يحتلونها كغزاة وحكام لا غير – فقد صار فى وسع مصطفى كمال الآن بفضل هذا الخط الدفاعى الجديد أن يجعل جنوده يقاتلون وظهورهم إلى الحائط دفاعاً عن وطنهم ذاته !

ولم تكد الفيالق المهزومة تصل حتى أعاد مصطفى تنظيمها وأعد منها فرقاً جديدة قذف بأفرادها إلى خط القتال بعد أن نفخ فيهم من روحه الحماسية القوية ! .. ثم أبرق إلى السلطان يطالبه بإقصاء أنور وعصابته وتأليف حكومة جديدة يسند إليه هو فيها منصب وزير الحربية !

ولم يتلق أى رد على برقيته هذه . لكن الأنباء جاءت على أثر ذلك بأن

كلاً من أنور وطلعت وجمال قد ولوا الأدبار عبر البحر الأسود ، وبأن حكومة جديدة قد ألفت من الكابتن رؤوف والجنرال فوزى وآخرين ! واقترح بعض العرب ، بتحريض من صديقهم الإنجليزى « لورنس » ، أن يستخدم مصطفى كمال نفوذه ليقنع الحكومة التركية بفتح باب المفاوضة فى عقد صلح منفرد مع الحلفاء .. لكن مصطفى كمال رفض الفكرة مفضلاً الاستمرار فى القتال ، فهو ليس جباناً ليهرب كالآخرين أمام تهديد الأعداء له .. ومن ثم راح يواصل الكفاح ليل نهار كى يقوى تحصيناته !

وفى البداية ظل سكان « حلب » متذرعين بالهدوء ، ولكن لم تكد طوابير الإنجليز المتقدمة تقترب منهم حتى انقلبوا معادين مشاغبين . . وكان مصطفى كمال يعيش فى فندق « بارون » الواقع فى وسط المدينة ، فحدث وهو عائد إليه من مكتبه فى سيارته ، وليس معه سوى السائق ، أن أحاط به بعض المتجمهرين الذين راحوا يتصايحون ثائرين متوعدين ، فذادهم عن نفسه بسوط كان فى يده ، وحين تبعوه إلى الفندق رشاهم بوعده بإمدادهم بالمال والسلاح !

وفى الصباح التالى سمع ضجة فخرج إلى شرفة غرفته ، وإذا الشوارع المحيطة بالفندق تعج بالجماهير الصاخبة المهددة ، وعلم أن العرب أغاروا قادمين من الشرق عبر الصحراء وامتلأت بهم المدينة !

ولم يكن أمامه فى الوقت متسع ، فأخلى المدينة فوراً ونقل مركز قيادته إلى « كيتما » وراء الخط الجديد ، واستعد لملاقاة الهجوم القادم . . وفى ٢٦ أكتوبر ظهرت طلائع القوات الإنجليزية الزاحفة ، وهاجمت خط الأتراك عند قرية « هارى تان » فرقتان من فرق الفرسان الهنود . . فتوجه مصطفى كمال من فوره إلى القرية وتولى إدارة الدفاع بنفسه ، وكان الأتراك

قد استردوا روحهم المعنوية فقاتلوا قتالا عنيفاً ، ومنى الهنود بخسارة فادحة اضطرتهم إلى التراجع بغير انتظام والمسارعة إلى طلب النجدات . . بينما تراجع الأتراك إلى مراكز أعدت لهم من قبل على بعد عشرة أميال إلى الشمال . وفيما كان الفريقان ينتظران وصول النجدات لاستئناف القتال جاءت الأنباء من العاصمة بأن الحكومة وقعت على اتفاق للهدنة فى « مدروس » . وجاءت الأوامر إلى الألمان ليعودوا جميعاً إلى ألمانيا فوراً !

وهناك فى حانة بمدينة « أضنة » تسلم مصطفى كمال من « فون ساندرز » قيادة تركيا الجنوبية بأكملها ، وواجه كلا الرجلين الآخر عبر الرجلين كلام كثير يتبادلانه . . كان كلاهما شجاعاً قوى الشكيمة ، منضدة صغيرة من مناضد المقهى ، وقد صار مصطفى كمال المضيف وفون ساندرز ضيفه.— لا رئيسه ! . . وفى ساعة الهزيمة هذه لم يكن عند وعسكرياً مجرباً مزهواً بنفسه ، يحترم الآخر دون أن يظهر له شعوره ! . . فلما حانت ساعة الوداع قال فون ساندرز لخلفه وهو يصافحه : « لقد عرفتك منذ توليت القيادة فى (أنافارتا) . . وإني لأغبط نفسى على كوني قد اكتشفت مقدرتك منذ البداية . لقد اختلفنا فى كثير من الأحيان ، لكننا صرنا صديقين . . وعزائى الوحيد اليوم أني أترك القيادة فى يديك القديرتين ! » .

لقد هزمت تركيا ، لكن مصطفى كمال — وقد انفرد بالأمر والنهى فى هذه الجبهة — أبي وهو المحارب الباسل أن يستسلم استسلاماً رخيصاً ، فناقش كل تفصيل يتصل بشروط الهدنة التى يعرضها العدو ، وانتهز كل فرصة ! . وحين أراد الإنجليز أن يحتلوا « اسكندرونة » أنكر عليهم هذا الحق وأمر حاميتها بالمقاومة بل هدد باستئناف القتال ! . وحين أبرق إليه



مصطفى كمال فى جولة تفتيشية على القوات التركية التى كان يتولى قيادتها .

« عزت » – رئيس الوزراء – آمرا ، ثم راجياً منه أن يستسلم . . أجابه قائلا :
« ينبغى ألا نقبل المذلة ، وإلا أباد الأعداء كياننا إبادة تامة ! »

واستمر يقوى خطوطه ، وأرسل ضباطاً إلى الجبال الواقعة خلفه بعد أن زودهم بالسلاح والذخيرة كي يجمعوا رجالا ويؤلفوا منهم عصابات قوية غير نظامية . . إنه سوف يوقف تغلغل الغدو فى تركيا بوسيلة أو بأخرى . . سوف يتأهب لأسوأ الاحتمالات ، ولو لحرب عصابات يشنها فى الجبال إذا اقتضى الأمر . . !

وتألفت حكومة جديدة فى العاصمة تضم فتحى والكابتن رؤوف والجنرال فوزى . . واستدعى عصمت ليكون وكيلا للوزارة لشئون الحرب . أما مصطفى كمال فقد ترك وأهمل ، الأمر الذى أحنقه وأثار ثائرته ، ولكن دون جدوى !

وفجأة أرسل إليه « عزت » رسالة مستعجلة : لقد اختلف مع السلطان واعتزم أن يستقيل من رياسة الوزارة . وكان مقرراً أن يخلفه فى منصبه « توفيق باشا » ذلك الشيخ المسن صديق الإنجليز ! . . لكن عزت رغب إلى مصطفى كمال فى أن يعود فوراً ، فإنه فى حاجة إلى معونته . .

وإزاء تطور الأمور على هذا النحو سلم مصطفى كمال مقاليد قيادته إلى الضابط الذى يليه ، ثم غادر مقره قاصداً إلى القسطنطينية !

الفصل الثالث

تفكك الإمبراطورية العثمانية

وصل مصطفى كمال إلى القسطنطينية وقد انقضى شهر على بدء الهدنة . وكان العدو قد سيطر على كل شيء : استولت البوارج الإنجليزية على البوسفور . . واحتلت الجيوش الإنجليزية العاصمة وكل قلاع الدردنيل والمواضع الحربية الهامة فى أنحاء تركيا ! بينما احتلت الجيوش الفرنسية إستانبول ، وملأ جنودها السنغاليون شوارع « غلطة » . . واحتلت الجيوش الإيطالية « بيرا » وخطوط السكك الحديدية . . وأشرف ضباط الحلفاء على شؤون البوليس والحرس الوطنى . وعلى الميناء ، وعلى تجريد القلاع من أسلحتها وتسريح الجيش !

لقد تحطمت الامبراطورية العثمانية وتفككت إلى أجزاء صغيرة . . وانسلخت عنها : مصر ، وسوريا ، وفلسطين ، وشبه جزيرة العرب . . وباتت تركيا ذاتها عزلاء لا حول لها ولا طول ، خاضعة لسيطرة العدو المنتصر وقبضته الحديدية . . وانهارت الأداة الحكومية انهياراً تاماً !

وكانت جمعية « الاتحاد والترقى » قد انحلت وتفرقت : ففرّ أنور وطلعت وجمال إلى الخارج . . واختفى « يافيد » اليهودى وبقية الأعضاء فى أماكن مجهولة . . وتألفت حكومة هزيلة برياسة توفيق باشا ، أحد رجال عبد الحميد المعروفين بصداقتهم للإنجليز ، لتنفذ أوامر الأعداء !

على أن مظاهر قوة الأعداء وبطشهم لم ترهب مصطفى كمال ، بل

ظل مستعداً لأن يقاوم ، وراح يناقش ويساوم معهم بعناد على كل صغيرة وكبيرة . . لكنه لم يتلق عوناً من أحد !

كان الأتراك من جميع الطبقات ، ممزقين مهزومين ، لا يقوون على مقاومة أو قتال . وكانوا ينتظرون – مسحوقى الأجسام والنفوس – أن يقرر الحلفاء المنتصرون مصيرهم ، ويتوسلون إليهم فى خضوع ومذلة أن يمنوا عليهم بالبقاء ! وتوجه مصطفى كمال إلى « عزت » – رئيس الوزارة السابق – فوجده غاضباً حزيناً ، وعلم منه أنه عاون أنور وطلعت على الفرار – قبل وصول الأعداء – على ظهر سفينة عبر البحر الأسود ، ولكن السلطان أنبه ولامه على عدم إلقائه القبض عليهما وتسليمهما للإنجليز ، قائلا : « إن تركيا ينبغى أن تكون على صلة طيبة مع الإنجليز المنتصرين » . فأجابه عزت بقوله : « إن أنور وطلعت قد يكونان نذلين ، لكنهما تركيان قبل كل شىء ، وما كنت لأشترك فى تسليم أحد من المواطنين إلى أية دولة أجنبية ، ولو تنفيذاً لأمر السلطان ! » . . وعلى أثر ذلك استقال من منصبه ، وخلفه توفيق باشا .

ولم يجد مصطفى كمال بدا من أن يناشد عزت أن يعود إلى الحكم ، فهو وإن اتفق معه فى عواطفه الوطنية لا يتفق معه فى البقاء بمعزل عن الأمور والسماح لتوفيق وحكومته وللسلطان بقبول الهزيمة على هذه الصورة المزرية المنطوية على الجبن ، فذلك يعنى نهاية تركيا ! . . نعم إن الأمر لم يعد أمر إحياء الإمبراطورية أو استرداد شىء من ولاياتها المفقودة ، ولكن الأمر الآن أمر إنقاذ تركيا ذاتها ! . فيجب أن تؤلف حكومة قوية ، تطيح بحكومة توفيق وتحل عزت مكانه ، على أن يعين مصطفى كمال وزيراً للحربية ، كى يواجه الاثنان العدو بصلابة وينقذا ما تبقى من تركيا !

وعكف مصطفى كمال على تأليف حزب جديد ، باشتراك عزت ومعاونته . ومرة أخرى عاد يندمج فى أوساط الساسة . فوجد عشرات الجماعات التى تألفت كل منها بزعامة كل من هب ودب من الطامعين فى السلطة والنفوذ : فهذا حزب ينادى بتأييد الإنتداب الإنجليزى ، وآخر يسعى إلى الانتداب الأمريكى . . وهذه جماعة من أصدقاء انجلترا ، وأخرى من أصدقاء فرنسا ، وثالثة من أصدقاء إيطاليا . وكل منها مؤلفة على أساس أنه لم يبق ما يمكن عمله من غير معونة من الدول الأجنبية ! أما مصطفى كمال فلم يكن يؤمن بفكرة المعونة الخارجية ، إلا خلال الفترة القصيرة التى راودته فيها فكرة التعاون مع أمريكا . وفيما عدا تلك الفترة كان من رأيه دائماً أن الأتراك ينبغى أن ينقذوا أنفسهم أو يهلكوا . . ! وأصغى إليه الساسة ، فقد صار فى مركز فريد . لم يعد له منافس بعد أن فر أنور . وكان معروفاً بأنه وحده القائد الموفق فى تركيا كلها ،فقد رد الإنجليز عن غاليبولى مدحورين ، وأبى أن يمكنهم من الاستيلاء على « اسكندرونة » . . ثم هو إلى ذلك معروف بأنه صديق للسلطان . . وقد وقف موقف المعارضة العنيدة للألمان ولجمعية الاتحاد والترقى . وفوق هذا وذاك فهو لم يفر – مثل أنور وطلعت وجمال – لينجو بنفسه !

وراح مصطفى يسعى – يوماً بعد يوم – كى يقنع الساسة بآرائه . . كان ينفق الساعات الطويلة فى دار البرلمان فى نقاش وجدل معهم . وبدا على كثيرين منهم أنهم اقتنعوا بما يقول . . ودبر بعضهم أن يقترعوا على الثقة بتوفيق باشا وحكومته . وقبل أن يحل موعد طرح الثقة خطب مصطفى كمال فى جمع من النواب يستحثهم على الصمود فى وجه توفيق باشا وخلع حكومته ثم تأليف حكومة قوية رشيدة . وأيقن من النجاح ،

ومن تقلده منصب وزير الحربية فى الحكومة الجديدة ، وبذلك يستطيع أن يركز السلطة فى يده .

وفى ساعة الاقتراع مضى مصطفى إلى « قاعة الغرباء » فى دار البرلمان لينصت إلى مناقشة الاستجواب ، وفى النهاية فاز توفيق باشا بأغلبية ساحقة . . فقد خشى النواب مصطفى كمال وآراءه وشدة بأسه ، وارتابوا فى مطامعه . فعدوا اعتزامه المقاومة حماقة كبرى !

وشحب وجه مصطفى كمال غضباً من النتيجة ، ولعن الساسة الذين خذلوه ! . ثم مضى إلى أقرب تليفون وطلب الإذن له فى مقابلة السلطان — وكان منذ عودته قد حرص على الابتعاد عن القصر . . فقيل له : إن فى الوسع تدبير لقاء بينه وبين السلطان ، لكنه ترك ينتظر أسبوعاً كاملاً ! وأخيراً استقبله السلطان وحيد الدين ، مبدياً ابتهاجه بلقائه ، لكنه لم يكن مرحباً به فى قرارة نفسه . . على أن ذلك لم يثن مصطفى كمال ، الذى مضى إلى غايته فوراً فطالب السلطان بأن يؤلف حكومة قوية لتواجه الأعداء وتعاملهم معاملة الند للند وتوقف الحركة التى يرمى منها بعض المتطيرين إلى قبول الهزيمة الكاملة ، وقال له : « إن كلمة واحدة من جلالتك كفيلة بتقوية الحماسة الوطنية ، فاجعلنى وزيراً للحربية فى حكومة قوية ، وأنا كفيل بإنقاذ تركيا . لكن هذا البرلمان يجب أن يحل . . فإن نصف النواب خونة . . أعضاء فى جمعية الاتحاد والترقى وأصدقاء لأنور . . ونصفهم الآخر من الجبناء . وليس بينهم رجل واحد صلب العود ! » .

وهنا قال له وحيد الدين — وكان قد ازداد بدانة فى الجسم واعتدادا بالنفس منذ تولى الحكم — : « أنت ذو نفوذ عظيم فى أوساط الجيش ، فهل

تعتقد أن الجيش مخلص لى ؟ » .

فأجابه مصطفى كمال وقد أخذ بالسؤال المفاجئ : « إنى لم أعد إلى العاصمة إلا منذ فترة قصيرة يا مولاى . . ولست فى الواقع أدرى ! » .
وكان وحيد الدين جالساً مغمض العينين كالنائم ، كعادته كلما أراد أن يخفى أفكاره الحقيقية عن عبد الحميد ! . . فسأله مصطفى كمال :

– هل لدى جلالتكم أى برهان على عدم الولاء ؟

فلم يجب بل سأله بدوره : « هل الجيش يدين لى بالولاء ، وهل يستمر كذلك فى المستقبل ؟ » .

فقال مصطفى كمال : « ليس عندى ما يحملنى على الارتياب فى ولاء الجيش ، ولا فى استمرار هذا الولاء ! » .

فقال السلطان : « إذن أستطيع أن أعتمد على استخدام نفوذك فى هذا السبيل ! » .

وكان السلطان قد كون لنفسه – منذ زمن – فكرة واضحة عن مصطفى كمال : أنه رجل طموح أشبه بالعاصفة ، وهو رجل خطر لا يمكن السيطرة عليه إذا أعطى النفوذ ، لكنه قد يكون ذا نفع أحياناً ، فى الماضى أمكن استخدامه ضد أنور ، والآن يمكن استخدامه لكسب ولاء الجيش !

ومن تحت أجفانه الثقيلة ، وبعينين حذرتين ، راح السلطان يرقب القائد النحيل ذا الوجه الأغبر الماثل أمامه ، مفكراً فى مدى استطاعته الإعتماد على إخلاصه ومعونته .

كان جاسوساً للسلطان الأحمر !

وفى اليوم التالى حل وحيد الدين البرلمان ، وأسند رياسة الوزارة إلى صفيه ومستشاره الأول « فريد » ، وبذلك استولى هو على السلطة والنفوذ كاملين ! . . لكن فعلته أثارت عاصفة شديدة من النقد ، فصار الناس يلعنونه علانية . ونشرت إحدى الصحف فقرات من خطاباته إلى عبد الحميد ، وكانت قد وجدت فى القصر فى حوزة عبد الحميد ، وهى تظهر كيف كان وحيد الدين يشتغل بالتجسس لحساب السلطان الأحمر !

ولم يسند إلى مصطفى كمال أى منصب فى الوزارة الجديدة ، لكن الجميع اعتبروه مسئولا عن تصرفات السلطان وأخطائه ، فقد كان معروفاً لكل إنسان أنه حاول التوصل إلى حل البرلمان من طريق الاقتراع على الثقة بتوفيق باشا ، وأنه خلا إلى وحيد الدين ساعة كاملة تحدثا خلالها حديثاً لم يقف أحد على كنهه ! . . لكن رأى الأكثرية اتفق على أنه يعمل لحسابه الخاص ، فنفر منه كثيرون من الذين كانوا يتطلعون إلى زعامته . وارتاب الناس فى أمره !

ثم إن حكومة وحيد الدين لم يكن فيها مكان له . . فإن السلطان بما طبع عليه من ضعف وجبن وعناد ، كان تفكيره يدور وينحصر فى فكرة واحدة راسخة فى ذهنه : هى أن العرش وتركيا شىء واحد ! . . وأنه ينبغى أن يدعم سلامة العرش وسلامته الشخصية ، وبذلك ينقذ تركيا ! . . ولكى يصل إلى هذا لابد له من أن يتحالف مع الأعداء ويجلب رضاهم عن طريق الطاعة لأوامرهم ! . . وكان الإنجليز هم المسيطرين على بقية

الحلفاء ، أعداء تركيا . . ومن ثم رأى أن ينحاز إلى جانبهم ، وكان لديهم هم من الأسباب ما يحملهم على أن يعتزوا به – وهو خليفة المسلمين – كحليف لهم . واقتنع هو بأن كل تفكير فى تأليف حكومة قوية أو إبداء مقاومة من أى لون يعنى دماراً عاجلاً ويجب الانصراف عنه . . وكان يؤيد السلطان فى هذه السياسة – على طول الخط – صهره ومستشاره الأول ورئيس حكومته الجديدة . . فريد !

ولم يعد لمصطفى كمال مكان فى السياسة الجديدة ، فقد تنكر له الجميع ، وكان من سعة الأفق وتعدد الزوايا بحيث لم يصلح للاندماج فى أية جماعة اندماجاً كاملاً يقنع به ويستكين . وقد استأجر منزلا صغيراً فى « شيشلى » – إحدى ضواحى القسطنطينية – وهناك عاش معيشة هادئة ، غير مشترك فى السياسة أو الشؤون العامة ، على أنه كان يتردد بين الحين والآخر على أمه وشقيقته ، بعد أن أبى السكنى معهما فى بيت واحد ، مؤثراً العزلة والانطواء على نفسه .

وكان له أصدقاء قليلون ، منهم صديق واحد حميم يدعى الأميرالاى « عارف » . وهو ضابط مشهود له بالكفاءة والمقدرة ، قضى سنوات تدريبه فى ألمانيا . وكان يصغر مصطفى كمال فى السن ، وقد تعارفا منذ زمالتهما فى سالونيك ومonاستر وسوريا والبلقان وغاليبولى . وبعد عقد الهدنة ربطت بينهما صداقة متينة . وكانت لهما ميول مشتركة وطباع متوافقة ، فإن كليهما كان مستغرقاً فى المسائل العسكرية ، ولوعا بالاستمتاع بالحياة . . على أن عارف لم يكن على شىء من قوة إرادة مصطفى ، وكان ينظر إليه بمثل احترام الكلب لسيده وإخلاصه له ! . . وفتح مصطفى قلبه لعارف . . فقد آلمه وأثاره أن يرى تركيا تنحدر إلى المصير الذى صارت إليه ، وأن

يختال الإنجليز والفرنسيون فى شوارعها بغير حسيب ، ويهينوا نساءها المحصنات . . لكنه مع ذلك كان عاجزاً مسلوب القوة ، يبغى أن يفعل شيئاً دون أن يدرى ماهيته بالضبط . وفوق ذلك فإنه كان مراقباً ، وللإنجليز جواسيسهم فى كل مكان ، وعملاؤهم يعتقلون كل من يبدى ميلاً إلى القتال !

وهكذا اقتنع مصطفى كمال بأنه يجب أن يخفى مشاعره ويخمد نيران الكراهية التى تتأجج بين جوانحه نحو الإنجليز ، وإلا كان مصيره الاعتقال !

ومضت الأسابيع متتابعة ، حتى حلت الأشهر الأولى من سنة ١٩١٩ ، وعندئذ تبدلت الأحوال . . فقد بدأت قبضة العدو على البلاد تتراخى ، فسرحت جيوشه وانسحبت ، ونشبت فى كل من إيطاليا وفرنسا وإنجلترا متاعب داخلية جدية . . وفى جميع الدول المنتصرة بدت نذر رد الفعل المحتوم بعد الضغط المتوالى على الأعصاب طيلة سنوات الحرب . . وفى باريس استغرق ساسة الحلفاء فى وضع سياسة للتفاهم مع ألمانيا ، ولم يكن لديهم وقت للتفكير فى شأن تركيا . ولم تكن الخطوط الرئيسية لشروط الصلح قد حددت بعد . . !

وقال الناصحون للويد جورج : « دعوا تركيا وشأنها ، فسوف تنهار من تلقاء ذاتها وستتولى اقتسام أجزائها فيما بعد ! » . . وفى القسطنطينية كان ممثلو الحلفاء فى شجار دائم صريح : كل منهم يدبر خطة للحصول على نصيب الأسد من المراكز الاستراتيجية والامتيازات الاقتصادية فى البلاد . ، وينافس حلفاءه — أو غرماءه — فى ابتكار الحيل التى تمكنه من أن يخدع الأتراك !

وهنا وهناك ، بدأت تلوح فى الأفق بوادر أمل جديد ضئيل ، مبعثه

الاعتقاد بإمكان تنظيم حركة مقاومة جدية تنقذ تركيا من الهاوية ! . .
لكن المقاومة كانت عسيرة التصديق فى العاصمة ذاتها ، حيث كانت قبضة الإنجليز والسلطان الجديد حليفهم قوية صارمة . . ولكن كان فى الإمكان فعل شيء فى المناطق الجبلية الداخلية . . فى الأناضول !

وتألفت فى العاصمة أكثر من عشر جمعيات سرية هدفها سرقة الأسلحة والذخائر والمستودعات الخاضعة لإشراف العدو ، ثم إرسالها إلى أنصارها فى الداخل ، وتكوين المراكز التى يجمع فيها الرجال وترسم الخطط !

وتلقت الحركة معونة من بعض الرسميين ذوى المراكز الكبيرة . كان عصمت بمثابة وكيل وزارة لشؤون الحرب ، وفوزى رئيساً لهيئة أركان الحرب ، وفتحى وزيراً للداخلية ، ورؤوف - قائد البارجة « حميدية » المشهور فى الحرب البلقانية - وزيراً للبحرية . . . وكان الجميع أصدقاء لمصطفى كمال ويسعون سراً إلى الغاية ذاتها !

وفى عشرات المواضع - فى الداخل - تألفت جمعيات مهمتها تدبير المقاومة السرية ، وانتعشت المنظمات التى كان مصطفى كمال قد وضع بذورها فى الجنوب ، قبل أن يعود إلى العاصمة . وفى كل مكان عادت الفروع المحلية القديمة لجمعية « الاتحاد والترقى » إلى سابق نشاطها واجتماعاتها . . وفى جبهة القوقاز ، على الحدود الشرقية النائية ، بدأ « كاظم قره بكير » والفرق الست التى لم تهزم ، يعصون أوامر الحلفاء بشأن تسريح الجيش ويقيمون العراقيل والعقبات فى وجوه ضباط المراقبة المتحالفة . . لكن هذه كلها لم تكن غير النذر الأولى الحذرة والمحاولات التجريبية التى بدت فى ظل إدراك أصحابها للمآل المحتوم الذى لا بد ستنتهى إليه حين يكتشف الإنجليز أمرها ويعصفون بها على الفور !

اسمه فى القائمة السوداء !

وتسربت أنباء هذه المنظمات إلى الإنجليز ، فألقوا القبض على عدد من الرجال اعتبروهم « خطرين » وزجوا بهم فى سجن « بكير أغا » . . ثم أحبطوا محاولة دبرها هؤلاء وأعوانهم فى الخارج لتهريبهم من سجنهم ! . .

وكانت لمصطفى كمال يد فى هذه المؤامرة ، لكنه لم يظهر فيها للعيان . . . كان على اتصال بجميع المنظمات السرية الحديثة ، لكنه كان اتصالاً حذراً مكتوماً ، لم يتورط فيه تورطاً يؤخذ عليه ، وذلك لأنه لم يكن واثقاً من نجاح الحركة ، فلم يشأ تعريض نفسه لمخاطر لا فائدة من ورائها . وهكذا بدا وكأنه قبل الهزيمة وأيد سياسة السلطان وصهره فريد ! . . على أن الإنجليز – برغم ذلك كله – كانوا يرتابون فى أمره ، فوضع اسمه فى قائمة الرجال الخطرين الذين ينبغى اعتقالهم وإرسالهم إلى مالطة . وكان قد ترك منزله فى حى شيشلى وعاد إلى غرفته القديمة فى فندق « بيرا بالاس » ، المطلة على القرن الذهبى ، بينما عاوده مرضه القديم وصار فى أسوأ حال من الانقباض والأسى والإفتقار الملح إلى النقود . . بل لقد بلت ثيابه وساء مظهره . . ولم يعد له صديق غير « عارف » . . هذا إلى أنه كان مراقباً من الأتراك أيضاً ، فأخذ يقضى أيامه ولياليه فى العاصمة متجولاً على غير هدى أو قصد معين فى الشوارع والطرقات ، أو جالساً فى مقهى من المقاهى مكتئباً جامد الأعصاب ، بغير أمل أو خطة للمستقبل !

ثم عاد الحظ فجأة فأسلم زمامه لمصطفى كمال . . لقد كان كما قال « ليمان فون ساندرز » يملك تلك الصفة الرئيسية من صفات القائد العظيم . . صفة الحظ ! . كما كان يملك الصفة التالية لها وهى القدرة

على أن يغتنم فرصة الحظ ويستخدمها فى حينها . . !

وكان الإنجليز والسلطان قد رأوا أن الخطوات الأولى للمقاومة فى الأناضول يجب أن تقمع فوراً . . وأن ينتدب السلطان شخصاً يمثله كى يتدبر الموقف ويجبر المتمردين على تسليم أسلحتهم وتسريح جنودهم ووقف اجتماعات اللجان المحلية لجمعية الاتحاد والترقى ، فرغب السلطان فى أن ينتدب مصطفى كمال ليقوم بهذه المهمة ، لكن السلطات العسكرية الإنجليزية عارضت ذلك بحجة أنه رجل خطر قدير ، لم ينس بعد مسلكه فى إسكندرونة .

وهنا تطوع فريد – رئيس الوزارة – للدفاع عنه قائلاً : « إن جميع الاضطرابات الناشبة فى داخل البلاد لا ترجع إلى أية عاطفة شعبية بقدر ما ترجع إلى تصرفات جمعية (الاتحاد والترقى) الملعونة ، وعصابة الأشرار الذين يتزعمهم أنور . . أما الأتراك أنفسهم فهم يريدون السلام . ولئن كان مصطفى كمال عضواً – اسمياً – فى جمعية الاتحاد والترقى ، إلا أنه فى الواقع من ألد خصومها ومعارضى سياستها ، علاوة على أن له شهرة ذائعة فى البلاد . . ثم هو إلى ذلك « جنتلمان » يمكن الثقة به ، ومن ثم فهو خير من يصلح لأن يضطلع بالمهمة الكبيرة » .

وظل القرار معلقاً بضعة أيام ، ومصير مصطفى كمال يتأرجح بين أن يعتقل وينفى إلى مالطة ، وبين أن يرسل إلى الأناضول مبعوثاً رسمياً للسلطان ! . . وأخيراً أفلح رئيس الوزارة فى إقناع الإنجليز بوجهة نظره ، فرفع اسم مصطفى كمال من قائمة المرشحين للاعتقال وعين مفتشاً عاماً للمنطقة الشمالية وحاكماً للولايات الشرقية !

ومع أنه لم يكن على علم بتفصيل الأخطار التى تهدده من جانب

الإنجليز ، فإنه لم يكد يعلم بنبأ اختيار السلطان له ليشغل هذا المنصب حتى أدرك أن فرصته قد حانت ، فتبددت كآبته وانقباضه وعاودته فوراً حيويته وصحته . ثم بدأ على الفور يدبر خططه التى لم يطلع عليها غير صفيه عارف ، وأعلن موافقته الحارة على التعليمات التى رسمها له رئيس الوزارة !

إنه كمبعوث للسلطان سوف يحظى باحترام وتقدير كبيرين من جانب أتراك الأناضول . ومن ثم فإنه سيتظاهر بأنه قد أرسل لينقذهم من الإنجليز ،وبهذه الوسيلة يستطيع أن ينظم المقاومة الكفيلة بإنقاذ تركيا !

وكان أول ما فعله أن اتخذ لنفسه « شفرة » سرية فى مراسلاته مع عصمت وفوزى فى وزارة الحربية . وبعد ذلك لم يضيع وقتاً ، بل هرع إلى بيت أمه وشقيقته فى شارع « أكارتلر » كى يودعهما . وكانت أمه قد أوشكت أن تفقد بصرها تماماً ، فتحسست وجهه بأصابعها المرتجفة المعروقة ، ثم قبلته وهى تبكى ، كما اعتادت أن تفعل كلما جاء ليودعها ، وأطلقته مزوداً ببركتها . وفى هذه المرة لم يكاشف حتى أمه بخططه وآرائه !

وفى الليلة ذاتها استقل سفينة أبحرت به عبر البوسفور إلى شاطئ البحر الأسود . . يصحبه « عارف » والأميرالاى رفعت ، الذى عين قائداً للجيش الثالث فى « سيواس » . . وأقبل « رؤوف » لتوديعهم حاملا معه نبأ بأن مؤتمر الحلفاء فى باريس قد أرسل القوات اليونانية لتحتل مدينة إزمير ! . وكان واضحاً أن الأعداء قد حكموا على تركيا بالموت ، وأن مقاومة العدو – لا ممالأته – هى الأمل الوحيد الباقى لإنقاذ البلاد !

وفى منتصف الليلة نفسها طلب رئيس الوزارة أن يقابل ممثلاً للمندوب السامى البريطانى فى الحال . . وأوضح له أن السلطان قد عدل عن رأيه ، فقد جاءته الأنباء بأن مصطفى كمال يعتزم إثارة القلاقل فى الأقاليم

الداخلية ، ومن هنا ينبغى وقفه أثناء رحلته ، بأى ثمن !

وصدرت الأوامر باعتراض سبيله وإعادته إلى العاصمة . لكن إدارة قوات الاحتلال كانت على جانب كبير من تعقيد الإجراءات ، ومن تفشى الغيرة الدولية والأغراض الخاصة بين القائمين على أمرها من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين ، الذين كانت لهم جميعاً يد فى تفتيش أو وقف سفن الركاب ، فاضطرب الأمر بين اختصاص سلطات الجيش أو الأسطول بتنفيذ هذه الأوامر ، وظلت المشكلة معلقة حائرة بين جهات الاختصاص المتضاربة بضع ساعات ، تمكن خلالها مصطفى كمال من الوصول إلى غايته !

كان مصطفى كمال أثناء الرحلة قد ترك نفسه على السجية ، فراح يتكلم بلا انقطاع ، شارحاً أفكاره ومطامعه وخططه . . بينما كان رفعت يصغى صامتاً . وكان رفعت على النقيض من ذلك تماماً . . فقد كان ضابطاً فى سلاح الفرسان فخوراً بنفسه ، شهماً مرحاً طيب المعشر ، مشهوراً بشجاعته ، وقد تولى قيادة قوات مقدونيا فى ثورة سالونيك ، ودافع عن « غزة » فى حصار طويل الأمد ضد الإنجليز . وكان ضئيل الجسم أنيق الملبس والمظهر ، يتكلم فى حماسة الصبى المنفعل وهو يحرك رأسه بلا انقطاع ، ويشير بيديه ويضحك بعينيه !

أما فى هذه المرة فقد جلس صامتاً يصغى . أدرك مدى كفاءة مصطفى كمال ، ومؤهلاته كقائد أو زعيم لثورة يائسة . وكان يؤيده فى اعتزامه تنظيم حركة مقاومة العدو . . لكنه وهو ينصت إليه أحس أن وراء كل ذلك تكمن أنانية مصطفى كمال الطاغية وتصميمه على اغتصاب السلطة بأى ثمن . . فقرر أن يقف فى صفه ، على أن يراقبه من طرف خفى !

الإنجليز واليونانيون يضعونه تحت المراقبة !

وبعد رحلة قاسية رست السفينة يوم ١٩ مايو سنة ١٩١٩ فى ميناء « سامسون » على البحر الأسود ، بينما كانت تزأر فى الجو عاصفة شديدة ، وكانت القوات الإنجليزية تحتل المدينة ، فدس ضابط قلم مخابراتهم أنفه فى كل حركات مصطفى كمال وسكناته . . ووشى عملاؤهم اليونانيون والأرمن بكل تنقلاته وأحاديثه ، بل حتى بمكالماته التليفونية . . أما الأتراك فقد خشوا حتى أن يكلموه !

وانتحل حجة نقل بها مركز قيادته من المدينة إلى « كافسا » ثم إلى « أما صيا » وهى بلدة بعيدة فى داخل البلاد ، تقع على الطريق الرئيسى الذى يصل بين شرق تركيا وغربها . . وهنا أتيح له أن يتحرر أخيراً من الإنجليز المتربصين ، فتنفس الصعداء . . ومد يديه فى حركة من يوشك أن يأخذ عدوه فى قبضته ! . . لقد عاش فى العاصمة ستة أشهر يغلى غيظاً وحنقاً ، مجبراً على أن يبقى مسلوب القوة مكظوم المشاعر ، بينما المدينة تئن تحت أقدام الحلفاء المنتصرين ! . .

ستة أشهر أجبر خلالها على أن يرقب الساسة والرسميين ، وفى مقدمتهم السلطان ورئيس الوزارة ، يحنون هاماتهم صاغرين ويلعقون مواطئ أقدام الإنجليز ، الأمر الذى طعن كبرياءه الوطنى – كتركى – فى الصميم . . فصر على أسنانه كمداً وراح يجتر كراهيته الهائلة للأعداء الظافرين ، وهو جالس بلا حراك ، ولا حول أو طول !

لكنه الآن يستطيع أن يتحرك . . وبعد الأشهر الطوال من السكون والدعة انقلب ، برد فعل عجيب ، إلى كتلة من النشاط الخارق ،

هدفها مقاومة العدو ! . . إنه يبغى أن ينظم حركة المقاومة . وأول خطوة عليه أن يتخذها هى أن يدعم سلطته على الجيش ، ومن ثم أرسل — من أماصيا — يطلب بالتليفون والبرق تقارير عن الحالة فى شتى أنحاء الإقليم . . !

كان الموقف غاية فى البساطة : إن تركيا ترقد مثخنة بجراح الهزيمة وليس فى طوقها أن تبذل مقاومة عسكرية إيجابية . كان كل ما بقى لها أربعة جيوش فى الأناضول ، وجيش فى أوربا ، وفى الجهة الأخرى من العاصمة . وكانت أربعة من هذه الجيوش الخمسة مجرد هياكل اسمية ، بقيت لها قيادتها العليا فقط أما جنودها فقد سرحوا وجمعت أسلحتهم فى المخازن والمستودعات ثم سلمت إلى الإنجليز . والجيش الباقى بقوته هو جيش « كاظم قره بكير » المعسكر فى ديار بكر ، فى أقصى الشرق . . ثم بضع عصابات كمنت فى الجبال المواجهة لازمير وقد أقسمت أن تقاوم قوات الغزو اليونانية التى أرسلها الحلفاء بقرار من مؤتمر باريس ! . .

وكان رؤوف قد استقال من منصب وزير البحرية وأخذ على عاتقه أمر تنظيم حرب هذه العصابات

وأدرك مصطفى كمال أنه فى حاجة إلى معاونة قواد الجيوش المتفرقة ، فاستدعى رفعت من سيواس ، ودعا على فؤاد — قائد الجيش العشرين المعسكر فى أنقره — كى يقابله فى أماصيا . . فحضر على فؤاد وفى صحبته رؤوف !

وكان الإجتماع سريًا ، تولى فيه عارف مهمة تسجيل أحاديث المجتمعين . . فأدلى مصطفى كمال بوجهة نظره وبسط آراءه ، فوافقه الجميع على أن المقاومة هى الأمل الوحيد الباقى . ومن ثم رسموا خطة

لتنفيذها تتلخص فى أن يضاعفوا وينظموا العصابات غير النظامية التى تواجه إزمير ، كى تعرقل وتعوق تقدم القوات اليونانية . ووراء ستار هذه المناوشات يعيدون تكوين جيش وطنى واحد ، نظامى وقوى ، على أنقاض الجيوش « الاسمية » المتفرقة ! نعم ، عليهم أن ينشئوا فى أنحاء البلاد مراكز محلية لقيد الجنود وجمع الأسلحة ، على أن يتصرفوا بحذر بالغ ، وإلا سحق الإنجليز حركتهم فى مهدها ! . وهم يدركون أنهم لن يتلقوا عوناً من السلطان أو الحكومة المركزية ، وأن الشعب فى كل مكان منهك القوى ولن يستيقظ أو يثور بسهولة .. لكنهم سيبذلون أقصى ما فى وسعهم !

وكان لابد أن توحد مراكز المقاومة العديدة تحت إدارة واحدة : فاستقر الرأى على أن يتولى « على فؤاد » قيادة جميع القوات فى الغرب .. وكاظم قره بكير قيادة قوات الشرق .. ومصطفى كمال قوات القطاع الأوسط .. !

ثم استطرد مصطفى كمال قائلاً :

– إن الحكومة المركزية والسلطان واقعان تحت سيطرة الأعداء ، فينبغى أن نقيم حكومة وقتية هنا فى الأناضول !

ولكن .. لم يكد مصطفى كمال يدس أنفه فى السياسة حتى تردد الذين حوله وبدأت الشكوك تساورهم فى نيته ، فقد كانوا جميعاً يعرفون نزعته الثورية ويخشون بأسها . وهكذا بدأ رؤوف فأبدى معارضته فى اتخاذ أية خطوة من شأنها إغضاب السلطان « الخليفة » أو حكومته المركزية .. أما على فؤاد فكان حذراً متهيباً وغير متأهب لقبول مصطفى كمال رئيساً له ! .. وكان رفعت أيضاً يرتاب فى

مصطفى كمال وقد استعاد إلى ذاكرته ما سمعه من آرائه على ظهر السفينة ، وهي كلها تنطق بمطامعه وأفكاره الثورية وعدم احترامه لجميع ما درج الناس والتقاليد على الولاء له !

وحاول مصطفى كمال بكل ما أوتى من قوة تأثير أن يقنعهم باقتراحه ويكسبهم إلى صفه ، فقد كان فى أمس الحاجة إلى معاونتهم . . وأخيراً وافقه رؤوف وعلى فؤاد ، أما رفعت فقد ظل متردداً . لم ير أية فائدة من إنشاء حكومة مستقلة فى الأناضول . . لكنه أمام إلحاح مصطفى وحرج الموقف ، إضطر إلى الموافقة !

وقرر الأربعة أن يوجهوا — فى أسرع وقت — الدعوة إلى عقد مؤتمر فى « سيواس » يضم من يمثلون شتى أقاليم تركيا . . وسرعان ما تلقى مصطفى كمال تأييد كاظم قره بكير — قائد جيش ديار بكر — لقراراته . . وتلاه تأييد مماثل من « جعفر طيار » — من أدرنة — ومن القائد العام لمنطقة « قونية » . . وبذلك ربح مصطفى كمال الجولة الأولى من الصراع : ضم إلى صفه كبار قواد الجيش !

وعلى أثر ذلك عكف على وضع خطته لإثارة الشعب نفسه ، فطاف بالقرى ، وخطب فى الموظفين ، وجمع حوله الضباط المسرحين المتعطلين . وفى كل مكان وكل مناسبة نادى بمقاومة الإنجليز الغاصبين ، قائلا :

« لقد قرر العدو أن يدمر تركيا ، وطننا ، ويمزقها شر ممزق . . ويقيم ولاية يونانية حول سامسون ، وقد إمتلأت جميع قرى الأقاليم بوكلاء بطريرك اليونان . . وبات السلطان — خليفتكم — مسلوب الحول والقوة ، أسيراً فى أيدى الإنجليز . . لذلك أرسلنى إليكم كى أنقذكم ، لكنكم يجب أن تنقذوا أنفسكم بأنفسكم . . ولا جدوى فى بقائكم مكتوفى الأيدى

فى انتظار عون من الخارج . . وإنما السبيل الوحيد إلى إنقاذ وطنكم من الهلاك المحتوم وحماية زوجاتكم وبيوتكم من العار والمذلة هو أن تتطوعوا فى صفوف الجيش الوطنى الجديد وتقاوموا العدو بقوة السلاح ! » .

هكذا كان مصطفى كمال يقول فى بياناته ، وقد أرسل إلى كل قرية مندوبين مهمتهم أن يؤلفوا لجنة محلية للمقاومة ! . وكانت الخطة جبارة عسيرة التنفيذ ، فقد كان الشعب ممزقاً ، منسحق النفوس والأجسام ، فقد كل أمل فى المستقبل ، وتبخر من رؤوس أفراده كل تفكير فى المقاومة ، أو حتى الاحتجاج ! . . لقد غرق فى لجة اليأس والاستكانة بعد سنوات من الحروب الطاحنة والهزائم المتتالية . . ولم يعد ينشد غير السلام ، وإتاحة الفرصة له كى يعيش حياة هادئة ويحصد محاصيل حقوله !

لكن الأهلين وهم يستمعون إلى خطب مصطفى كمال الثورية بدأوا يستيقظون شيئاً فشيئاً . . وكانت الأنباء تترى من (إزمير) حاملة تفصيلات ما يقدم عليه اليونانيون من حرق القرى وذبح الأتراك . . فجعل مصطفى كمال ينفخ فى رماد الغضب والحمية المتخلفين فى النفوس ليعيدهما إلى الاشتعال من جديد . . وسرت فى قرى الأناضول ريح البغضاء للإنجليز ، فأثارت فى الجماهير نشاطاً جديداً . . وأقبل الضباط ينضوون تحت لواء مصطفى كمال ، فنفخ فيهم من روحه ، وأرسلهم إلى القرى الأخرى ليشعلوا فيها نار الحماسة ! .

يرفع راية العضيان !

طارت أنباء هذا النشاط إلى العاصمة ، فهدد الإنجليز بأخذ الثأر .. واستشاط السلطان غضباً ، فقد كان من رأيه أن المقاومة التي تدبر ضرب من الجنون ، وأنها عقيمة لن تؤدى إلى نتيجة غير استفزاز الحلفاء كى يسحقوا تركيا سحقاً كاملاً ! .. وقد أرسل مصطفى كمال إلى أقاليم البلاد الداخلية كى يوقف كل مقاومة ، لكن هذا ما لبث أن استخدم اسم السلطان كى يشجع المقاومة !

وإزاء ذلك أمر السلطان باستدعاء مصطفى كمال كى يقدم له تقريراً عن أعماله .. فلم يكد مصطفى يتلقى الأمر حتى اتجه إلى مكتب البرق وأرسل إلى السلطان برقية شخصية مطولة عاجلة ناشده فيها باعتباره الخليفة والسلطان والقائد لشعبه ، أن يذهب إلى هناك كى يقود ثورتهم ضد العدو الأجنبى !

وطيلة تلك الليلة لبث مصطفى فى مكتب التلغراف ينتظر الرد .. وعند الفجر تلقى رداً مقتضباً يأمره السلطان فيه بالعودة فوراً ، فأبرق إليه بدوره يقول : « سوف أبقى فى الأناضول حتى ينال الشعب استقلاله ! » .. فما كان من السلطان إلا أن عزله من قيادته وأخطر جميع السلطات المدنية والعسكرية بوجوب عصيان أوامره .. فاستقال مصطفى كمال من الجيش ، واستدعى جميع مناصريه وقواد الجيش وخاطبهم بقوله : نحن الآن فى مفترق الطرق ، فإذا مضينا إلى الأمام فنحن إنما نفعل ذلك اعتماداً على أنفسنا فقط ، فإن الحكومة المركزية سوف تكون ضدنا ، وقد يعنى ذلك نشوب حرب أهلية . وسيكون علينا أن نواجه مخاطر كبيرة ونبذل تضحيات جسيمة .. ومتى بدأنا

السير فى طريقنا فينبغى ألا يفكر أحد فى الفرار أو الندم أو النظر إلى الخلف ! فعليكم أن تقرروا أمركم . عليكم أن تختاروا لكم زعيماً . وهناك شرط واحد جوهرى للنجاح : أن يكون لكم رجل واحد فى المقدمة ، رجل واحد يقود هذه الحركة ، ورجل واحد فقط !.. فإذا اخترتمونى فسوف يتعين عليكم أن تشاطرونى مصيرى . لست الآن سوى مواطن مدنى ، وسوف أعتبر حتماً بمثابة ثائر على النظام والحكومة . ولست أطالبكم بغير شرط واحد : أن تنفذ أوامرى وتطاع دون مناقشة ، كما لو كنت لا زلت قائدكم العسكرى !

واختاروا جميعاً أن يستمروا فى طريقهم .. وانتخبوا مصطفى كمال زعيماً لهم وقائداً ، وقبلوا الشرط الذى فرضه عليهم ، وفى مقابل ذلك اشترطوا عليه هم بدورهم ألا يفعل شيئاً من شأنه أن يسبب أذى للسلطان ، فى شخصه .. فقبل الشرط قائلاً : « إن السلطان خاضع لقبضة العدو ولتوجيه ناصحيه الحمق ، فينبغى أن نقاوم حاشيته كما نقاوم الأجنبى الغاصب » .

كانت الوعود دائماً — فى نظر مصطفى كمال — وسيلة إلى غاية وسلماً إلى هدف .. ! وهذا هو الآن قد ألقى القفاز فى وجه العدو الأجنبى المحتل ... وفى وجه السلطان !

وبادر مصطفى كمال بتوجيه الدعوة إلى عقد « المؤتمر » الموعود ، من طريق برقيات أرسلها إلى جميع المناطق هذا نصها :

« إن الوطن مهدد ، والحكومة المركزية لم تعد قادرة على القيام بوظيفتها وتأدية واجبها .. واستقلال بلادنا لن يتيسر الاحتفاظ به إلا بإرادة الشعب ومجهوده . لذلك تقرر عقد مؤتمر وطنى عام فى « سيواس » للمناقشة فى الوسائل والأساليب الكفيلة ببلوغ هذه الغاية .. وفى وسع كل إقليم أن يرسل عنه ثلاثة من المندوبين .. وليحرصوا على السرية التامة ! »

وكان مركزه الشخصى غير محدد . لم يكن له قبل انعقاد المؤتمر المذكور أية صفة رسمية . كان مواطناً عادياً مجرداً من كل سلطة . بل تحاربه الحكومة الشرعية والتقاليد . وفى كثير من المدن رفضت السلطات المدنية أن تقبل أوامره ! .. ولكن من الجهة الأخرى كان يعضده قواد الجيش وأكثر ضباطه وجميع اللجان الجديدة التى تنظم حركة المقاومة ويزداد نشاطها يوما بعد يوم !

لكنه كان فى حاجة إلى نوع من الدعامة الرسمية ! .. وبعد مشاورات مع « كاظم قره بكير » دعا القواد العسكريين ومندوبى الأقاليم المجاورة إلى مؤتمر فى أرضروم . وكانت تواجهه مهمة عسيرة ، فإن كثيرين من الذين حضروا هذا المؤتمر كانوا يعارضون آراءه ، بل يعارضون سعيه إلى السلطة .. كانت تعتمل فى نفوسهم عوامل كثيرة من الغيرة الوضيعة . لكن مصطفى كمال – بصبر جميل وتواضع جم – أخذ يستميلهم إلى صفه .. وشيئاً فشيئاً بدأ يدعم زعامته الشخصية عليهم ، لكنه كان يلتقى دائماً بالشكوك والريب التى تعترض سبيل سيطرته الكاملة عليهم !

وفى وسط المناقشات المحتدمة جاءت الأوامر من حكومة القسطنطينية المركزية إلى « كاظم قره بكير » بإلقاء القبض على مصطفى كمال وفض المؤتمر وإعادة مندوبى الأقاليم إلى بلادهم !

وبات مستقبل مصطفى بين يدى كاظم بكير . كان هو القائد المسيطر على القوة الوحيدة النظامية فى تركيا ، وكان بفطرته نظامياً صارماً ، عادلاً ، محافظاً ، محباً للتقاليد .. فتردد أمام هذا الحرج . كان قد وعد مصطفى كمال بأن يؤيده ، لكن ولاءه للسلطان وحكومته المركزية كان يستحثه على تنفيذ الأمر بالقبض على مصطفى ! ولم يخف نص الأوامر التى تلقاها ولا مدى الحيرة التى يعانيها .. وبات الموقف معلقاً فى ميزان يتأرجح بين شخصيتين :

كاظم .. ومصطفى كمال .. فبذل هذا الأخير كل جهده وبراعته فى النقاش كى يقنع صاحبه بالانحياز إلى جانبه . كان يدرك أنه لو فشل الآن فقد هزم ! واعتزم – أيًّا كان ما يحدث – أن لا يدع نفسه يعتقل ويسلم إلى السلطان وإلى الإنجليز ، كى ينفوه إلى مالطة ليقضى بقية أيامه فى زنزانة ضيقة ، أو لعلهم يحكمون عليه بالشنق ! .. وعاودته ذكريات الأيام التى قضاها فى « السجن الأحمر » فحدث نفسه بأنه يؤثر الموت على أن تتكرر . ودبر أمره مع عارف على أن ينشدا الفرار فيما إذا فشل فى التأثير على كاظم . فإذا افتضح أمرهما قاتلا مطارديهما حتى يقتلا .. أما أن يؤسرا فلا !

واستخدم مصطفى كل بلاغته وحماسته فى محاولة إقناع كاظم قره بكير .. وقال له : « ينبغى أن نكون مخلصين ، لكن إخلاصنا وولاءنا يجب أن يكون لتركيا ، أما السلطان وحكومته فهما ألعوبة فى أيدى العدو الأجنبى ، ومن ثم فالأوامر الصادرة من العاصمة ليست فى الواقع صادرة من السلطان بل من الإنجليز ، وإذن فهى غير شرعية . والسلطة الوحيدة الشرعية هى الممثلة فى مؤتمر المندوبين المنعقد الآن . وفى المؤتمر الوطنى العام المزمع أن يعقد فى (سيواس) .. » .

وبهذا النقاش استدرج مصطفى كمال كاظم قرة بكير إلى متاهة من الأبحاث الفلسفية السياسية .. ثم ناشده كزميل ، وذكره بوعده له بالمساعدة .. وكان كاظم بفطرته بطيئاً فى الوصول إلى قرار فى أمر من الأمور ، لكنه إذا استقر عليه لم يكن ليغيره أو يتراجع عنه ! .. وأصدر الرجل قراره أخيراً ، بالوقوف فى صف مصطفى كمال ورؤوف والشعب ! .. وعقد المؤتمر فى جو من السخط على حكومة السلطان المركزية ، وانتهى إلى قرار حازم هذا نصه : « تنظم مقاومة للاحتلال والتدخل الأجنبى .. وتؤلف حكومة وقتية تتولى تصريف

أمور الدولة إذا عجزت الحكومة المركزية أو امتنعت عنه .. ! » .

وانتخب المجتمعون لجنة لتنفيذ قراراتهم ولتمثيلهم أمام مؤتمر « سيواس » المقبل . واختاروا مصطفى كمال رئيساً للجنة ، كما أختير رؤوف مساعداً له .. وكذلك انتخبوا مصطفى كمال مندوباً عن ولاية أرضروم .. وهكذا ربح (الذئب الأغبر) الجولة الثانية الكبرى من جولات القتال .. وصار فى مركز معترف به ، يظاهره فيه كاظم قره بكير وقواته .. !

ينجو من الاعتقال ، بمعجزة !

أقبل المندوبون من شتى بقاع تركيا لحضور المؤتمر العام فى سيواس . جاءوا متنكرين خلال ممرات الجبال وتحت جنح الظلام ! .. وكانت الحكومة المركزية قد أصدرت إلى البوليس أمراً باعتراض سبيلهم . ولم ينج مصطفى كمال نفسه من الاعتقال إلا فى آخر لحظة ! إنه آمن فى أرضروم وسيواس ، حيث توجد قوات نظامية . لكن جمعاً من رجال المباحث انتظروه فى الطريق ليوقعوا به غيلة . فحذره بعضهم فى الوقت المناسب وإذ ذاك لجأ إلى طريق آخر يخترق الجبال ووصل إلى سيواس سالماً !

ولم تكن لمندوبى الأقاليم أهداف واضحة . فاشتبكوا فى مناقشات طويلة دون نتيجة . وكان من رأى بعضهم أن مقاومة الإنجليز بالسلاح مستحيلة .. ولم يبد مستعداً لمواجهة الحكومة المركزية بالعداء وتعريض البلاد لخطر الحرب الأهلية غير نفرٍ ضئيل .

لكن مصطفى كمال ثابر على مناقشتهم ومقارعتهم الحجة بالحجة دون ملل ، فى صبر نادر لم يكن طبعاً أصيلاً فيه .. فقد كان أول من يعلم أن كل

المستقبل يعتمد على نجاحه فى هذا الموقف . ومن ثم صار يجلس إليهم الساعات الطوال يجادلهم حيناً ويغمرهم حيناً آخر بسيل من كلامه المشتعل حماسة وحمية . وكان بذلك يكتسح معارضتهم اكتساحاً ! وكأن إيمانه برسالته التى تهدف إلى إنقاذ وطنه قد أمده فى ذلك الظرف الخاص بفصاحة غير عادية !

وشيئاً فشيئاً وطد مصطفى زعامته وسيطرته على المجتمعين ، كما فعل من قبل فى أرضروم ، فانحاز إليه المعارضون واحداً بعد واحد ، لكن الأغلبية ظلت تضن عليه بثقتها .. حتى رؤوف وكاظم بكير حاولا إقناعه بألا يرشح نفسه رئيساً للمؤتمر !

على أن ذلك لم يكن بذى أهمية فى الأمر ، فقد شق مصطفى طريقه بنجاح ، فى وثوق وتأنٍ ! .. كان ، بصفاء ذهنه ، يعرف ما يريد ويسعى إليه مباشرة . . وحتى الذين ضنوا عليه بثقتهم وقعوا تحت تأثير سحره فسيطرت شخصيته على الحاضرين جميعاً !

ومرة أخرى خدمه أعداؤه فى إستانبول .. فى منتصف دورة المؤتمر وقع فى يد أنصاره أمر مرسل من الحكومة المركزية إلى « على غالب » حاكم (مالاطيا) – وهى إقليم يقع إلى الجنوب من سيواس ، فى بلاد الأكراد – وكان الأمر يوصى بتدبير حملة من رجال القبائل الأكراد لكى يغيروا على سيواس ويقبضوا على مندوبى الأقاليم الذين حضروا المؤتمر .. ذلك أن السلطان اعتقد أنه يستطيع الاعتماد فى تحقيق غايته على التعصب الدينى والولاء له بوصفه السلطان خليفة المسلمين !

وتلقى الحاضرون هذا الأمر بحنق شديد . اعتبروا تحريض عشائر الأكراد على إلقاء القبض عليهم إهانة لا يمكن السكوت عليها . ومن هنا طلبوا إلى مصطفى كمال أن يرسل قوات نظامية إلى مالاطيا . فأعد مصطفى حملة من فرق المشاة

نوافذ من جميع الجهات تشرف على السهول الصفراء العظيمة الممتدة أمامه إلى مالا نهاية . . . فشيدت فكرية فى الحجرة الوسطى منه ، نافورة من الرخام الأبيض تخرج الماء من قلبها فى أيام الصيف الحارة حين تمتلئ السهول بالغبار !

واختار مصطفى كمال غرفة لمكتبه يستطيع أن يطل منها على السهل ويرى أنقرة من بعيد مشيدة فوق سفح التل العارى وفوقها القلعة القديمة .. وفرشت فكرية الغرفة بالسجاد العجمى والتركى ، وعلقت على الجدران السيف البديع الذى أهداه إليه السيد السنوسى ، كما رتبت كتبه العديدة . . وكان مصطفى كمال من فرط ثقته بأنه سوف يحكم تركيا يوماً ، يحرص على قراءة كتب تاريخ الإسلام ودراسة المشكلات الاجتماعية ! . . وفوق منضدته ثبتت فكرية قطعة من القماش الأخضر مزركشة بالرموز السحرية الغامضة التى كان مصطفى – وهو المتطير المؤمن بالخرافات – يعتقد صدق أثرها ، برغم كفرانه بجميع شؤون دنياه الأخرى . .

وعدا هذا كله سهرت فكرية على سد حاجات مصطفى جميعها ، وتمريضه إذا مرض . . وصارت له بمثابة جارية خاضعة . . أعطته كل شىء ولم تسأل فى مقابله شيئاً غير أن يسمح لها بأن تكون جاريته ! . . وقد لبث مصطفى كمال زمناً مستغرقاً بكل جوارحه فى هواها ، لكنه عاد فسئمها وملها ، وعاد يسهر خارج البيت . . حتى أكلت الغيرة الضارية قلبها ، وكلما فتر شعوره نحوها ، ازداد حبها هى له حرارة وعنفاً !

* * *

وفى هذا الوقت الذى عمل فيه مصطفى كمال وفوزى فى أنقرة كان عصمت فى ميدان القتال يجهد كل عصب فيه كى يدعم مواقعه فى « افيون »

و « اسكى شهر » تأهباً لملاقاة اليونانيين ، الذين كانوا يحشدون جيوشهم ، ويجلبون الإمدادات من المدافع والطائرات ، ويضربون خط دفاعه بالغارات الاستكشافية والهجومية بلا انقطاع . وكان واضحاً أنهم يفوقون الأتراك عدة وعتاداً وعدداً !

وفى الأسبوع الأول من يوليو ، وقبل أن يكتمل استعداد الأتراك ، قام اليونانيون بهجومهم المرتقب ، فاكتسحوا كل ما أمامهم واحتلوا كوتاهيا وأفيون ، ثم ركزوا قواتهم فى مهاجمة « اسكى شهر » ملتقى الخطوط الحديدية ومفتاح غرب الأناضول كله !

وجلس عصمت فى مقر قيادته المتواضع خلف اسكى شهر ، محطم الأعصاب والقوى بعد أيام متتالية من المجهود الشاق والهزائم المرة ! . . . وبلغ من إعيائه أنه كان ينام فى مقعده وهو يقرأ تقريراً أو يدرس خريطة ! .

وكانت الطوابير اليونانية ترحف نحو « اسكى شهر » من ثلاثة إتجاهات ، بغية تطويقها وتطويق الجيش التركى الرئيسى معها . . وفشلت جميع الهجمات المضادة التى شنها عصمت على العدو الزاحف ، وأمسى الموقف يحتاج إلى قرار حازم لمواجهة الخطر المحدق : هل يثبت عصمت فى مواقعه برغم يأسه من النتيجة ، أم يخلى البلدة ويتقهقر بانتظام تاركاً للعدو مخازنه المليئة بالذخائر التى جمعت بشق النفس ، بل تاركاً الأهالى المدنيين تحت رحمة اليونانيين القساة الغلاظ الاكباد ، يسومونهم سوء العذاب ؟ !

وفى غمرة حيرته المريرة أبرق إلى مصطفى كمال طالباً إليه أن يخف من فوره لنجدته ولاتخاذ قرار حاسم فى الموقف !

عندما يتخذ الزعيم القرار المصيرى !

ولم يضيع مصطفى كمال وقتاً ، فوافاه على عجل ! . . لم يحاول أن يروغ من المسئولية أو يتهرب من مواجهة الموقف ، بل حمل العبء على كتفيه دون تردد . . . وللحال امتلأ الجو بروح جديدة من الشجاعة والتفاؤل ، اللذين كان مصطفى – على العكس من عصمت – قديراً على بثهما بسحر ساحر فى نفوس الجنود ، حتى فى أحرج الأوقات !

وبعد أن أصغى مصطفى إلى التقارير ، ودرس الخرائط ، فكر فى الأمر مليًّا : إنه حين أمر بالتقهقر فى معركة دمشق كان يخلى أرضاً غير تركية ، يقطنها عرب وسوريون ، أما اليوم فهو سيخلى أرضاً تركية صميمة ، ويخلف مواطنيه رجالاً ونساء تحت رحمة العدو يحرق ويغتصب ويدمر وينتهك الحرمات ! . . لكنه من جهة أخرى لو بقى فى مراكزه فمعنى ذلك فناء الجيش التركى الرئيسى كله ! ولم تحجب الاعتبارات العاطفية والوطنية عن ذهن مصطفى كمال حقيقة الموقف من الناحية العسكرية ، فأصدر أمره الحازم : « اخلوا اسكى شهر . . انسحبوا فوراً مسافة ثلاثمائة كيلومتر إلى نهر « سقاريا » وأعدوا هناك خطاً دفاعياً جديداً لحماية أنقرة . . فذلك سوف يطيل خطوط مواصلات العدو ويخلق له مشكلات جمة ، فى الوقت الذى يعطينا فيه فرصة إعادة تنظيم صفوفنا ! »

ثم عاد مسرعاً إلى أنقرة ليواجه الأزمة الجديدة ، فوجد أهالى المدينة يحزمون أمتعتهم ليفروا شرقاً نحو الجبال . . ومرة أخرى عاد النواب يتصايحون مطالبين بدم « المسئولين » ! . . فواجههم مصطفى كمال بشجاعته المعهودة ، وفى هذه المرة طلب إليهم أن يعينوه قائداً عاماً ويزودوه

بكل سلطات الحاكم المطلق . . لكن « الجمعية الوطنية » أبدت تردداً ، فقد كان النواب يخشون خطره ! . . وأبى هو أن يساوم : فإذا أريد منه أن ينقذ تركيا فليمنح السيطرة الكاملة ! . . وبعد أن اشترطت « الجمعية الوطنية » بضعة شروط تحمى سيادتها العليا . . وافقت على طلبه ، فصار هو القائد الأعلى للجيوش التركية كلها . وتجمعت السلطة كلها فى يده !

وعلى أثر ذلك وجه نشاطه الخارق المعهود إلى اتخاذ التدابير لإنشاء خط دفاعى جديد يواجه العدو الزاحف . وفى أثناء ذلك سقط من جواده فأصيب فى أحد ضلوعه إصابة ألزمته الفراش يومين .. ثم عاودته آلام كليتيه .. بالإضافة إلى حرارة يوليو المحرقة التى تصهر الجماد .. لكن هذا كله لم يحد من عزيمته ، فهرع إلى الجبهة ليشرف على سير الأمور فيها بنفسه !

وفى فجر يوم ٢٤ أغسطس – سنة ١٩٢١ – هاجم اليونانيون الجبهة التركية بعد أن مهدوا لهجومهم بوابل من قنابل المدفعية الثقيلة ، فالتحم الفريقان فى معركة حامية قاتل فيها كلاهما بالسلاح الأبيض فى حماسة تذكيها الكراهية الموروثة المتأصلة فى دماء كليهما نحو الآخر .. ! واستمر القتال على هذا النحو أربعة عشر يوماً متوالية ، تحت أشعة شمس أغسطس المحرقة !

اليونانيون يهجمون فى غضب أحمق ، والأتراك يدافعون ببسالة رائعة .. وفى قرية تقع خلف الخطوط التركية راح مصطفى كمال يذرع مقر قيادته فى قلق ولهفة ، وضلعه المصاب ما زال يؤلمه . ولم يكن ينام إلا لماماً ، وبثيابه الكاملة ، كما كان يكتفى من الطعام بلقيمات فى فترات فراغه غير المنتظمة .. فوقته كله موزع بين الإصغاء إلى السيل المتواصل من التقارير الحربية ، وتأمل الخريطة المثبتة بدبابيس فوق منضدته ، واتخاذ القرارات العاجلة ، ودراسة الموقف من شتى وجوهه ... وفى الليل كان يظل ساهراً على ضوء مصباح صغير

يفاضل بين شتى الاحتمالات ، محدثاً نفسه بصوت مسموع ، أو متحدثاً إلى صفيه « عارف » الذى كان خبيراً بكل شبر من الأرض والجبال فى تلك المنطقة !

وكان الموقف شديد الحرج ، فلو هزم الأتراك فى هذه المعركة لاضطروا إلى الانسحاب مسافة كبيرة إلى الشرق ، ولسقطت أنقرة فى أيدى الأعداء ، وكانت فى ذلك نهاية تركيا !. وإذن فهذه هى الفرصة الأخيرة ؛ فليصمدوا فيها إلى النهاية !..

وكان اليونانيون يتحسسون الجبهة بحثاً عن جناح ضعيف يلتفون حوله . فساءل مصطفى كمال نفسه : « أنهاجمهم من المؤخرة أم ننسحب ؟ » . إنه لا يملك غير عدد قليل من الجنود ، لا يستطيع التفريط فيهم أو المخاطرة بهم فى غير ضرورة قصوى !.. هذا إلى أن الإشراف على المعركة كان فى أيدى قواد الطوابير المختلفة أكثر مما هو فى يده ، وكانت هذه الطوابير موزعة مبعثرة بين التلال والوديان والزوايا والكهوف ! . . لكنه مع ذلك كله بذل قصارى جهده لكى يسيطر على المعركة ، مثيراً بشخصيته الجبارة حماسة الجنود ومنعشاً آمالهم كلما تزعزعت.. وكم من مرة كانت فيها الهزيمة تبدو محققة ، لولا تدخله فى اللحظة الحاسمة والموضع الحاسم لإنقاذ الموقف !

كان قد درس كل شبر من الأرض ، وعرف قيمة كل فريق من قواته ، ومؤهلات كل قائد صغير من القواد ، فأدار المعركة من غرفته فى مقر القيادة العليا ببراعة ويقظة رائعتين !

وبعد أربعة عشر يوماً من القتال المتواصل كانت النتيجة ما زالت فى كفة القدر . لكن مصطفى أدرك أن اللحظة الحاسمة وشيكة الحلول ، وأن أحد الفريقين لا بد أن ينهار عما قريب ، فقد بلغ الإعياء بكليهما مبلغاً لا يحتمل

المزيد . وفى الساعة الثانية بعد منتصف الليلة الخامسة عشرة ، دق جرس التليفون فى غرفته ، وكان المتكلم فوزى باشا يقول له : « إن العدو بلغ نهاية جهده ، وهو يتأهب لانسحاب عام ! » ، وعندئذ وضع مصطفى كمال السماعة وجلس برهة يوزع الأعلام الصغيرة فوق خريطة جبهة القتال ، فى ظل مصباح صغير أظهر مدى ما أصابه من إعياء بتلك الدوائر السوداء التى ارتسمت تحت عينيه .. ثم أصدر أوامره التالية : « الهجوم اليونانى يتراخى وسوف يتضاءل . فلنبدأ نحن الخطوة الحاسمة .. ألقوا بجميع قواتنا الاحتياطية هنا فى الشمال ، وهددوا خط انسحاب الأعداء من هذا الاتجاه !» ، ثم استدار صائحاً فى طلب قدح من القهوة .. وهو يسب ويلعن – كعادته فى لحظات انفعاله – كل من حوله – حتى الجاويش الذى احضر له القهوة ! – لكن رنين صوته كان قد تغير .. !

واستمر اليونانيون يدافعون فى بسالة وعنف أسبوعاً كاملاً ، لكن قواهم الدافعة كانت قد اضمحلت .. ومضى مصطفى كمال بشخصه إلى خط النار ، يتنقل بين جنوده ويشعل حماستهم .. فى الخنادق ، وفى العراء .. معرضاً حياته للخطر بلا أدنى تحوط .. ومع ذلك ، وبرغم أن من حوله كانوا يتساقطون قتلى كالفراش . . فإنه لم يصب بأى سوء !

وفى اليوم الثانى والعشرين عبر اليونانيون نهر « سقاريا » عائدين من حيث أتوا ، حارقين ومدمرين كل ما وراءهم طبقاً لخطة مرسومة ، فتركوا البلاد خلفهم على مدى مائتى ميل صحراء جرداء ! .. واندفع مصطفى كمال يلاحقهم بالقوة الضئيلة التى بقيت قوية على القتال ، حتى ألزمهم عقر خنادقهم التى بدأوا منها هجومهم على « اسكى شهر » فى شهر يوليه .. وإذ ذاك رابط فى خط مواجه لهم ، وأمر جنوده بحفر خنادق مماثلة . . ثم عاد هو إلى أنقرة !

الفصل الرابع

معجزة تحرير الأناضول !

جُنت الجماهير في أنقرة فرحاً بزوال الخطر عن مدينتهم ، بعد أن حزموا أمتعتهم وجلسوا ينصتون إلى دوى المدافع في انتظار ساعة الرحيل !

واحتفلوا بزعيمهم الظافر مصطفى كمال ، وخلعوا عليه لقب « الغازى » .. واشتركت الدول الأجنبية في التصفيق له ، فجاءت برقيات التهنئة تترى عليه من : روسيا ، وأفغانستان ، والهند ، وأمريكا ، وحتى من فرنسا وإيطاليا ! لكن مصطفى كمال لم يركب رأسه أو يستسلم للغرور . كان يحب التصفيق والاختيال أمام الجماهير . يحب أن يكون موضع إعجاب الناس ، وأن يمجدوا بطولته .. ولقد اعتزم أن يسيطر ويصبح السيد الآمر ، لكن اتزانه لم يفارقه مع ذلك ، وبقى له صواب حكمه وبعد نظره وثبات أعصابه ! .. كان يعرف أن وقف هجوم الأعداء وكسب الأتراك أول انتصار لهم لا يمكن أن يعد نصراً حاسماً . كل ما في الأمر أن الأتراك قد نجوا من الهلاك المحقق وصار ظهرهم إلى الحائط ، لكن البقية الباقية منهم لم تعد صالحة لمواصلة الهجوم ، ويتعين عليه الآن أن يعطل الأعداء عن الهجوم حتى يعيد تنظيم الجيش كله من أساسه ويوفر له الإمداد ووسائل التموين والأسلحة اللازمة ويستبدل بالكسيحين المصابين مجندين جدداً .. وهذا كله من شأنه أن يستغرق أسابيع وربما شهوراً ، يكون النصر بعدها رهناً ببقاء القوة المعنوية للأهالى المدنيين ، كما هو رهن بالتنظيم العسكرى والمعركة الفاصلة .. !

.. وعكف على العمل من فوره ليل نهار ، بمعاونة عصمت وفوزى، فى نشاط خارق وبراعة فائقة .. وفى سبيل بلوغ هدفه وصل إلى اتفاق مع فرنسا ، وعقد معاهدة سرية مع ممثل الوفد الفرنسى « فرانكلين بويون » ، اطلق بمقتضاها عقال ثمانين ألف جندى من الجبهة السورية ؛ وحصل على عتاد وذخيرة لأربعين ألفاً آخرين ! . . ثم لم يكتف بذلك فابتاع أسلحة من إيطاليا وأمريكا – بأموال اقترضها من روسيا ! – وجند طبقات جديدة من الشعب . . .

وتوالت الأشهر والاستعدادات الشاقة قائمة على قدم وساق ، فوقع رد الفعل المنتظر بعد الفرحة الأولى بالنصر ! ضج الناس بالشكوى والملل من الحرب ، وعاد القرويون يطالبون بأن يتركوا فى سلام ، قائلين : « لقد اختفى الأعداء بعيداً عن الأنظار .. فلم القلق ؟.. لقد آن أن تنتهى الحرب » .. واشتدت حركة المعارضة ؛ ففى ساعة الخطر منح الساسة فى الجمعية الوطنية مصطفى كمال سلطة الدكتاتور . أما الآن – فى ساعة النصر – فقد أرادوا استرداد سلطاتهم ! .. وكثرت المؤمرات من كل جانب . بدا الضباط يؤلفون جماعات سرية ويشتغلون بالسياسة .. وجاءت الأنباء بأن أنور نصب نفسه أميراً على « بخارى » ويطمع فى العودة لتركيا .. وكان جمال فى أفغانستان يعمل مستشاراً لأميرها ، فاستبد به الحنين إلى وطنه وكتب إلى مصطفى كمال يعرض عليه تحالفاً وهدنة ! .. ونشطت « جمعية الاتحاد والترقى » القديمة ونظمت شعبها التى صارت تجتمع فى أوكارها الخفية .. أما الجيش فقد انتشر فى صفوفه القلق وارتفعت الأصوات مطالبة بشن هجوم على الأعداء فى الشتاء !

ونصح العقلاء لمصطفى كمال بقبول الصلح فوراً بأحسن شروط يستطيع

أن يحصل عليها ، وذلك قبل فوات الفرصة !.. لكنه أبى الانصياع للنصيحة ، وأصر على وجوب قهر الأعداء فى ساحة القتال . وراح يبث الحماسة فى الجماهير ويوقظ الناس من خمولهم و« غيبوبتهم » .. وقمع بوادر اشتغال الضباط بالسياسة والحزبية ، فشنق خمسة وعشرين منهم بتهمة التآمر على قلب نظام الحكم !.. وشدد قبضته على الجيش الذى عرف سيده فأطاعه !.. وكان فتحى ورؤوف وغيرهما من النواب الذين اعتقلهم الإنجليز فى مالطة قد أطلق سراحهم فعادوا إلى أنقرة .. وهناك أيدوا مصطفى كمال فى البداية ، لكنهم عادوا فانقلبوا معارضين له حين لمسوا نزعته الدكتاتورية ، وكان رؤوف يتزعمهم فى هذه المعارضة .. فتصدى مصطفى كمال لمحاربتهم بقسوة وبغير أية مجاملة .

وتحت وطأة الارهاق ، اشتد العبء على أعصابه . . وحتى فى بيته لم يعد يجد الراحة المنشودة . كانت والدته « زبيدة » — التى تقدمت فى السن وفقدت بصرها تماماً — قد جاءت من العاصمة لتعيش معه فى (شان كايا) . ولم تكن تكف عن انتقاد « فكرية » التى استمرت تقوم على شئون البيت ، رغم انهيار صحتها وشبهة اصابتها بداء الصدر ، ثم انهيار أعصابها وكثرة شكواها وبكائها . وكانت الأم تمقتها ، وتود لو تزوج مصطفى — وزيجة طيبة ، من إحدى بنات العائلات العريقة — وهكذا ضاق مصطفى كمال بصوت أمه المتسلط الحاد ، كما ضاق بسعال فكرية ، وأحاديثها التافهة عن مشكلات الخدم والطعام ! لم يكن لديه وقت ولا مشاعر يضيعها فى مثل هذه الأمور ! . . وكان يستعين على متاعبه بالشراب ، الذى منحه نشاطاً مضاعفاً فى عمله الشاق . .

وهكذا استمر يسعى نحو هدف واحد محدد : أن يتأهب لهجوم حربى

كبير يدمر فيه قوة العدو ثم يملى عليه بعد ذلك شروط الصلح !.. وفى أثناء ذلك ترك الساسة يحاولون الوصول إلى الهدف المشترك بالطرق السلمية ، من غير أن يؤمن بجدوى أساليبهم ، فلما عاد فتحى من باريس ولندن ساحباً أذيال الفشل فى مهمته ، ابتسم مصطفى كمال شامتاً !

وانقضى شتاء سنة ١٩٢١ ، ثم تبعه الربيع والصيف من سنة ١٩٢٢ .. ومصطفى كمال ماض فى استعداده للمعركة الحاسمة !

حفلة راقصة . . لتضليل العدو !

وفى أواخر أغسطس ، والشمس المحرقة تلهب سهول الأناضول والغبار يملأ الهواء ، قرر مصطفى كمال أن يضرب ضربته .. واختار لها اليوم السادس والعشرين . وكان قبل ذلك بحوالى أسبوع قد قطع كل المواصلات بين تركيا والعالم الخارجى ، وانتشرت شائعة تقول إن ثورة قد نشبت فى البلاد !.. وفى اليوم الرابع والعشرين وجه مصطفى كمال الدعوة إلى حفلة راقصة ساهرة تقام ليلة السادس والعشرين ، فلما انتصفت تلك الليلة انتقل مع أعوانه إلى مقر القيادة خلف الخط الأمامى ، ولم تعلم بذلك حتى أمه !.. وكانت قوات « العاصفة » التركية قد حشدت سراً فى مواجهة « أفيون » ، بينما أعدت بضع وحدات متحركة عند (اسكى شهر) كى تحول انتباه الأعداء عن الهدف الحقيقى نحو الشمال !

ولم يكن قادة اليونانيين يرتابون فى شىء مما يدبر . كانوا يتشاجرون فيما بينهم ، بينما المفاوضات تدور فى لندن فتمنح حكومتهم أملاً فى الحصول – بمساعدة الإنجليز – على سلام مشرف دون قتال !.. وكان قائدهم العام

الجنرال « هاجيا نستس » رجلاً مختل العقل ، أشبه بمجنون ، يقضى أوقاته متجولاً بين مقاهى ازمير بعيداً عن الاتصال بقواته ! .. وكان قد وُلىّ القيادة نتيجة للدسائس الساسة الذين كانوا يحاربون بعضهم بعضاً فى أثينا سعياً إلى السلطة . وكان الفساد قد عم الضباط والموظفين الرسميين ، وترك الجنود اليونانيون فى الخنادق بلا طعام ولا نقود ولا ثياب ولا ذخيرة ! .. فتبددت من القوات اليونانية روح الحماسة للحرب ، كما تبددت من الشعب التركى من قبل .
وأخيراً أدرك مصطفى كمال أنه قد أعد كل تفصيلات الخطة ، ولم يعد يشغل باله إلا خشيته سوء الحظ ، وذلك لفرط تطيره وتشاؤمه ، فلم يجد بداً من أن يصطحب معه « خالدة أديب » التى جلبت له رفقتها النصر من قبل ! .. وكانت متغيبة فى « قونية » فأبرق لها كى تحضر على عجل ، برغم ميولها السلمية ومناقشاتها حول شرور الحرب . . فلما وصلت إلى مقر قيادته ، أيقن من الانتصار !

وحين اقتربت ساعة الهجوم أصدر إلى قواته الأمر التالى : « أيها الجنود .. إلى الأمام ! . إن هدفكم هو البحر الأبيض ! » وفى الساعة الرابعة من فجر يوم ٢٦ أغسطس شن الأتراك هجوماً على « دوملويونار » ، مفتاح أفيون والمواقع اليونانية ، فلم يهبط المساء حتى كانوا قد اخترقوا خطوط العدو وشطروا جيشه شطرين وأتلفوا مواصلاته المباشرة مع مؤخرته !

وانهار الجيش اليونانى ! . وعمد ضباطه إلى الفرار حرصاً على النجاة بأنفسهم . . وتسابق جنوده بأقصى سرعتهم نحو ازمير وشاطئ البحر ، مدفوعين بنقص الطعام والذخيرة والحنين إلى الوطن والنفور من القتال ! . . فزالت فرق بأكملها من الوجود ، وتبعثرت أخرى إلى مجموعة متفرقة من الأفراد ! . وطارد فرسان الأتراك أعداءهم المنسحبين ، فتحول

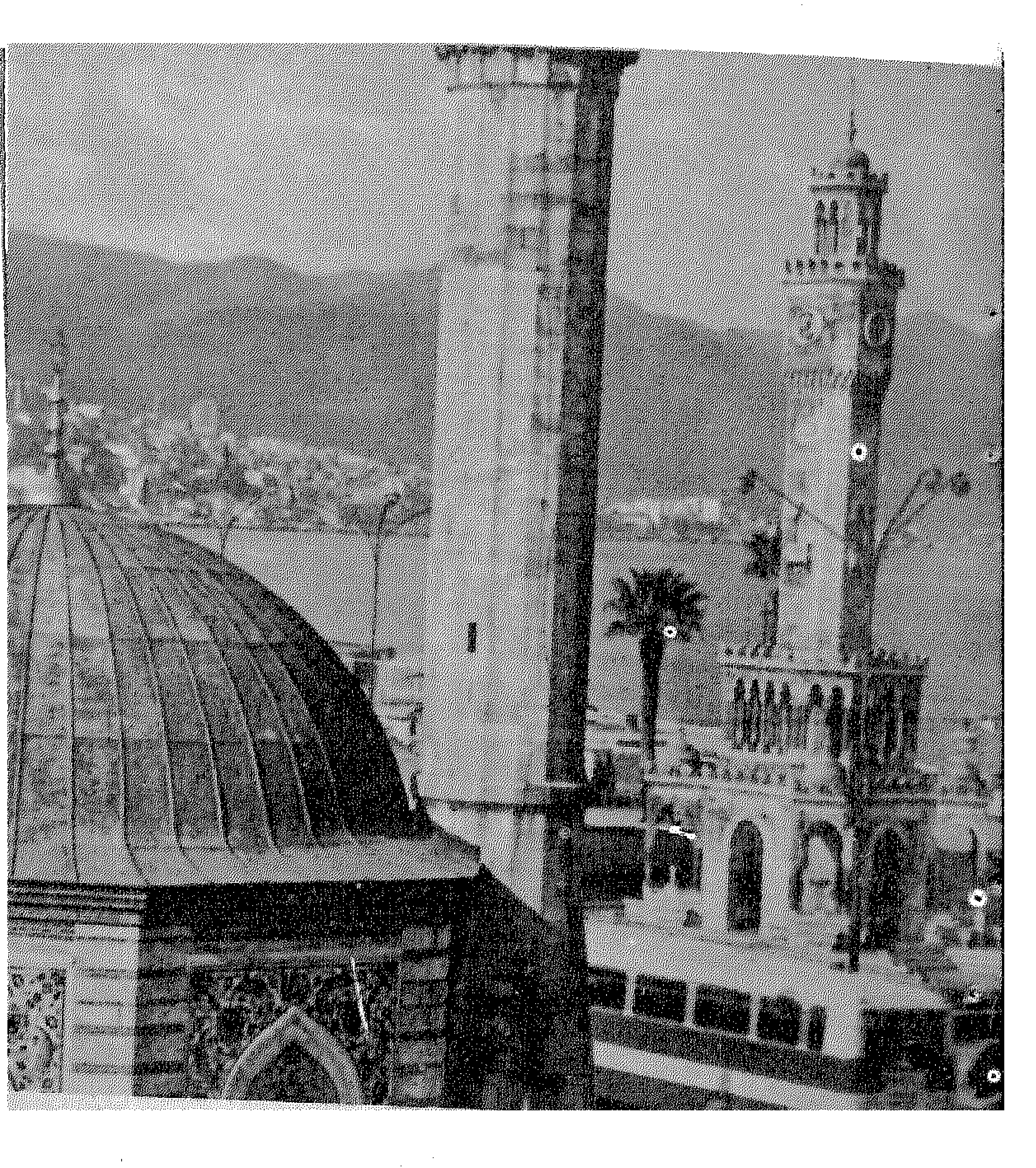
انسحابهم إلى فوضى مروعة وكابوس من الفزع الرهيب . . ومضت جموعهم تنهب السهول الصخرية نهباً ، تاركة وراءها خنادقها وخطوطها المحصنة ومخازن ذخيرتها وثيابها وخيامها ! . وانتثرت فى كل مكان جثث القتلى شاخصة بأبصارها إلى السماء ، نهباً للهوام والحشرات والكلاب الجائعة . . وفوق ذلك كله سحب الغبار الأحمر تحت الشمس المحرقة . !

وأحرق المهزومون فى طريقهم ما صادفهم من القرى ، وقتلوا النساء والاطفال ، بدافع الشهوة الملحة فى الانتقام والكراهية المتأصلة المدمرة ! . . وعجز مشاة الأتراك عن اللحاق بأعدائهم ، فقد كان عليهم أن يتقدموا حذرين – خشية المفاجآت الغادرة – أما الفرسان فقد لحقوا بهم واندفعوا يقتلونهم بغير رحمة ، محجمين عن أخذهم أسرى حرب كما تفرض قوانين الحروب !

وفى خلال عشرة أيام كان اليونانيون قد قطعوا المائة وتسعين ميلاً التى تفصلهم عن البحر ، واستقلوا سفنهم عائدين أدراجهم من حيث أتوا ! . . بينما وقف الأتراك المنتصرون على الشاطئ يشيعونهم بنظرات الشماتة والتحدى ، المشوبة بالغيظ ، لإفلاتهم من قبضتهم وانتقامهم . !

وتحررت هضاب الأناضول من العدو . . وكانت معجزة !

وكان مصطفى كمال قد تبع جنوده فى ملاحقتهم للعدو حتى وصل إلى المنطقة التى تنتهى عندها التلال والهضاب وتبدأ السهول الفسيحة الخصبة المؤدية إلى ازمير والسهل الغنى المحاذى للشاطئ . . وهناك توقف يتأمل ويفكر !



« إزمير » Smyrna ثانى موانئ تركيا (بعد استانبول) . . أو « لؤلؤة الشاطئ الأدرياتيكى كما يطلق عليها اليوم . وهى بمثابة المفتاح لزيارة أطلال مدينة (أفسس) وغيره من المدن التاريخية القديمة .

قبل مجيء اليونانيين كانت تلك الأرض جنة عامرة بالخضرة والأشجار والقنوات الضاحكة ، والنبيذ والتين والقرى السعيدة . أما الآن فقد صارت مرتعاً للرعب والأهوال . وحطام القرى التي دكت ، وجثث الأطفال والنساء اللواتي اغتصبن عنوة ثم ألقين بين الكروم طعاماً للذئاب ! .

ولكن لم تكن هذه الأهوال هي التي أغرت مصطفى كمال بالتوقف والتأمل . . ولا استرعت اهتمامه أو إشفاقه أنباء المرأة التركية التي رجمتها مواطناتها بالأحجار ! . . فإنه لم يكن يفكر في اللحم والدم والألم ، ولا في العواطف وأمور الأفراد . . بل في الحقائق الجغرافية والخرائط وإحصاءات الجنود والأسلحة ! . . .

وقد رأى نفسه واقفاً فوق القمة بينما جنوده قد بلغوا ازمير ، والبرقيات قد حملت إلى العالم أنباء انتصاره الساحق على الجيش الذى أرسلته إليه الدول العظمى ليسحقه ! . . إنها ساعة انتصاره التاريخي المجيد . وإن أعين العالم بأسره لتتركز عليه في يوم مجده . . ولسوف يدخل ازمير بعد قليل دخول الغزاة الفاتحين !

وفي « أوشاق » جاءه النبأ بأن القائد العام لجيش الأعداء ، ومساعده ، قد أسرا ! . . فأمر بإحضارهما إلى مقر قيادته . واستقبلهما واقفاً مرحباً في احترام ، بين عصمت إلى يمينه وفوزى إلى يساره . . ثم صافحهما وأمر لهما بالقهوة والسجاير ، وفي أثناء حديثه معهما تبين — آسفاً — أنهما دون مستواه في المقدرة العسكرية والكفاءة الحربية ، فأحس بشيء من خيبة الأمل !

وأخيراً جاءته الأنباء من ازمير بأن كل شيء قد أعد لدخوله المدينة . . فقطع الأميال القليلة التي تفصله عنها على رأس قافلة من السيارات المتوجة بأكاليل الغار .

وعلى طول الطريق احتشدت الجماهير لتحيته ، هاتفة مهللة باكية ، شاكرة الله على إنقاذه إياها من طغيان اليونانيين !

وعند أبواب ازمير استقبلته فرق من الفرسان الشاكى السلاح ، ومضى الموكب ببطء خلال شوارع المدينة الضيقة ، تحت أقواس النصر وسقوف الأسواق ، وبين الهتاف والتهليل . . وحين مر ببوارج الحلفاء الرابضة عند مدخل الميناء – بمدافعها الضخمة – عاجزة عن التدخل ، حدجها بنظرة سخرية وشماتة . ثم واصل سيره نحو الدار التى اختيرت مقراً لقيادته . وقد تبين فى جبروت تلك البوارج جبروته ، وفى قوتها مدى قوته !

وفى قصر القيادة وجد الهرج والمرج سائدين ، والسعاة يحملون البرقيات من مكتب إلى مكتب . لقد طرد اليونانيون من تركيا الآسيوية ، لكنهم راحوا يحشدون قواتهم عبر البحر فى أوروبا ، لكى يهاجموا القسطنطينية . وإذن . . لا مفر من إعادة تنظيم الجيش التركى وإرساله على عجل إلى مركز الخطر !

زيارة . . من امرأة مجهولة !

ووجد مصطفى كمال أمامه مائة مشكلة ومشكلة تنتظر تصرفه العاجل ، فانغمس فى العمل بهمته المعهودة ، من الفجر الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل ! . . وفى اليوم الثالث جاءه ساعيه يعلن أن سيدة شابة تبغى مقابلة الغازى وتلح فى طلبها . وقبل أن يفرغ الساعى من كلامه اقتحمت المرأة الحجرة وقدمت نفسها اليه باسم لطيفة هانم !

ووقف مصطفى كمال لحظة بلا حراك ، غاضباً لدخول المرأة بغير

استئذان ، ثم تمالك نفسه فأومأ إلى الحاجب كى ينصرف ، وإلى المرأة كى تجلس ! كانت تختلف كل الاختلاف عن نساء الأناضول الفلاحات ، فرمقها بنظرة فاحصة . وكأنما شعر بارتياح خفى لمرآها بعد عناء الأيام المنصرمة ومتاعبها ! وكانت ترتدى الثياب الأوربية الأنيقة ، فيما عدا غطاء رأسها التركى الذى زاد فى جمال استدارة وجهها ! . ولم تكن محجبة ، فتبين من ملامحها أنها من أسرة طيبة . وليست فتاة رخيصة من الأسواق . وكان فى مظهرها هدوء من ألفت أن تطاع ، ولا سيما حين واجهته بنظرة ثاقبة كأنها نظرة رجل إلى رجل ، لا بتلك النظرة الرخوة اللينة التى ألفها من النساء ! . .

ولم يكن طبيعياً من فتاة تركية من أسرة طيبة أن تقتحم مكاتب القادة وتتكلم بمثل هذه الجرأة . . فأثار أمرها اهتمامه وفضوله : ترى ماذا تبغى ؟ وماذا يستطيع أن يفعل من أجلها ؟

وكانت نوافذ الحجرة مفتوحة فى ذلك الضحى الحار من سبتمبر ، ومن الخارج كانت تسمع طلقات الرصاص وصيحات الجرحى وحشرجة المصابين . فالأتراك يأخذون بثأرهم من بقايا اليونانيين المستوطنين فى البلدة ويقتلونهم كما قتلوهم هم فى يوم سطوتهم ! . . ودخل ضابط من مرءوسى الغازى لينبئه بأن الحرائق قد شبت فى كثير من أحياء اليونانيين ، وأن الذخائر المخبأة فى أقبية كنائسها مهددة بالانفجار ونسف الأحياء المجاورة من المدينة ! . . ثم انصرف الضابط ، فالتفت الغازى إلى ضيفته يسألها عن مطلبها ؟ . . إنه مطلب غاية فى البساطة ، فوالدها أحد كبار بناة السفن فى ازمير ، وهى قد عادت لتوها من باريس وبيارتز حيث تركت والديها . وهم يملكون منزلاً كبيراً مليئاً بالخدم فوق تلال « بورنوفو » وراء ازمير ،

ولما كانت الدار التى يتخذها الغازى الآن مقراً لقيادته قريبة من الضجيج ، وغير مريحة ، فإن الفتاة تعرض عليه ان ينتقل وأركان حربه إلى منزلها لينزلوا فى ضيافتها ويحظوا هناك بكل عناية فى طوقها . . !

وقبل مصطفى كمال ما عرضته شاكراً . . وانتقل ومرؤوسوه إلى الدار الجديدة التى أعجبه هدوؤها ، وكانت تحيط بها الكروم والحدائق وتطل على ازمير وميناءها ، وقد توافرت فيها كل وسائل الراحة ، من الطعام الجيد ، والخدم الأكفاء . . وفوق ذلك كله كانت هناك الفتاة ! إنها إدارية حازمة وقديرة ، وأنثى ناعمة رقيقة فى الوقت نفسه ، فجذبه سحرها ، واشتهاها . . وقبل أن ينقضى يومان كان قد أحبها حباً جنونياً عنيفاً . كانت « لطيفة » ، ولطيفة بحق ! . . بشعرها الفاحم ، وعينيها السوداوين الضاحكتين ، وصوتها الناعم وهى تتكلم التركية ذات الجرس الموسيقى !

وكان مصطفى قد أحس فى الأسابيع الأخيرة أنه قد بدأ يهرم ، وتسحقه متاعب الحياة ، فعمد إلى الخمر يشربها كى يهدئ من ثائرة أعصابه ، أما الآن فقد كف عنها وطلقها . لم يعد بحاجة إليها . لقد عاوده شبابه . . ومرة أخرى عادت دماؤه تجرى حارة دافقة بالحياة فى عروقه !

واستجابت لطيفة لحبه ، فأحبته بدورها حباً صريحاً عارماً . او ليس هو بطل بلادها ومنقذها ؟ . . ولم يضيع هو وقتاً ، فغازلها غزله الضارى المباشر الذى ألفه . . واستكانت هى لعناقه فى نعومة ودلال ، لكنها لم تسلمه جسدها قط . . كانت دائماً تروغ منه فى الوقت المناسب تاركة إياه يتحرق شوقاً إليها ويسائل نفسه عن مدى حبها له ؟ . . وحاول أن يفرض عليها إرادته ، فلعب على وتر وطنيتها وعبادتها لبطولته ، مستخدماً معها كل أفانين الغرام التى علمته إياها تجاربه . . . ولكن بلا جدوى ! . . لقد

كانت خبرته بالنساء خاطئة !

كان قد عاش منذ يفاعته معيشة غير منتظمة ، وحتى حين انقضت ضراوة الشباب لم يطلق نزواته . . أما الحب فلم يكن مصطفى كمال يعرف عنه غير قليل من المعلومات النظرية المبهمة المستقاة من الكتب الغربية القليلة التي قرأها عنه . . . كان « شرقياً » فى نزعته على طول الخط ، وشرقياً قحًا مستبداً ! . . لكنه الآن بإزاء « شيء » آخر . . فتاة طيبة النشأة ، حرة النفس ، تعلمت فى الغرب وأشربت الأفكار الغربية فصارت قديرة على أن ترضى عقله وتصارعه وتسمو باهتمامه عن مطالب الجنس العابرة . . . قديرة على أن تكون له شريكة ومعينة . . ثم هى إلى ذلك ناعمة عطرة تستثير رغبته وتلهب دمه إلى حد الجنون ! . . ألا إنه قد فقد توازنه ، وبات يتقلب على نار وجمر . . فلأول مرة فى حياته أحب ! وهرع عائداً إلى البيت الذى فوق التل . . إلى لطيفة هانم ، وقد قرر ألا يصبر عليها أكثر مما صبر . . فليس ذلك التمنع من جانبها فيما يعتقد إلا من قبيل الدلال !

وبعد العشاء وقف مصطفى ولطيفة فى الشرفة العليا يطلان على التلال المشرفة على البحر ، والمقسمة إلى حدائق صغيرة مسورة بالصخور الغبراء ، وبين أشجار الزيتون والكروم بدأت أضواء نار المعسكرات والخيام تنير بقعاً من الظلام . . . وتحتها رقدت مدينة ازمير ، والحرائق المشتعلة فى الأحياء اليونانية تمتد وتتسع ، وتلعق ألسنتها الدور والمنازل واحداً بعد الآخر . . فالتفت مصطفى كمال إلى لطيفة وقال وهو يشير إلى النار : « إنها بشير بأن تركيا قد طهرت من الخونة والأجانب ، وصارت « تركيا للأتراك » ! . . ومن الحديقة تصاعدت نسمات دافئة حملت



لطيفة هانم

معها رائحة الليل . وأريج الورود والياسمين ، فجذب مصطفى لطيفة إلى صدره ، وقبلها . . غطى وجهها بالقبلات . . وكاد يحملها على ذراعيه إلى الداخل . . لكنها راغت من بين ذراعيه فجأة قائلة : « إنك لا تفهمني . إني أحبك . لكني لن أكون خليلتك . . تزوجني ، أكن لك ! »

يتأهب لأخطر قرار فى حياته !

انقضت أسابيع دون أن تتلقى لطيفه هانم أى كلمة أو نبأ عن مصطفى كمال ! وكانت قد أحبته إلى حد أنها ما كانت لتحجم عن أن تبذل له عينيها ، أو حتى حياتها ، كى تجنبه أدنى كدر ! . . لكنها قد تعلمت أن تنظر إلى الأمور نظرة محافظة ، رغم أنها تلقت دروسها فى إنجلترا وفرنسا ، ومن ثم رأت أن رجلها ينبغى أن يحترم ما يبغى امتلاكه . لقد احتفظت بشرفها كى تحتفظ بالرجل الذى أحبته . لكنها تتساءل الآن : هل أحسنت التصرف ؟ . . أم فقدت رجلها من حيث ارادته ؟ !

وإذ توالت الأيام دون ما كلمة من جانبه ، عاودت لطيفة هواياتها القديمة : دراسة القانون والأدب الفرنسى . . ومساعدة اللاجئين ، الذين هرعوا إلى ازمير بالألوف !

وانغمس مصطفى كمال فى العمل الشاق ، وقد أبعد من ذهنه ذكريات المنزل الواقع فوق تل (بورنوفو) . وعاد يلجأ للشراب لتهدئة أعصابه الثائرة ، واستبد به الأرق ! . . كان يواجه أزمة حربية تقتضيه أن يتخذ أهم قرار فى حياته : لقد تزود الجيش اليونانى المهزوم بإمدادات جديدة من أثينا وعاد ليتجمع فى (تراقيا) وراء القسطنطينية ! ولم يكن

لدى مصطفى كمال سفن حربية ، فكان عليه أن يطارد العدو بطريق البر . . ومن ثم أرسل قواته على عجل إلى الشمال ليحطمه قبل أن يستكمل أهبته . . وكان طريقها يخترق الدردنيل ، وهناك فى « شناق » التقت بجيش الاحتلال الإنجليزى الذى أبى أن يسمح لها بالمرور إلى أوربا ، ووقف حائلاً بينها وبين العدو . . !

وفى أنقرة كان مصطفى كمال منهمكاً فى وزن جميع الاحتمالات ، جرياً على عادته ، قبل أن يتخذ قراراً . . وكان يدرك أنه لو أمهل الأعداء حتى يكملوا استعدادهم فسيفقد الفرصة لدحرهم . . لكنه أدرك أيضاً أن جنوده وإن أثملتهم نشوة النصر مازالوا خائرى القوى تنقصهم الثياب والذخيرة والأسلحة الميكانيكية الحديثة ، بحيث لو أزمع الإنجليز مقاتلتهم حقاً لمنعهم من اللحاق باليونانيين لهزموهم شر هزيمة ، على الأقل بفضل خبرة ضباطهم وأسطولهم العظيم وطائراتهم . . ولكن هل يعتزم الإنجليز الإشتباك معهم حقاً ؟ أم أنه تهديد أجوف ؟ !

كان من رأى الفرنسيين والإيطاليين والروس أن الإنجليز إنما يهددون فقط ، وكانت صحف إنجلترا تحمل على لويد جورج لرغبته فى القتال . . على أن الأمر كان فى الواقع بيد القائد الإنجليزى لجيش الاحتلال « السير تشارلس هارنجتون » . . وتأرجحت كفتا الميزان : كان فى إحداهما الدكتاتور التركى المغوار بطل الأناضول ، الذى يتزعم شعباً أثملته نشوة النصر واعتزم أن يقاتل دفاعاً عن بلاده ووجوده . . وفى الكفة الأخرى القائد الإيرلندى المعسكر فى العاصمة ، غير الواثق من الأرض التى يقف عليها ، والذى يحارب — إذا حارب — لغير هدف سام أو مثل أعلى !

وكانت أخلاق القائدين تناسب الأدوار التى وضعت على عاتقيهما .

كان القائد التركى صلب العزيمة حديدى الإرادة ، يعرف هدفه ويعتزم أن يبلغه . . أو يحطم نفسه فى سبيل هـذه المحاولة ! . . وكان قد درس خصمه واطلع على كثير من البرقيات التى أرسلها إلى لندن والتقط نصوصها قلم المخابرات التركى ، كما تلقى خطابات منه وتقارير عنه كتبها المراقبون الأتراك فى العاصمة . . وأدرك من كل ذلك أن « هارنجتون » دبلوماسى أكثر منه جندياً ، ولا سيما فى الأزمات الحرجة التى تقتضى مغامرةومخاطرة. ومن هنا اعتزم مصطفى كمال أمراً ! كان بعض ناصحيه يريدونه أن يعقد الصلح فوراً ولا يعرض نفسه للهزيمة المحتملة ، فى حين طالبته الأكثرية فى عنف بأن يهجم توًّا فينحى الإنجليز جانباً ويطارد اليونانيين إلى أثينا ! . . لكنـه هو – بأعصابه الباردة وتقديره المتزن للأمور – تجنب كلا الحلين المتطرفين . . فرأى أن يحارب اليونانيين من غير أن يعرض نفسه للاشتباك مع الإنجليز ! . . ولما كان يعتقد أن « هارنجتون » سوف يضعف فى اللحظة الأخيرة ويسمح لجيوشه بالمرور . . فقد آثر أن يجس نبضه ، وأمر ألفين من فرسانه بالتقدم نحو الخطوط الإنجليزية ، فلما أوقفوا فى حزم وبدا الموقف متحرجاً ، لم يجد بدًّا من تجربة حظه بالإقدام على « خدعة حرب » قد تجدى مع خصم ضعيف العزيمة ، فأرسل مشاته نحو المدافع الإنجليزية مزودين بأمر بالتقدم وبنادقهم مخفوضة ، مع الحرص على إظهار الود والاحترام للسلطات الإنجليزية ، ثم مواصلة اختراق خطوطهم وجعل الدفاع عنها عسيراً . .

وكان الخطر عظيماً ، فإن طلقة واحدة خاطئة ، أو أمراً أسئ فهمه ، كفيل ببدء المعركة وتوريط تركيا فى حرب رسمية مع بريطانيا ! . . لكن الطلقة الخاطئة لم تنطلق ، فقد تحيرت القوات الإنجليزية ماذا تفعل ،

وكانت الأوامر التى لديها « مائعة » تقضى بمنع مرور الأتراك وفى الوقت نفسه بعدم إطلاق النار أو استخدام العنف ! . . وهؤلاء هم الأتراك يتقدمون دون أن يتوقفوا أو يقاتلوا ! . . وأضحى الموقف حرجاً ، واقترب الأتراك من الأسلاك الشائكة وبدأوا يخترقونها . . وفى هذه اللحظة جاءتهم فجأة أوامر من قيادتهم بالتوقف . . لقد بدأت المفاوضات لعقد هدنة !

كانت فرنسا قد خشيت أن يؤدى اشتباك تركيا مع إنجلترا فى القتال إلى نشوب حرب عالمية جديدة تنضم فيها روسيا الشيوعية إلى جانب تركيا . . فأرسلت مندوبها مسيو « فرانكلان بويون » لمفاوضة مصطفى كمال رأساً . وكان هذا على استعداد لأن يعد الغازى ، باسم الحلفاء واسم إنجلترا أيضاً ، بأى شىء يحول دون وقوع الحرب ، كأن يتعهد الحلفاء بأن يخلى اليونانيون (تراقيا) ويعيدوا تركيا الأوربية إلى الأتراك . . !

وتظاهر مصطفى كمال بأنه يقبل العرض كرماً منه ، فى حين كان ذلك أقصى ما تمناه وأراده ! . . إنه النصر الحاسم الذى يوفر عليه خسارة لا أقل من خمسين ألف جندى ، وأشهراً طويلة من القتال المرير ، ثم نتيجة غير مضمونة ! . . وهكذا فشل تهديد الإنجليز ونجحت خدعة الغازى !

وأمر مصطفى كمال قواته بالتوقف ، وأرسل عصمت ليقابل هارنجتون فى قرية « مودانيا » للاتفاق على التفصيلات . . وهناك وافق الحلفاء على طرد اليونانيين من (تراقيا) وجلائهم هم أنفسهم عن القسطنطينية وتركيا بأسرها ! وانتصر مصطفى كمال . كانت معركة صحراء « سقاريا » نقطة التحول فى حظه ، وكانت معركة ازمير نجاحاً كبيراً ، أما هذا فهو النصر الحقيقى ، نصره هو ! . . إن شجاعته وعزيمته وبراعته وصدق

تقديره ، هى كلها التى مكنت جيشه المهلهل الناقص التغذية والعدة والعتاد من أن يطرد اليونانيين من بلاده ويجبر الإمبراطورية البريطانية على التسليم له بالشروط التى طلبها ، ويخيف أوربا بأجمعها ! والآن آن له أن يملى شروط الصلح ، فى الداخل والخارج !

المرأة التى هزمته !

ما كادت تهدأ الأحوال ويخلص مصطفى كمال من شئون الحرب والجيش مؤقتاً ، حتى عاد إلى التفكير فى « لطيفة هانم » وفيما لقيه من تمنعها فى ذلك المنزل الذى تحيط به الحدائق فوق تل « بورنوفو » . . وكان الجو فى بيت مصطفى كمال فى « شان كايا » هادئاً . بعد أن غابت عنه « فكرية » . . لقد تعلقت به المسكينة وبكت واستعطفت حين أصر على أن تسافر إلى ميونيخ للعلاج ، لكنه لم يزد على أن طيب خاطرها بأن أعطاها مالاً كثيراً لتنفق منه فى رحلتها . وحينما بعثت إليه من هناك برسائلها ، لم يجب على واحدة منها ! . . لقد أراد أن يمحو هذه الصفحة من كتاب حياته ، وبرغم إيمانه بإخلاص فكرية له ، وبشدة رغبتها فى العودة ، لم يشأ أن تعود !

وكانت أمه قد غدت طريحة الفراش ، فراح يسائل نفسه : ترى كيف تستقبل لطيفة ؟ . . انها لم ترحب يوماً بفكرية وكانت تغار منها ، وتأبى أن تكون صلته بأية امرأة لا تقوم على الزواج ! . . وراح يقلب الأمر على وجوهه فى روية ، ويزن جميع الاحتمالات ، حتى إذا ما إنتهى إلى قرار عمل على تنفيذه بسرعة الصاعقة ! طلب أن تعد سيارته من غير

أن يخبر أحداً عن وجهته ، ثم اندفع ينهب أرض تركيا قاصداً ازمير ، ومنها إلى بورنوفو !

وكانت لطيفة فى حجرتها بالطابق العلوى ، فاندفع يصعد السلم قفزاً . . واقتحم غرفتها بغير استئذان ، ثم ضمها إلى صدره قائلا :

« سنتزوج الآن . . نعم سنتزوج الآن بلا إبطاء ، وبلا أى احتفال ! »

لبثت الفتاة برهة كالمأخوذة ، وقد أدهشها قدومه المفاجئ واقتراحه الغريب ! . . ثم طلبت إليه أن يمهلها بضع ساعات . . فقبل على مضض !

وبعد الفجر بقليل عاد يلح عليها أن تستعد للذهاب . . ثم دفعها إلى الطريق دفعاً ، واستوقف أول شيخ معمم كان فى طريقه إلى المسجد وأمره بأن يزوجهما فوراً . . فى الشارع !

ولم يخبر أحداً بما حدث ، بل سافر ولطيفة معه عبر الإقليم الذى دمرته الحروب ! وحين ظهرت إلى جانبه فى سيارته أثناء استعراض رسمى ، علم أصحابه وخلانه أن الغازى قد اتخذ لنفسه زوجة ! . . وعندئذ سخر بعضهم هازئين ، وتنبأ آخرون بأن الزواج لن يعمر طويلاً . . واستنتج فريق ثالث من زواجه هذا أنه يرغب فى أن يصبح ملكاً أو سلطاناً ويؤسس أسرة مالكة . . أما أمه وأهالى الريف التركى البسطاء فقد هللوا فرحاً وابتهاجاً بهذا الزواج .

* * *

الآن . . بلغ مصطفى كمال قمة مجده ، وحق له أن يقف مزهواً بنفسه ! لقد انتصر الأتراك ، وانزوى الأعداء – الإنجليز والفرنسيون

والإيطاليون واليونانيون – وراحوا يتشاجرون فيما بينهم ، وقد استحال تحالفهم إلى عداء ! . . أما شعوبهم فقد أرادت السلام بأى ثمن ، ولم تكن على استعداد لأن تضحى برجل واحد ، أو درهم واحد .

لكن مصطفى كمال أدرك أن سلاحه الأكبر فى مفاوضات الصلح القادمة لن يكون سوى جيشه المؤلف من مائة ألف جندى يرتدون الأسمال البالية ، يشد أزرهم تصميم الشعب على النصر أو القبر !

وصار مصطفى كمال يجاهر علناً بترديد الشروط التى تقبل تركيا الصلح على أساسها ، وكانت هى الشروط التى تضمنها الميثاق الوطنى القديم . . . أن تغدو تركيا دولة مستقلة ذات سيادة داخل نطاق حدودها الطبيعية ودون أى تدخل أجنبى !

ولو وجد فى مكانه رجل آخر صغير النفس لضاعف من مطالبه بعد الانتصارات التى أحرزها ! وبعد الحالة التى آلت إليها قوى الحلفاء ! وماذا يمنعه من الاسترسال فى الغزو والتوسع ، وهذه هى رسائل التهنئة وبرقيات المديح والهدايا من السيوف التى ترمز للنصر تنهال عليه من جميع الدول الإسلامية والغربية : من الهند ، وأفريقيا ، والملايو ، وأفغانستان ، وإيران ، والصين ، وروسيا ، وهنغاريا ، وغيرها ! والواقع أن انتصار مصطفى كمال أنعش آمال الأجناس الشرقية ، وزاد فى مخاوف الأجناس الغربية ، بحيث لم تكن تنشب أية اضطرابات عدائية نحو دول الغرب فى أى ركن من المعمورة إلا اتجهت الأنظار نحو هذا القائد الشرقى الذى هزم كل جبروت أوربا ! ورأت فيه شعوب الشرق بشيراً بخلاصها من ربقة « الرجل الأبيض » . وقد أمده السوفييت بتشجيعهم . . وعرضت عليه إيران وأفغانستان عقد معاهدات هجومية مع تركيا ، وطلب الهنود

والسوريون والمصريون عونه . ومن جميع الأنحاء انهالت عليه الدعوات كي يصبح بطل الشرق فى كفاحه ضد الغرب !

رفاهية الشعب خير من الإمبراطوريات !

ولكنه برغم إنتشائه بخمر المديح والملق ، وزهوه بنفسه على خشبة المسرح العالمى . . ظل كعهده محتفظاً باتزان أحكامه ، واضحاً فى أهدافه ومراميه ، لا يستسلم لوهم أو خيال ، ولا يجرى وراء سراب زائف .

لقد أدرك مصطفى كمال مدى ما يستطيع الأتراك أن يفعلوه ، فلم يطلق خياله ليجمح وراء أحلام الغزو الخارجى وتكوين الإمبراطوريات ، بل أقنع نفسه بأن الإمبراطورية العثمانية قد ماتت وانتهت ، وانه لخير للأتراك أنفسهم أن يتخلصوا من تلك الإمبراطورية التى امتصت النخاع من عظامهم ، وقتلت الملايين منهم – طيلة خمسة قرون – فوق تربة العراق وبلاد العرب وأفريقيا ! . . لقد استغل السلاطين الأتراك شعبهم فى غير فائدة لهذا الشعب ! . وإذن حسب تركيا ماقاست ، ولترقد تلك الإمبراطورية العثمانية إلى الأبد حيث انتهى بها المصير !

وكان جواب مصطفى كمال على بعض ممثلى دول الشرق الذين جاءوا ينشدون معونته : « نحن جميعاً نتمنى أن نرى إخواننا المسلمين يعيشون أحراراً . . لكننا لا نستطيع أن نمنحهم عوناً ، غير أمانينا الخالصة ! » . . وقال مخاطباً الجمعية الوطنية : « أنا لست مؤمناً بعصبة من جميع الدول الإسلامية ، ولا حتى بعصبة من الشعوب التركية ، ولكل منا أن يعتنق الرأى الذى يراه ، أما الحكومة فينبغى أن تلتزم سياسة ثابتة مرسومة ، مبنية على الحقائق ،

لها هدف واحد ، وواحد فقط : أن تحمى حياة الوطن واستقلاله داخل نطاق حدوده الطبيعية . فلا العاطفة ولا الأوهام ينبغي أن تؤثر فى سياستنا . . وسحقاً للأحلام والخيالات ، لقد كلفتنا غالياً فى الماضى ! » .

وكان موقفه تجاه « البلاشفة » أكثر وضوحاً ، فقد جاءه وفد من موسكو يرأسه القائد الأوكراني « فرونز » ، وأقام وزير أذربيجان مادبة عشاء تكريماً للوفد ، فوقف « فرونز » يتحدث عن نصرة البلاشفة للشعوب الشرقية المحكومة ضد شعوب الغرب الظالمة ، التى تضطهدها ، ثم ناشد تركيا أن تنضم إلى بلاده فى « معركة التحرير » . . وعندئذ وقف مصطفى كمال ليجيبه ، فقال فى كلمته المختصرة الحاسمة : « ليس هناك دول ظالمة ولا دول مظلومة . . وإنما هناك فقط أولئك الذين يسمحون لأنفسهم بأن يتحملوا الظلم .والأتراك ليسوا من هؤلاء ، فهم يستطيعون أن يحموا أنفسهم . . فليفعل الآخرون مثلهم ! » . . نعم ، إن الغازى لن يقود تركيا إلى حماقة من تلك الحماقات ، أو ينصب نفسه بطلاً للشرق معادياً للغرب ، وللإسلام ضد المسيحية ، أو للأجناس المضطهدة ضد مضطهديها ، ولكنه لن يكون إلا كما سبق أن حدد برنامجه بقوله : « ليس لنا إلا مبدأ واحد ، هو أن ننظر إلى جميع المشكلات بالعين التركية ، ونصون مصالح تركيا ! » .

لقد اعتزم أن يجعل تركيا ، داخل نطاق حدودها الطبيعية ، دولة صغيرة الرقعة ، ميسورة الحال ! لكنه فى نطاق هذه الحدود سوف يجعل نفسه السيد الآمر والحاكم المطلق ، فقد كان يؤمن أنه وحده القادر على أن يخلق تركيا الجديدة وينظم أمورها ويقودها إلى شاطئ النجاح والرفاهية !

وهكذا لم تكن كل هذه الانتصارات العسكرية وما تلاها من مظاهرات التأييد والإعجاب لتحجب عن عيني مصطفى كمال تلك الحقيقة الهامة

فى بلده وظروفه ، وهى أن جميع قواد الجيش – باستثناء عصمت وفوزى وبضعة أصدقاء آخرين – وجميع رجال السياسة فيها ينفرون من صيرورته رئيساً عليهم ! . بل ان كثيرين منهم يمقتونه أشد المقت ، ولا يتورعون عن الكيد له بعد أن هزم العدو الأجنبى وخلا الجو لدسائسهم !

وبالفعل استدعته الجمعية الوطنية مرتين إلى أنقرة كى تناقشه بصدد مؤتمر الصلح القادم . . وعلم هو أنهم لم يجعلوه الحاكم المطلق إلا ليواجه الأزمات العسكرية . لكنه كان مستعداً لمواجهتهم !

وقالت له « خالدة أديب » ذات مساء بأسلوبها الخاص الهادىء :

انك سوف تستريح بعد مؤتمر الصلح يا باشا ، فلقد جاهدت جهاداً شاقًّا ! » فأجابها بعنف وعيناه تومضان ببريق مخيف : « أستريح ؟ أية راحة ؟ إننا بعد أن خلصنا من اليونانيين سوف يقاتل بعضنا بعضا . أو سوف يأكل بعضنا بعضاً ! » .

وأرسل إلى أنقرة يعتذر بأنه لن يستطيع الذهاب ، لأن واجباته العسكرية تعوقه فى ازمير . وعندئذ لحق به « رؤوف » –رئيس الوزارة – ولفيف من رجال السياسة ، ليستطلعوا رأيه فيما ينبغى أن تكون عليه الحكومة فى تركيا الجديدة ، فليس معقولاً أن تكون لتركيا حكومتان : حكومة مؤقتة ذات سلطة مقرها أنقرة ، وأخرى رسمية « اسمية » فى العاصمة يرأسها السلطان ومجلس وزرائه ! واقترح بعضهم أن تندمج الحكومتان فى حكومة واحدة يصبح فيها السلطان ملكاً دستوريًّا ويصير مصطفى كمال رئيساً للوزارة . لكنه أخفى نواياه الحقيقية عن محدثيه فلم يصرح لهم بأنه لن يقنع بأن يكون رئيساً لوزارة تخضع « لسلطان » دستورى وإنما يرى أن تذهب السلطنة والخلافة وكل مخلفات الإمبراطورية العثمانية بذهاب الأعداء الأجانب من البلاد ، وتنشأ جمهورية يستطيع فى

ظلها أن ينصب نفسه حاكماً مطلقاً على البلاد . وعندئذ يكون فى استطاعته أن يصلح تركيا الإصلاح الكامل الشامل ! . .

لكن رؤوف توجس شراً من نوايا مصطفى كمال ، فظل يلح عليه بأسئلته ؛ وأخيراً وعده الغازى بأن يلقاه فى أنقرة ليطلعه على آرائه . . وفى أنقرة اجتمعا حول مائدة الشراب ، وكان معهما رفعت وعلى فؤاد ، أى الجماعة التى التأم شملها فى المؤتمر الأول فى « أماصيا » سنة ١٩١٩ ، يوم أن كان مصطفى فى حاجة إلى معاونتهم جميعاً . . لكنه اليوم غيره بالأمس ، فقد صح عزمه على أن يصل إلى أهدافه بأى ثمن وأى سلاح ، ومهما يطل به الانتظار فلن تأخذه شفقة على أحد ، أو توهن من عزيمته عاطفة ، أو يضعف من قراراته إخلاص لإنسان ! . . لكنه رأى أن عليه أن يتمهل فى خطاه ، فقد كانت المعارضة أقوى مما توقع ، وعليه أن ينتظر حتى تحين الفرصة الملائمة ، أو يخلق هو هذه الفرصة بنفسه !

وبعد مضى أسبوع على اجتماعه برؤوف فى منزل رفعت ، دعا الإنجليز السلطان كى يرسل وفداً إلى « لوزان » لبحث شروط الصلح ، ورجوا منه أن ينقل الدعوة أيضاً إلى الجمعية الوطنية فى أنقرة . . وكان ذلك خطأ جسيماً ! . . فقد تكهرب الجو عقب وصول هذه الدعوة ، وثارت فى أنحاء البلاد عاصفة من السخط ، إذ كان كل تركى صميم يكره « وحيد الدين » ويعتبره الخائن الذى مالأ الإنجليز واليونانيين فى حربهم لتدمير تركيا !

كان هو ولويدجورج عدوى الشعب التركى الحقيقيين اللذين يمقتهما مقتاً شديداً ! . . وانتقلت موجة السخط من أنقرة إلى القسطنطينية ذاتها ، فاعتدت الجماهير على أنصار السلطان القليلين ، وانتزع صحفى منهم يدعى « على كمال » من أكبر أندية المدينة فى وضح النهار ، تحت سمع بوليس



(أنقرة) عاصمة جمهورية تركيا ، كما تبدو اليوم ، مدينة عصرية جميلة . . بعد
أن كانت – منذ خمسين عاما فقط – بلدة صغيرة مليئة بالغبار . تتوسط هضبة الأناضول . .

الحلفاء وبصره . واقتيد إلى حيث رجم بالأحجار حتى مات ! ولم يعد يجرؤ أحد من حاشية السلطان أو خدمه أو وزرائه ، بل حتى رئيس الوزارة نفسه ، على الظهور فى الشوارع . . !

إلغاء السلطنة !

وفى أنقرة اجتمعت الجمعية الوطنية . فتصايح النواب ثائرين : ماذا فعلت حكومة العاصمة من أجل إنقاذ تركيا ؟ وأى حق لذلك العجوز الأحمق توفيق باشا رئيس وزرائها . فى توصيل الدعوة ؟ إنه وكل وزرائه كلاب عجزة خونة . يلعقون بصاق الضفدعة المدعوة سلطان إستانبول ! . . إن لتركيا حكومة واحدة فقط وتلك هى حكومة أنقرة ، هى الجمعية الوطنية التى تضم نواب البلاد !

وأدرك مصطفى كمال أنه — سواء حان الوقت المناسب أم لم يحن — ينبغى له أن يضرب ضربته فوراً ، وقد يستطيع إقناع النواب بخلع وحيد الدين وبإلغاء السلطنة . لكنه لا يجرؤ على مهاجمة الخلافة ، فذلك من شأنه أن يمس الشعور الدينى للشعب جميعه !

وفى وسط الضجيج الذى ساد قاعة المجلس . صعد مصطفى كمال إلى المنصة والتمس من النواب أن يصغوا إليه . ثم اقترح أن يفصل بين السلطنة والخلافة فتلغى السلطنة ويخلع وحيد الدين !

وعندئذ تنبه النواب من غمرة ضجيجهم ليتبينوا خطر القرار الذى يراد

منهم أن يصدروه ، فسكن هياجهم تدريجيا ، وبدأوا يتناقشون فى الأمر ! لكن مصطفى كمال وقد كشف عن نواياه لم يعد فى وسعه أن يتراجع أو يقبل الهزيمة ، ومن ثم طالب – يؤيده ثمانون من أتباعه – بأخذ الرأى على الاقتراح فوراً . لكن المجلس أحال الاقتراح إلى لجنة الشئون القانونية كى تبحثه !

وفى اليوم التالى اجتمعت اللجنة ، وكانت مؤلفة من عدد من المحامين ورجال الدين . . فقضت ساعات طويلة مملة فى بحث مسألة فصل السلطنة عن الخلافة ، واستشهد أعضاؤها فى بحثهم بنصوص القرآن والسنة ، ومئات الأمثلة المستمدة من تاريخ الخلفاء ، سواء فى بغداد أو القاهرة . . وفى ركن من القاعة جلس مصطفى كمال متنمراً كالوحش المفترس ، يشهد صامتاً مناقشاتهم وجدلهم حول تفسير الكلمات وتخريج النصوص . . وكانت اللجنة بأجمعها ضد اقتراحه ، وأدرك أنه سوف يخسر الجولة الأولى بسبب هذه المجادلات البيزنطية فى التوافه الصغيرة ، فبدأ حنقه يتفاقم ويهدد بالانفجار . ماذا ؟ أيليق به أن يجلس – وهو الغازى الفاتح – يوما كاملاً يتفرج على حفنة من الفقهاء يتلاعبون بالألفاظ وينفخون الحياة فى دستور ميت ؟ !

وفجأة فقد سيطرته على نفسه فنفر غاضباً واعتلى مقعداً ثم قطع مناقشات المجتمعين صائحاً : « أيها السادة ، لقد اغتصب السلطان العثمانى السيادة من الشعب بالقوة . . وبالقوة اعتزم الشعب أن يستردها منه . إن السلطنة يجب أن تفصل عن الخلافة وتلغى . . وسواء وافقتم أم لم توافقوا فسوف يحدث هذا . . كل ما فى الأمر أن بعض رؤوسكم سوف تسقط فى غضون ذلك » ! وكان يتكلم بسلطان الدكتاتور الذى يصدر أمراً واجب التنفيذ ، فوقف رئيس

اللجنة وقال : «أيها السادة . لقد أوضح الغازى المسألة لنا من وجهة نظر تخالف تلك التى كنا قد فهمناها » . . وفى عجلة يمليها الحرص على الفرار من وجه الخطر تكأكأ الأعضاء يتواصون بإحالة الاقتراح إلى الجمعية كى تصدر به قانوناً ! نعم إن السلطنة ينبغى أن تفصل عن الخلافة وتلغى ، ووحيد الدين يجب أن يخلع ! ثم جمع المشايخ أرديتهم حول أجسامهم وانطلقوا فارين من المكان قبل أن يثب الوحش الضارى عليهم !

والتأمت الجمعية الوطنية من فورها لتناقش الاقتراح ؛ وبدأت إجراءات أخـــذ الرأى عليه بالتصويت العلنى ، فتبين مصطفى كمال أن الاتجاه الغالب يميل إلى رفضه .. لكنه يجب أن يكسب المعركة بأى ثمن ! .. ومن ثم جمع أنصاره حوله وطلب أخذ الرأى عليه دفعة واحدة ، فاعترض بعض النواب مطالبين بأخذ الرأى بالمناداة بالاسم .. وأبى الغازى أن يوافق على هذه الفكرة . وكان أنصاره مسلحين ، وبعضهم قدير على أن يرتكب أى حماقة . إنهم قد يطلقون النار إذا طلب إليهم ذلك !

وصاح مصطفى كمال وفى صوته رنة التهديد ، بينما وضع أنصاره أيديهم على مسدساتهم : « أنا واثق من أن المجلس سيقبل الاقتراح بإجماع الآراء . ويكفى أخذ الأصوات برفع الأيدى ! » . . وعندئذ طرح رئيس الجمعية الاقتراح للتصويت ، وعينه لا تفارق مصطفى كمال ، فلم ترتفع غير أيدٍ قليلة ! .. لكن الرئيس أعلن النتيجة بقوله : « أقر المجلس الاقتراح بإجماع الآراء » .. فقفز نفر من النواب فوق مقاعدهم محتجين صائحين : « هذا غير صحيح .. نحن لم نوافق ! » .. فصاح بهم آخرون : « اجلس .. اسكت .. خنازير ! ».. وراح الفريقان يتبادلان أقذع الشتائم وألفاظ السباب .. !

وساد الهرج والمرج ، فأومأ الغازى إلى رئيس المجلس ، فعاد هذا يكرر

قراره صائحاً بأعلى صوته : « بإجماع الآراء قررت الجمعية الوطنية الكبرى لتركيا إلغاء السلطنة » ثم فض الجلسة .. فغادر مصطفى قاعة المجلس يحيط به أنصاره .. !

وتتابعت الأحداث بعد ذلك مسرعة .. فلم تمض خمسة أيام حتى استولى رفعت على مقاليد الأمور فى العاصمة بانقلاب مفاجئ ، تم تحت بصر الجنرال هارنجتون وسمعه ، وبمقتضاه ألغى حكومة السلطان !.. ولبث السلطان أياماً يتجاهل هذا الوضع ، ثم أرسل إلى هارنجتون رسالة حملها إليه الشخص الوحيد الذى بقى « وحيد الدين » واثقاً من نواياه ، وهو قائد جوقة الموسيقى بالقصر السلطانى !.. وكانت الرسالة شفوية ، فاه بها الرجل أمام الجنرال الإنجليزى وهو يرتجف رعباً : « إن السلطان يلتمس حماية القائد الإنجليزى والحكومة البريطانية ، فإن جلالته على ثقة من أن حياته معرضة للخطر ! » .

وبعد يومين وقفت سيارة إسعاف بريطانية أمام الباب الخلفى لقصر السلطان ، فخرج وحيد الدين ليستقلها ، يتبعه ابنه ، وخصى يحمل حقيبة صغيرة فى يده ، وحمال يحمل متاع جلالته .. وكان الفجر يرسل أضواءه الأولى والسماء تمطر رذاذاً خفيفاً ، فدلى مساعد السائق الإنجليزى سلم السيارة الخشبى من الخلف ، وإذ ذاك صعد عليه – يحمل مظلته فى يده – « آخر سلاطين آل عثمان ، إمبراطور جميع الأتراك ، السيد العظيم المرهوب من العالم بأسره » .. ثم انطلقت به السيارة إلى حيث استقل زورقاً بخارياً حمله بدوره إلى بارجة بريطانية كانت فى الميناء ، فاستقبله قبطانها بالاحترام اللائق .. وعلى أثر إعلان فرار « وحيد الدين » نودى بابن أخيه « عبد المجيد » خليفة للمسلمين .. خليفة فقط لا سلطاناً !.. خليفة مجرداً من كل سلطان ونفوذ !

خطة ذكية للسيطرة على الشعب !

انتصر مصطفى كمال على السلطان وحيد الدين. وأعانه على الانتصار مجده كقائد حربي ظافر ، وكراهية الجميع لذلك السلطان .. لكنه تعلم من الأحداث الأخيرة درساً مؤداه أنه لكي يحتفظ بسلطته ينبغي أن يقاتل عن كل شبر من الأرض ، كما يقول المثل ! .. فقد كان النواب – سواء من العسكريين أو رجال السياسة – يقفون ضده .. كان أكثرهم يخشون بأسه ويرتابون فيه ، وبعضهم يكرهه كراهية شخصية !

وكانت البلاد بعد إلغاء السلطنة بغير حاكم شرعي ، بحيث بات يتعين البت في شكل الحكومة الجديدة خلال أسابيع .. وكان الشعب بقلبه وعواطفه محافظاً . والجمعية الوطنية تميل إلى إنشاء ملكية دستورية ، على صورة من الصور .. وكان من عادة مصطفى كمال أن يعد عدته لكل خطوة في حذر ، حتى إذا ما حانت اللحظة المناسبة ضرب ضربته .. ولئن ساقته الحوادث إلى كشف نواياه ضد السلطان قبل أن يتأهب لذلك ، فإنه في هذه المرة ينبغي أن يدبر خطته في روية !

إن في وسعه أن يأتلف مع رؤوف ، لكن ذلك لن يؤدي – على أحسن الفروض – إلى أكثر من صيرورته رئيساً اسمياً لحكومة دستورية ، وهذا ما لا يطمع فيه ، إنه يطمع في أن يصير دكتاتوراً ! .. ولكن ، علام يعتمد في بلوغ غايته ؟ .. إن الجيش الذي يؤيده اليوم سوف ينسى انتصاراته وأمجاده غداً حين يتقادم به العهد في أحضان السلام والفقر ! ..وحفنة أنصاره من النواب المستعدين لتأييده بمسدساتهم ، لن يستطيع أن يرهب بهم الجمعية

والبلاد كل حين ! .. وإذن ينبغي أن يكون له سند غير القوة .. أن يخلق آلة سياسية محاربة يتخذها سلاحاً له !

وهنا فكر فى لجان المقاومة المحلية التى أنشأها فى الأقاليم بمعاونة رؤوف ورفعت سنة ١٩١٩ ، والتى كانت نواة المنظمات الشعبية للمجندين التى طردت الإنجليز واليونانيين من البلاد وقادتها إلى النصر .. ولما كانت هذه المنظمات التى يلتهب أفرادها وطنية وحماسة ذات صبغة عسكرية ، أى تخضع لأمره مباشرة . فقد قرر أن يحيلها إلى آلة حزبية منظمة تخضع لإشرافه وتصبح الحاكم الفعلى لتركيا .. وفى وسعه أن يطلق عليها « حزب الشعب » ، ويمنح كل لجنة منها سلطة اختيار عمدة القرية وواعظها وناظر مدرستها ومدير شرطتها وبريدها وكناس شوارعها .. ومن هنا ترتبط اللجان به ارتباطاً شخصياً بحيث ينعكس على كل منها نجاحه أو فشله !

وبعد أن أعد خطته قام بجولة فى الأقاليم ، استقبل خلالها فى كل مكان بالحفاوة والإكبار ، بوصفه « الغازى » ومحرر الوطن .. وجن الناس حماسة برؤية بطلهم المغوار . وخلال جولته جمع فى يده أعنة تلك المنظمات ، فكان أينما حل يدعوها إلى الاجتماع ، ويعامل أعضاءها باحترام ، ويصغى إلى آرائهم ومطالبهم .. ثم يقول لهم فى النهاية : « احتفظوا بمنظماتكم ، إن العدو الخارجى قد ذهب ، لكن الحرب لم تنته بعد ، فالبلاد مليئة بالخونة .. فقفوا فى صفى ، وأطيعونى .. وبذلك نستطيع أن نبنى معاً تركيا الجديدة ، وطنكم الذى استرددتموه بدمائكم ، حتى تغدو من مناعة الجانب بحيث تقاوم هجمات جميع أعدائها من الخارج أو الداخل . إنكم سوف تكونون « حزب الشعب » فضموا جميع الأتراك المخلصين إلى منظماتكم .. فأنتم الشعب ، وحزب الشعب ، الذين ينبغى أن تحكموا تركيا ! » .

وإذ ضمن مصطفى كمال التفاف هذا « الجيش » العظيم من القرويين حوله . وفرغ من إعادة تنظيم تلك اللجان وتعيين ممثليه فيها ، عاد إلى أنقرة ليواجه خصومه مطمئناً !

واستهل الغازى هجومه بعرض مرسوم يقضى بإلغاء حصانة النواب الشخصية من الاعتقال والمحاكمة .. ثم أتبعها برقابة صارمة على الصحف ، وأمر البوليس بمنع أى اجتماع أو خطاب عام !.. لكن النواب رفضوا مرسوم رفع الحصانة غاضبين . أما الرقابة على الصحف والاجتماعات فقد كان خارج نطاق نفوذهم أن يمنعوها ، إذ كانت حالة الحرب ما تزال قائمة . وشكل الحكومة الجديدة لم يتقرر بعد ، فكان مصطفى كمال ما يزال الحاكم الفعلى .. وقد أدرك النواب مغزى جولته فى الأقاليم ، ومدى ما يسعى إليه ، بل أدركوا أنه لن يتردد فى الانتقام من كل من يعارضه منهم فى أول فرصة تسنح له .. لكنهم كانوا فى الوقت نفسه عاجزين عن إيقافه عند حده !

على أنهم وجدوا لأنفسهم ثغرة أخرى ينفذون منها إليه . كان مصطفى كمال قد احتفظ فى يديه بكل الإجراءات الخاصة بمفاوضات مؤتمر الصلح ، وأرسل عصمت إلى المؤتمر – برغم احتجاج الكثيرين – ليمثل تركيا ، مزوداً بتعليماته الشخصية ، متجاهلاً فى ذلك كلاً من الوزارة والجمعية الوطنية .. وافتتح المؤتمر فى لوزان فى نوفمبر سنة ١٩٢٢ ، وسارت أموره فى البداية سيراً سيئاً ، فقد اختلف عصمت مع اللورد كرزون – ممثل الحلفاء – فى جميع شروط الصلح ، وبعد أن استمرت المشاجرات بينهما ثلاثة أشهر لم يصلا خلالها إلى تفاهم ، انفض المؤتمر فى فبراير سنة ١٩٢٣ بغير نتيجة ، وعاد عصمت إلى تركيا فهرع مصطفى كمال إلى لقائه فى (اسكى شهر) حيث عرف منه جميع الأنباء وعاد معه إلى أنقرة . وكان الغازى يعلق على



مصطفى كمال يخطب فى الجماهير التى احتشدت لسماعه . . داعياً إلى تأليف « حزب الشعب » ولجان المقاومة المحلية .

نجاح المؤتمر أهمية كبيرة ، فإن فشله كفيل بإفساد كل أثر لانتصاراته الحربية !
وفى محطة أنقرة فوجئ الاثنان بتخلف رؤوف رئيس الوزراء ونواب المدينة عن استقبالهما ، كما يقضى العرف بذلك .. فثارت ثائرة الغازى ، واستدعى رؤوف إليه وطلب منه إيضاحاً لمسلكه .. فأجابه رؤوف محتجاً على إرساله عصمت إلى المؤتمر بغير استشارة الوزارة وعلى إسراعه لمقابلته فى اسكى شهر بغير استشارتها أيضاً .. الأمر الذى يعتبره عملاً غير دستورى ! .. ثم أردف رؤوف احتجاجه بالاستقالة من رياسة الوزارة . ومنذ ذلك اليوم صار خصماً لدوداً لكل من عصمت ومصطفى كمال !

وتكتلت الجمعية الوطنية لتشد من أزر رؤوف ، فقضت تسعة أيام تناقش مسألة مؤتمر الصلح .. وأثناء المناقشة ندد النواب بقبول مصطفى كمال الهدنة مع الأعداء فى « مودانيا » ووصفوا الهدنة بأنها خدعة انطلت عليه ، فى حين كان ينبغى أن يتابع يومئذٍ زحفه إلى القسطنطينية ثم إلى أثينا إذا اقتضى الأمر ! .. ثم حمل النواب على عصمت حملة شعواء اتهموه فيها بالخرق والغباء فى مفاوضة كرزون ، وانتقدوا إرساله دون موافقتهم . ثم قرروا التصويت على تنحيته وإرسال خلف له يستأنف مفاوضات لوزان !

وهنا عمد مصطفى كمال إلى استخدام كل حيلة وسلاح فى جعبته للتأثير على النواب كى يصوتوا ضد القرار المقترح ، فقد كان عصمت رَجُلَهُ الذى يطيعه بلا مناقشة ، وكان هو حريصاً على عودته إلى لوزان وعلى أن ينجح فى مهمته فيها ! .. ومن ثمّ توسل بالوعد تارة ، وبالوعيد تارة أخرى ، وبتأليب النواب ضد رؤوف من جهة ثالثة ، حتى أحبط قرار تنحية عصمت ! وعاد عصمت إلى لوزان وفى عزمه أن ينجح فى مهمته بأى ثمن .. فإن فشل مفاوضات لوزان يعنى نهاية مصطفى كمال .. ونهايته هو !

التخطيط لإعلان الجمهورية

انهمك مصطفى كمال ليل نهار فى تنظيم حزب الشعب.ولم يكن لديه متسع من الوقت بينما الأزمة تقترب يوماً بعد يوم !.. وأدرك النواب بدورهم خطورة الخطة السياسية التى يدبرها الغازى للانفراد بالحكم ، فقرروا إحباطها بأى ثمن .. ومن ثم أرسلوا إليه وفداً يطلب إليه التنحى عن رياسة الحزب الجديد ، بحجة أن رئيس الدولة ينبغى أن يظل فوق الأحزاب !.. لكنه أجابهم بقوله : « لست أوافقكم على حجتكم ، فأنتم تتكلمون عن زعامة أحد الأحزاب السياسية ، وأنا أقول إنه ليس فى الدولة غير حزب سياسى واحد ؛ فالوحدة جوهرية لنا ، ولا يمكن أن توجد أحزاب أخرى تناوئنا.ويهمنى من وجهة الكرامة والشرف أن أظل زعيماً لهذا الحزب الوحيد — حزب الشعب — ورئيساً للدولة فى وقت واحد .. ! » .

وكان الجواب تحدياً للجمعية الوطنية ، فبدأت الأعصاب تثور .. وبدأ كثيرون من زملاء مصطفى كمال الذين وقفوا إلى جانبه فى أحلك الأيام خلال السنوات الأربع الماضية يتكتلون ضده ، بزعامة رؤوف !.. كان بينهم رحمى ، وعدنان ، وكاظم قره بكير ، ورفعت ، وعلى فؤاد ، ونور الدين .. ولم يبق فى صفه غير عصمت ، وفوزى ، وبعض أصدقائه الشخصيين ..

وتوالى انضمام النواب إلى رؤوف واحد فى أثر الآخر ، وأخذوا ينتقدون مصطفى كمال علانية !.. إنهم لن يقروا أن تحكم البلاد حكماً مطلقاً ، ولا سيما على يد مصطفى كمال ، ذلك المتهم الجبَّار صاحب الآراء الثورية الشاذة والوسائل غير اللائقة ! إن أحداً لن يأمن على نفسه فى ظل حكم رجل

مثله ، وكونه قد حقق لتركيا انتصارات عسكرية لا يبرر أن يغدو حاكمها المطلق أبد الدهر ! وتداعت الأكثرية التي كانت لمصطفى كمال فى الجمعية فى سرعة مخيفة ، فبادر إلى حلها وإجراء انتخابات جديدة ، آملاً أن يحصل على الأغلبية فيها بفضل معاونة حزبه الجديد .. لكن المجلس الذى أسفر عنه الانتخاب جاء مناهضاً له شأن المجلس القديم ، يأبي الانصياع لأوامره ، ويحدث ضجيجاً كلما خاطبه الغازى بلهجة ناظر المدرسة الذى يخاطب تلاميذه !

وبدا واضحا أن الأنتظار فى غير مصلحته ، وأنبأه أنصاره أن حزب الشعب يقوى بسرعة ، وأكد له فوزى أن الجيش كله يؤيده . . . وكان خصومه الرئيسيون غائبين عن أنقرة فى تلك الآونة ، وكان عصمت قد أحرز فى لوزان نجاحاً باهراً حصل بمقتضاه لتركيا على جميع مطالبها تقريباً ، وجلت آخر جيوش الاحتلال الإنجليزية عن العاصمة ، وذيولها بين سيقانها ، فلمع اسم مصطفى كمال مرة أخرى باعتباره القائد الظافر ، وحانت فرصته للبت فى أمر حكومة تركيا الجديدة قبل أن يزداد خصومه قوة . . فليعلن تأسيس « الجمهورية » ويدبر أمر انتخابه رئيساً لها ، وحاكماً شرعياً للبلاد ! . . لكن الجمعية الوطنية لن تنتخبه ما بقيت حريتها الكاملة . فليدبر إذن مؤامرة سياسية تحقق له هدفه . ليخلق أزمة ويستغلها . . ! وبادر فدعا الوزراء إلى مأدبة عشاء فى داره بضاحية « شان كايا » ، ناقشوا فيها الموقف السياسى من جميع نواحيه ، وبعد أن أفرط المدعوون فى الشراب اقترح عليهم مصطفى كمال أن يستقيلوا فى اليوم التالى من مناصبهم ويرفضوا العودة إليها ، كى يحرجوا الجمعية ويستردوا هيبتهم لديها ، بعد أن كثرت شكواهم من محاسبة النواب لهم مباشرة وانتقادهم

إياهم فى كل صغيرة وكبيرة . . حتى إذا ما أحست الجمعية بالمأزق الذى أوقعها فيه تماديها فى مسلكها ، قبل الوزراء آخر الأمر أن يعودوا إلى مناصبهم مرفوعى الرأس مرهوبى الجانب !

وفى اليوم التالى استقال الوزراء جميعاً تنفيذاً لاقتراح مصطفى كمال .. وانعقدت الجمعية الوطنية لتأليف حكومة جديدة ، لكن غياب زعماء المعارضة عن المدينة أحدث تفككاً فى صفوف النواب ، فكثر بينهم الجدل والشجار ، وراح كل منهم يعمل بوحى مصلحته الخاصة ، حتى أسفر الموقف عن فوضى تامة !

وبعد يومين أقام مصطفى كمال مأدبة عشاء أخرى لنفر من أصدقائه المخلصين ، بينهم عصمت وفتحى وكمال الدين ، وابتسم حين حدثوه عن مأزق الجمعية الوطنية ! . . إن خطته توشك أن تؤتى ثمارها ! ومن ثم استدار الغازى نحو ضيوفه فجأة قائلاً فى حزم : « لقد حان الوقت كى نضع حداً لهذه الفوضى . غداً سـوف نعلن قيام الجمهورية . فهى المخرج من كل هذه المصاعب . . فعليك أنت يا فتحى أن تعقد الأمور فى المجلس غداً بقدر ما يمكنك . فتؤلب الأعضاء ضد بعضهم البعض . . وعندئذ تقترح أنت يا كمال الدين أن أستدعى أنا لتولى زمام الأمور إنقاذاً للجمعية من مأزقها ! » .

وبعد إنصراف المدعوين عكف مصطفى كمال وعصمت على وضع صيغة قرار إعلان الجمهورية ، ففرغا منه قبيل الفجر !

وسارت الأمور وفقاً للخطة الموضوعة ، وفى اللحظة التى كان فيها النواب يتضاربون ويمسكون برقاب بعضهم البعض ، عرض كمال الدين اقتراحه بشأن استدعاء مصطفى كمال والاحتكام إليه لتشكيل الوزارة

الجديدة ، فقبل النواب الاقتراح مرحبين . إنهم فى غمرة شجارهم مع بعضهم البعض قد نسوا خصومتهم معه !

وكان مصطفى وقتئذ فى بيته ينتظر ما يسفر عنه عرض الاقتراح ، فلما استدعاه وفد من النواب أبى الاستجابة للدعوة فى المرة الأولى . . وحتى حين كتبت إليه الجمعية رسالة تحريرية تعلن فيها عجزها عن حل الأزمة الوزارية وتطلب معونته . أبى أن يتحرك . . لم ينهض لتلبية الدعوة إلا بعد أن اشترط أن تقبل الجمعية رأيه بلا مناقشة ! وحين صعد إلى المنصة ليواجه الجمعية ، بوجهه الأغبر الصارم وشخصيته الطاغية ، بدا النواب أمامه أشبه بالفيران الضئيلة وهم يتطلعون إليه صامتين ملهوفين . . ونطق أخيراً فقال :

« لقد أرسلتم فى طلبى كى أنقذ الموقف فى لحظة الحرج ، لكن هذا الحرج من صنعكم أنتم ، فليس منشأ هذه الأزمة أمر عابر ، بل خطأ أساسى فى نظام حكومتنا . . فالجمعية الوطنية تقوم بوظيفة السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية فى وقت واحد ، وكل نائب منكم يبغى أن يشترك فى إصدار كل قرار وزارى ، ويدس إصبعه فى كل إدارة حكومية وكل قرار لوزير ! . . أيها السادة ، ما من وزير يستطيع أن يضطلع بمسئوليته ويقبل المنصب فى مثل هذه الظروف . يجب أن تدركوا أن حكومة تقوم على هذه الأسس لهى حكومة يستحيل إيجادها . . وإذا وجدت لم تكن حكومة بل كانت فوضى ! . . ونحن يجب أن نغير هذا الوضع . . لذلك أقرر أن تصير تركيا جمهورية لها رئيس يختار بطريق الانتخاب ! »

وذهل النواب للقرار المفاجئ ، لكنهم كانوا قد وعدوا مصطفى كمال بأن يقبلوا حكمه بغير مناقشة . . فلم يبق فى وسعهم غير أن يذعنوا ! . . ومع أن أربعين فى المائة منهم لم يشتركوا فى التصويت ، فإن المرسوم الذى

أعده مصطفى كمال وعصمت بجعل تركيا جمهورية قد أقر ! . . وانتخب مصطفى كمال أول رئيس للجمهورية التركية ! وبهذا الانتخاب صار مصطفى كمال الحاكم الشرعى المطلق للبلاد ، أى صار يملك سلطة تعيين رئيس الوزارة والوزراء ، وصار فى الوقت نفسه رئيس مجلس الوزراء ، ورئيس الجمعية الوطنية ، ورئيس حزب الشعب ، الذى صار الآلة الحاكمة للبلاد . . وفوق ذلك كله كان مصطفى القائد العسكرى العام الذى يسيطر على الجيش والشعب معاً . . !

حرب الشائعات !

وهكذا تحققت لمصطفى كمال السلطة المطلقة التى طمع فيها ، وفى كل بلدة وقرية صار حزب الشعب – سلاحه السياسى – هو القوة المسيطرة على الأمور ، وكان الجيش خاضعاً لإشرافه المباشر ، وقبضته تهيمن على دولاب الدولة بأكمله . . لكن كفاحه الأكبر كان ما يزال ينتظره ! . . ولقد طالما أوضح لأصدقائه أنه يرى وجوب اقتلاع « سيطرة الدين » من تركيا .

لكن خصومه لم يعطوه فرصة للتمهل والانتظار . . لم يروا أن يدعوه حتى يعتدل فى جلسته فوق سرج جواده ، فقد كانوا زملاء له فى الماضى وعرفوا طبيعته جيداً ، فآمنوا بأنه لو استقر به المقام فوق ظهر الجواد فلن يتردد فى شنق أكثرهم أو نفيهم من البلاد ! . . ومن هنا عجلوا بنشر الشائعات فى أنحاء البلاد بما مؤداه أن مصطفى كمال يعتزم القضاء على الإسلام وطرد الخليفة !

وساعد على انتشار هذه الشائعات ما كان قد بدر من مصطفى كمال

أكثر من مرة خلال كفاحه ضد خصومه السياسيين من هنات تفصح عن ميوله ونياته المستورة ضد الخليفة الجديد « عبد المجيد » . . هذا فضلا عما كان معروفاً للملأ من إهماله للدين فى حياته الخاصة ، ومخالفته لكل قواعد اللياقة ، وسخريته من كل الأوضاع « المقدسة » . . وكان قد طرد « شيخ الإسلام » من مكتبه ! . . وأجبر نساء أنقره على نبذ الحجاب ، وخرجت زوجته سافرة ترتدى مثل ثياب الرجال ، وتحرض نساء أنقرة على المطالبة بمساواتهن بالجنس الآخر !

وذاع فى كل مكان أن حكام أنقرة الجدد كفرة ملاعين ، فصار الوعاظ والدراويش يندددون بهم فى المساجد والأسواق ، وخاصة بزعيمهم مصطفى كمال . . ووزعت النشرات والصور الكاريكاتورية التى تهاجمه أشد الهجوم . . وشجع خصومه هذه الفتنة وأرسلوا رسلهم يبثونها ويذكون نارها كلما وجدوا الفرصة ملائمة . . ثم غادروا أنقرة والتفوا حول الخليفة « عبد المجيد » فى القسطنطينية ينشدون الأمان فى حماه ، إذ لم يجل بخاطرهم أن الغازى يجرؤ يوماً على أن يمس الخليفة بسوء !

على أن عبد المجيد لم يكن بالماكر الذى يحسن تدبير الخطط . كان رجلا بسيطاً أمينا هادئاً وسيماً فى الخمسين من عمره ، درس الرسم وأحب كتبه وحديقته ، وعاش طول شبابه معيشة بسيطة فى قصره المشرف على البوسفور ، وحتى استانبول ذات الألسنة القذرة لم ترو عنه رواية واحدة غير نظيفة ! . . لكنه بعد فرار وحيد الدين وانتخابه خليفة ، اتخذ مقتضيات منصبه كواجب اسمى ، فأحيا تقاليد أسلافه العظام . . وبدلا من أن يركب عربة كسلفه الأخير صار يمتطى صهوة جواد أبيض — مثل محمد الفاتح — يعبر به « القرن الذهبى » إلى جامع أيا صوفيا ليصلى الجمعة ،

يتبعه حرسه من الفرسان وتحف به الجماهير المهللة ! . . وكان يستقبل فى قصره الزائرين والسفراء والمبعوثين ، بوقار الزعيم الدينى لمائة مليون مسلم .

على أنه وإن لم يكن يطوى صدره على مطامع خاصة فى مجال النفوذ السياسى . أخذ يجتذب إليه العناصر الساذجة فى تركيا ! وكان آخر من انضم إليه خصوم مصطفى كمال السياسيين – رؤوف وصحبه – الذين دبروا خطة ترمى إلى تنصيب عبد المجيد سلطاناً دستورياً ، واختيارهم هم وزراء له ! . . وهكذا وجد المسكين نفسه بالرغم منه ، محوراً وسلاحاً للمعارضة لمصطفى كمال وحكومة أنقرة !

احتجاج أغا خان ، عجّل بإلغاء الخلافة !

أدرك مصطفى كمال خطر الحركة الدينية « الملكية » التى تدبر ضده فى القسطنطينية ، حيث أكثرية الشعب تكرهه ، وحيث يلتف أقوى خصومه حول الخليفة ! . . وفى الوقت ذاته كانت الفتنة الدينية فى الأقاليم تتفاقم كل يوم ، والشعور ضده يزداد ، بحيث لو اتحدت هاتان القوتان وأحسن تنظيمهما لهزمتاه دون ريب !

وفيما هو يدبر موقفه حائراً ماذا يصنع . خدمه الحظ مرة أخرى . وأمدته إنجلترا بسلاح جديد ، فقد أرسل الزعيمان الهنديان « أغا خان » و « أمير على » خطاب احتجاج باسم مسلمى الهند يطالبان فيه باحترام مقام الخليفة العثمانى « خليفة المسلمين » . . فنشر نص الخطاب فى صحف القسطنطينية قبل أن يصل إلى حكومة أنقرة . وإذ ذاك وجد الغازى فى هذا فرصته المنشودة ، فراح ينبش تاريخ أغا خان حتى تبين أنه يعيش فى إنجلترا ، ويسير جياده

فى حلبات السباق الإنجليزية ، ويمشى فى ركاب الساسة والسفراء الإنجليز ، وأن الإنجليز قد أعلوا من قدره بدعايتهم الحاذقة خلال الحرب العالمية حتى صار ينظر إليه كزعيم مسلمى الهند ، كى يستخدموه لتهديد سلطان تركيا كلما اقتضى الأمر ! . . وإذن فهو صنيعة من صنائع الإنجليز !

ونشط مصطفى كمال فى الضرب على هذا الوتر وإثارة هياج الرأى العام التركى ضد الخليفة ، قائلاً : « إن إنجلترا – العدوة الماكرة اللدودة – حين فشلت فى القضاء على تركيا بواسطة اليونان عمدت إلى دسائسها المألوفة فاستخدمت صنيعتها أغا خان كى يظاهر الخليفة ويشطر الأتراك إلى معسكرين ! ».

وأثار الأمر ثائرة الجمعية الوطنية فتسابق الخطباء من النواب إلى شن حملة شعواء على الخلافة ورجال الدين وزعماء المعارضة ، ثم أقروا قانوناً يقضى باعتبار كل معارضة للجمهورية وكل ميل إلى السلطان المخلوع خيانة يعاقب عليها بالموت ! . . وحين تحدث بعض النواب عن فائدة الخلافة لتركيا من الوجهة الدبلوماسية أسكتهم الأكثرية بالصياح وضجيج الغضب والاحتجاج . . ثم واجه مصطفى كمال الجمعية قائلا : « أليس من أجل الخلافة والإسلام ورجال الدين ، قاتل القرويون الأتراك وماتوا طيلة خمسة قرون ؟ لقد آن أن تنظر تركيا إلى مصالحها وتتجاهل الهنود وغيرهم وتنقذ نفسها من تزعم الدول الإسلامية ! » .

وعلى هذا النمط نشر مصطفى كمال دعايته فى الأقاليم ، وحوكم محررو الصحف التى نشرت خطاب أغا خان ، وأذيعت تفصيلات المحاكمة بشتى وسائل النشر والإعلان ، بما يصورهم والخليفة فى مظهر الخونة وصنائع الإنجليز . . فماتت الفتنة الدينية فى مهدها وتعالت الأصوات تطالب

مصطفى كمال بإنقاذ تركيا ! . لكنه أراد أن يستوثق من تأييد الجيش له لو ألغى الخلافة وفصل الدين عن الدولة ، فذهب لحضور مناورات الجيش السنوية قرب ازمير ، وقضى أياماً يبحث الأمر مع فوزى وعصمت ويجس نبض صغار الضباط والجنود . . فلم يصل إلى نتيجة قاطعة يطمئن إليها ، ولبث يقلب الأمر على وجوهه بضع ليال . . . وفجأة قرر أن يضرب ضربته ، وأيقن أن الجيش سيؤازره ! وبمثل هذه السرعة انتقل من القول إلى الفعل . فاستحال غيظه المكبوت ثورة جامحة مدمرة . وقرر أن يبدأ بإرهاب خصومه أولاً . . فانتهز فرصة تهور أحد النواب المعارضين فى إحدى جلسات الجمعية وكلف شخصاً باغتياله فى الليلة نفسها أثناء عودته إلى بيته ! . . وألقى أحدهم خطبة أيد فيها الخليفة ، فهدده الغازى بالشنق إذا فتح فمه بمثلها مرة أخرى ! . . واستدعى رؤوف من القسطنطينية وأجبره على أن يقسم يمين الولاء له وللجمهورية أمام اللجنة الرئيسية لحزب الشعب ، مهدداً بطرده من الحزب والجمعية إذا لم يفعل ! . . وأرسل أمراً حازماً إلى حاكم استانبول بوجوب إلغاء مظاهر الأبهة التى تحيط بموكب الخليفة أثناء تأدية الصلاة ، كما خفض مرتبه إلى الحد الأدنى ، وأنذر أتباعه بوجوب التخلى عنه . . فإنه ينبغى ألا يبقى فى القسطنطينية رئيس دينى يتحدى حكومة أنقرة !

والتمس بعض المعتدلين من مصطفى كمال أن ينصب نفسه « خليفة » . . وجاء من الهند ومصر وفدان يكرران الرجاء . . وكان إغراء المنصب عظيماً لما ينطوى عليه من مكانة أدبية ودولية فى العالم بأسره . . لكن مصطفى كمال رفض الاقتراح بحركة توحى بنفاد الصبر ، وكانت عظمته تكمن فى معرفته حدود نفسه وبلده والتزامه أهدافه الواضحة المحددة من قبل !

والآن صار على تمام الأهبة لمواجهة الموقف ، فقد بات كل من الشعب والجيش والجمعية الوطنية فى حنق على العدو الأجنبي وحليفه « الخليفة » . . وبات خصوم مصطفى كمال مذهولين مذعورين من عنفه وإجراءاته الأخيرة . . وفى الثالث من شهر مارس سنة ١٩٢٤ تقدم الغازى إلى الجمعية بمرسوم يقضى بإلغاء الخلافة وطرد الخليفة وفصل الدين عن الدولة . . وخاطب النواب المنفعلين قائلا : « بأى ثمن يجب صون الجمهورية المهددة وجعلها تتقدم على أسس علمية متينة . . فالخليفة ومخلفات آل عثمان يجب أن يذهبوا ، والمحاكم الدينية العتيقة وقوانينها يجب أن تستبدل بها محاكم وقوانين عصرية ، ومدارس رجال الدين يجب أن تخلى مكانها لمدارس حكومية غير دينية ! » .

وأقرت الجمعية القانون بغير مناقشة ، فهدم مصطفى كمال فى ساعة واحدة كل أسس الدولة القديمة . . وفى الليلة ذاتها أرسل أمراً إلى حاكم إستانبول يقضى بأن يغادر الخليفة عبد المجيد تركيا قبل فجر اليوم التالى ، فذهب هذا تصحبه حامية من رجال البوليس والجيش إلى قصر الخليفة فى منتصف الليل ، وهناك أجبر الخليفة أن يستقل سيارة حملته عبر الحدود فى اتجاه سويسرا ، بعد أن زوده بحقيبة بها بعض الثياب وبضعة جنيهات ! . . وبعد يومين ، حشد مصطفى كمال جميع أمراء العهد القديم وأميراته ورحلوا إلى خارج البلاد . . !

وفى طول تركيا وعرضها لم يبد أى مظهر من مظاهر الاحتجاج أو المقاومة !

الحزن والمأساة . . يدخلان بيته !

لم يتح هذا الانتصار لمصطفى كمال كل السعادة التى كانينشدها ، أولعل منغصات حياته هى التى أفسدت عليه متعة بلوغ آماله. . فقد عاودته آلام كليتيه وصارت تهاجمه بلا انقطاع ، فيغالبها بالإفراط فى الخمر . . الأمر الذى زاد فى ثورة أعصابه ، وفى كآبة نفسه التى كانت تبلغ أحياناً حداً يفقده إيمانه بنفسه وبرسالته ! . . ولم يجد فى حياته الخاصة الشخص الذى يفضى إليه بذات نفسه ويفتح له قلبه ، فقد ماتت أمه بعد أن ساءت صحتها فى جو أنقرة القاسى فأخذتها لطيفة إلى ازمير لتبديل الهواء ، دون جدوى . أما لطيفة فقد عاش معها أشهراً بعد الزواج وكأنه فى الجنة . . لكن حبه الجنونى لها لم يلبث أن انطفأت جذوته ، فإن النساء عنده لم يخلقن إلا للمتعة العابرة . . وهكذا ضاق تدريجاً بحياة البيت الرتيبة ، وملازمة المرأة له ، واشتاق إلى ليالى العزوبة والحرية من القيود . . والرجل لا يستطيع مغالبة طبيعته طويلا ، وماضيه يترك طابعه فى نفسه كما يترك الجدرى آثاره فى الجسم ! . . وبرغم ما كانت عليه لطيفة من ثقافة وتحرر فى الفكر فإنها كانت تغار عليه كأية امرأة من نساء الحريم ، فلا تنفك تؤنبه على إفراطه فى الخمر وتطرد رفاق السوء من بيته . . ! وكان أهلها قد عادوا إلى أنقرة فطلبوا من الحقوق والامتيازات الخاصة ما أشعر مصطفى كمال بأنهم غدوا حملاً ثقيلاً عليه ، فطالبهم فى خشونة بأن يعودوا إلى ازمير من حيث أتوا ، الأمر الذى أحنق لطيفة عليه ! وبات الزوجان يتشاجران كل حين ، فتلوم لطيفة مصطفى كمال على أساليب حكمه الدكتاتورية وتصرفاته غير الدستورية ، وتنتقده فى السر والجهر ، بل تمالئ خصومه ! . . بينما يلومها

هو على تدخلها فى عمله وواجباته التى لا تعنيها . وكان كلاهما صلب الرأى قوى العزيمة والاعتداد بنفسه ، حاد اللسان يضيق بالنقد . . ولم يرزقا نسلا يلين العلاقة بينهما ويقوى رابطتهما . . فازداد شجارهما حتى ملأ البيت ضجيجاً . . وأخيراً قرر مصطفى كمال أن يتخلص من لطيفة . . فكتب وثيقة الطلاق ووقعها ، وأرسل رسالة قصيرة إلى الجمعية الوطنية والصحف والسفارات الأجنبية ينهى إليها النبأ فى إيجاز . . ثم أمر لطيفة بمغادرة البيت والبلدة من فورها ! وتغير أسلوب حياة مصطفى كمال من أساسه ، فكف عن الاختلاط بالشعب والتحدث إلى الناس فى الشوارع بحرية ، وصار متحفظاً منعزلا ، تتعذر مقابلته . ووقعت محاولتان لاغتياله : الأولى بالقنابل ، وقد فشلت تماماً . . والثانية بدس السم له فى الطعام ، وقد كادت تقتله ، فلم يعد إلى الحياة إلا بعد مجهود طبى شاق وآلام لا وصف لها ! . . وعلى أثر ذلك صار شديد الحذر والارتياب ، لا يخرج بغير حراسة قوية ، ولا يقترب من داره إنسان إلا بتصريح خاص ، ووضع حول الدار أنواراً كاشفة باهرة الضوء ، ولم يعد يقابل غير وزراء حكومته ونفر من أنصاره الكبار وأصفيائه الشخصيين . وبدأت العاصفة تنذر بالهبوب ، واهتزت الأرض تحت قدميه ! . .

صار الشعب يضج بالسخط ، بحيث اضطر عصمت وفوزى وأنصاره الخلصاء إلى تحذيره من الخطر الزاحف . كان الفقر يعم كل مكان ، والأيام الذهبية التى وعد الشعب بها بعد طرد الأعداء قد تمخضت عن أيام أسوأ من أيام السلطان عبد الحميد ذاته ! . . فقد عز الطعام ، وتفاقم الغلاء ، وشحت النقود ، بل شحت البضائع الضرورية واختفت من الأسواق ، وثقلت الضرائب ، وازداد جشع جباتها ، وجند الشباب

جميعاً فى الجيش برغم انتهاء الحرب ، فانهارت البيوت والمزارع على أصحابها ، وماتت الماشية لقلة العلف ، وأتلف الجدب أكثر الحاصلات الزراعية . . وصارت الحياة عبثاً لا يطاق بعد أن بلغت الفاقة والعوز حداً لم يسمع بمثله من قبل ! والواقع أن ذلك كله كان رد الفعل المحتوم بعد الحرب الرهيبة التى استنزفت موارد البلاد . . لكن خصوم مصطفى كمال من الساسة ورجال الدين أحسنوا استغلاله ، فأذكوا لهب السخط واستثاروا غضب الجماهير قائلين : « إن البشر لا يستطيعون أن يعيشوا على الانتصارات الحربية القديمة ، أو الإصلاحات والنظم الجديدة ، وإنما لا بد لحياتهم من الخبز والماشية والرى لحقولهم ، والمال لملء حوانيتهم بالبضاعة . . وهذه الحكومة ذات النظريات الملحدة والتغييرات الشاملة هى سبب فاقة الشعب وعوزه ! » .

وتفاقم التذمر والسخط ، وانتعش خصوم الغازى من الساسة والنواب فاستردوا جرأتهم على النقد والمهاجمة . وكان أول من هاجموه « عصمت » الذى احتفظ برياسة الوزارة منذ عاد من لوزان ، ثم انتقل الهجوم إلى زعيمه مصطفى كمال ، فتقدم بعض النواب فى الجمعية الوطنية باستجواب عن « مالية الدولة التى باتت فى حالة اضطراب وفوضى إجرامية » ! . . وتتابع الخطباء منددين بسوء الحالة الاقتصادية بسبب تصرفات عصمت . ومطالبين بإقصائه فوراً ! ومع أن عصمت لم تكن له دراية كافية بالمسائل الاقتصادية . . فقد أصر على أن يتولى وزارة المالية . ويناقش أمورها مع مرؤوسيه . وكان إخراج اليونانيين والأرمن من الوزارة قد حرم البلاد من كفاءاتهم الاقتصادية الممتازة ، ولم يفعل عصمت شيئاً لتعويض الوزارة عنها باستدعاء الخبراء الأجانب أو إرسال الأتراك فى بعثات إلى الخارج . . . !

وازدادت المعارضة جرأة وقويت شوكتها ، وصار زعماؤها يجتمعون فى القسطنطينية برياسة رؤوف ، وألفوا حزباً جديداً اسمه « التقدميون الجمهوريون » ، وانضم إليهم كثيرون من ألصق أنصار مصطفى كمال . وأعلن برنامج الحزب فإذا هو ينص على أن تكون الحكومة دستورية . وعلى مقاومة كل حكم مطلق ! . .

جريمة « عثمان أغا » أسقطت الوزارة !

وفى أثناء ذلك بقى مصطفى كمال فى « شان كايا » لا يحرك ساكناً . . بينما ازداد غليان الأعصاب فى أنقرة ، فى أوساط الساسة والنواب ، ولا سيما أن أنقرة لم تكن وقتئذ أكثر من قرية صغيرة خالية من وسائل التسلية واللهو والراحة والترف ، فكانت تسلية الناس الوحيدة أن يلتقوا ويتحدثوا فى السياسة ويتشاجروا فى شأنها فى الشوارع والمقاهى المتواضعة والفنادق الحقيرة ! . . بل إن الجمعية الوطنية ذاتها شهدت الكثير من المشاجرات العنيفة التى لوح فيها بالمسدسات . وهاجم أحدهم — ويدعى الكولونيل خليل — رئيس الوزراء عصمت أثناء المناقشة ، فقتله أحد أنصار الغازى برصاصة أطلقها على بطنه فى حرم المجلس ! . . ولم يجرؤ البوليس على اعتقال القاتل ! . . ثم حمل نائب آخر يدعى على شكرى على مصطفى كمال ، فقرر « عثمان أغا » رئيس حرس الغازى أن يتخلص من النائب السليط اللسان . فتودد إليه ثم دعاه إلى العشاء فى دار الحرس فى « شايا كايا » وهناك خنقه بمساعدة أعوانه وألقى جثته فى العراء . . فلما اكتشفت الجثة ثارت أنقرة بأسرها اشمئزازاً واحتجاجاً ، وطالبت الجمعية

بالقبض على عثمان أغا . . وطالب أعوانه بدورهم بحماية الغازى لهم . بحجة أنه الذى أمر بالقتل . . فتردد مصطفى كمال برهة ثم تخلى عن حماية عثمان . لكن هذا تحصن فى دار الحرس فى وجه قوات البوليس . وثار رجال الحرس وحاولوا اختطاف مصطفى كمال . لولا أن استطاع الفرار فى سيارة من الباب الخلفى والتجأ مع رؤوف إلى منزل الأخير بالقرب من المحطة . . ونشبت معركة بين رجال الحرس وقوات الجيش التى استدعيت إلى شان كاي انتهت بقتل عثمان أغا وتشتيت شمل أعوانه . لكن تفصيلات القصة ذاعت فى أنحاء تركيا فجلبت على مصطفى كمال سخط الناس . وأقسمت عشيرة عثمان أغا أن تثأر لفقيدها من الغازى الذى غدر به . . ! وازاء تحرج الأمور على هذا النحو . لم يجد الغازى بدا من إقالة « عصمت » . . وأسند رياسة الوزارة إلى فتحى ، وكان هذا محبوبا من الرأى العام . . لكن المعارضة اعتبرت هذه المهادنة انتصاراً لها فأمعنت فى مهاجمة مصطفى كمال بغية التخلص منه واقتسام النفوذ بين أقطابها .. وبدأ أنصاره ينفضون عنه وينضمون إلى رؤوف . بل ان إحدى صديقاته آمنت بأفول نجمه فحزمت حقائبها وعادت إلى القسطنطينية !

ولم يعد الغازى يطمئن إلى تأييد الجيش له ! . وفى الأقاليم الشرقية شن رجال الدين عليه حرباً دينية . . وأرسلت إنجلترا إنذاراً بشأن امتلاك « الموصل » زعزع سمعته السياسية !

وفى أثناء ذلك كله بقى هو فى « شان كايا » متعباً مريضاً كسير النفس ، يغرق همه فى الخمر ! . . وأيقن خصومه أنه قد انتهى . . ولكن فجأة ثارت قبائل الأكراد التى تستوطن الجبال المجاورة للحدود الإيرانية ، وارتفعت صيحتها المدوية : « تسقط جمهورية أنقرة ويحيا السلطان والخليفة ! »

ثم زحفت جحافلها الضارية نحو أنقرة تبغى « إنقاذ الإسلام » . . فاجتاحت فى خلال شهرين مقاطعات « خربوط » و « مأمورية العزيز » وباتت تهدد « ديار بكر » ، بل تهدد الوطن التركى بأكمله ! وعندئذ نفض مصطفى كمال عنه غبار الخمول واليأس والفتور . . وبعثت فى عروقه حيويته القديمة الكامنة . وصاح بالشعب : « إن تركيا فى خطر . فالعدو الأجنبى الأصيل – إنجلترا – يظاهر الأكراد ، ويمدهم بالمال والسلاح ! » وهب كل تركى ليمتشق السلاح ، وصهرت وطنية الشعب كل الخلافات السياسية والمقاومة الدينية . وانهالت على الغازى من كل أنحاء تركيا ومختلف طبقاتها برقيات الولاء والتطوع بتقديم العون المطلوب ، فإن تركيا فى خطر . . والغازى وحده هو الذى يستطيع أن ينقذها !

ومرة أخرى برزت مواهب مصطفى كمال ، فى السيطرة والإشراف والإدارة ، وقاد جيوشه إلى الإمام ، فلم ينقض شهران حتى كان قد أخمد الثورة بغير رحمة ، فباتت كردستان كلها طعماً للنار والسيف : أحرقت قراها ، وعذب رجالها وقتلوا ، وأتلفت محاصيلها ، واغتصبت نساؤها ، وقتل أطفالها . . بمثل القسوة الفظيعة التى ذبح بها أتراك السلطان فى الماضى أعداءهم اليونان والأرمن والبلغار . . وأرسل مصطفى كمال محاكم عسكرية خاصة أطلق عليها « محاكم الاستقلال » تولت محاكمة الألوف من الأكراد فحكمت عليهم بالشنق أو النفى أو السجن . . كما عُذِّب كثيرون ، وشنق ستة وأربعون من رؤساء القبائل فى ديار بكر ، كان آخرهم « الشيخ سعيد » زعيم الثورة ومحرك الفتنة !

بقى على مصطفى كمال أن يواجه خصومه السياسيين ويثأر لنفسه منهم ، ولم يكن من طبعه الصفح عن الإساءة أو نسيانها . فدعا الجمعية الوطنية

إلى الانعقاد ووقف فى النواب خطيباً ، فظل يتلاعب بمشاعرهم حتى صفقوا له جميعاً مؤيدين . . اتهم زعماء المعارضة ، ولا سيا رؤوف والقواد العسكريين الأربعة ، بأنهم ساهموا فى تحريك ثورة الأكراد ، وقدم دليلاً على اتهامه خطاباً موجهاً من كاظم قرة بكير إلى الشيخ سعيد ، وهو خطاب وإن لم يتضمن شيئاً ذا بال إلا أنه يفضح الاتصالات الخفية بين الطرفين ! . .

ثم اتهم إنجلترا بأنها المحركة الأولى لثورة الأكراد ، طمعاً فى الوصول إلى بترول الموصل وبترول العراق . وأضاف أن زعماء المعارضة انضموا إلى الثوار سعياً إلى تحطيم الجمهورية وتدمير وطنهم . . فهم إذن خونة يستحقون العقاب . ولئن كان الأكراد قد هزموا فإن تركيا ما تزال فى خطر . . فالخطر يأتى من الداخل ، والدولة يجب أن تطهر !

فرار زعماء المعارضة !

وأفلح مصطفى كمال فى إثارة ثائرة النواب ، وأطلق حماستهم من عقالها ، فهبوا يطالبون برؤوس « الخونة » ، وهاجموا دار حزب المعارضة ، لكن زعماءه : رؤوف ورحمى وعدنان وخالدة أديب كانوا قد فروا من البلاد .

وبناء على طلب مصطفى كمال أقرت الجمعية الوطنية وقف الدستور وتخويل الغازى سلطة كاملة لإنقاذ البلاد . . وألغيت حصانة النواب ضد الاعتقال ، وفرضت الرقابة الصارمة على الصحف .

صار أى إجراء أو نقد شفوى للحكومة يعد خيانة عظمى تعاقب عليها « محاكم الاستقلال » بالموت فوراً ! . . وقرر الغازى وجوب محاكمة زعماء المعارضة ، لكن فتحى – رئيس الوزارة – والوزراء وكثيرين من

أنصاره عارضوا رأيه ، مؤثرين الاكتفاء بمهاجمتهم سياسياً ، تقديراً لماضيهم الوطني الناصع . فعقد الغازى اللجنة المركزية لحزب الشعب ، لأخذ رأيها . . لكن الآراء انقسمت وثار نزاع استخدمت فيه المسدسات . . فخشى مصطفى كمال مغبة إحداث انقسام فى صفوف أنصاره وأرجأ انتقامه من خصومه إلى فرصة أخرى . . لكنه لم يجد بداً من إقصاء فتحى عن الوزارة وإعادة . . عصمت !

على أن زعماء المعارضة وإن أفلتوا من العقاب هذه المرة ، فإن أتباعهم يجب أن يدفعوا ثمن معارضتهم . . ومن ثم أرسل « محاكم الاستقلال » إلى حيث تنشر فى الأقاليم عهد إرهاب دموى ، فتحاكم المعارضين وترسلهم إلى المشنقة من أجل أتفه الانتقادات . . وحين كان القضاة يظهرون تردداً أو ضعفاً كان الغازى يهددهم بأقسى عقاب !

لكنه لم يصرف النظر عن اصطياد خصومه من الزعماء فى أقرب فرصة ؛ فقد كان مؤمناً بأن نهوض تركيا الجديدة رسالة فى عنقه ، وبأن الإيقاع به قضاء على فرصة تركيا لبلوغ قمة مجدها ، ولا وسيلة يأمن معها شر خصومه غير أن يوقع بهم قبل أن يوقعوا به ، ولا سيما أن عدداً من الجمعيات السرية قد أنشئ فى جميع المدن الكبرى خلال الأشهر الأخيرة ، وأعيد تنظيم فروع جمعية « الاتحاد والترقى » القديمة ، وبدأت تنشط للعمل .

وهكذا تظاهر الغازى بأنه قد عدل عن فكرة محاكمة خصومه ، فعاد إلى « شان كايا » وهو يخفى نواياه وراء قناع وجهه الأغبر . . وهناك راح يعمل سراً ويدبر الخطط ببراعته المعهودة فى التآمر ، التى كسبها من عضويته القديمة فى جمعية « الوطن » ، وقدرته على انتظار اللحظة المناسبة !

وفى أثناء ذلك نشر فى أنحاء البلاد شبكة واسعة من الجواسيس ورجال

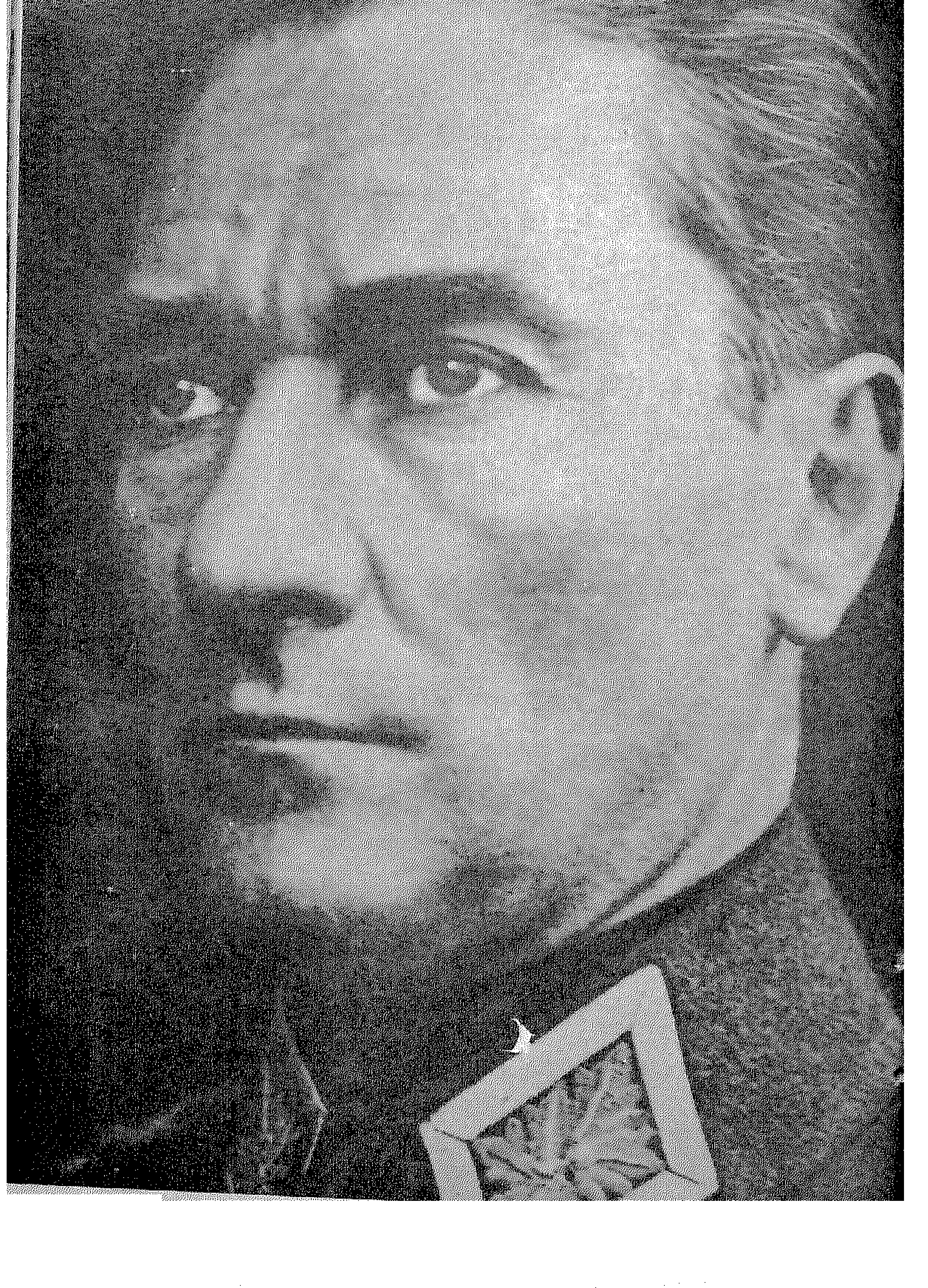
البوليس السرى مهمتهم اصطياد الأدلة التى تثبت على الخصوم تهمة التآمر والخيانة . .

وحانت فرصة أخيرة قبيل موعد زيارته الرسمية لمدينة « ازمير » بيومين ، فقد ألقى البوليس القبض على ثلاثة أشخاص كانوا قد أعدوا قنابل لإلقائها من إحدى النوافذ على الغازى أثناء مرور موكبه فى شوارع المدينة . . كما وجد خطاب يفضح صلة المتآمرين بنائب معارض يدعى « سعيد خورشيد » . وعندئذ ضرب مصطفى كمال ضربته ، فألقى القبض على جميع زعماء المعارضة فى البلاد ، وأقام « محكمة الإستقلال » لمحاكمتهم فوراً ، بعد أن كلف رجال الأمن العام بجمع الأدلة التى تثبت التهمة على خصومه الرئيسيين ، ولا سيما الباشوات الأربعة العسكريين ، وعصابة « أنور » من أعضاء « الاتحاد والترقى » القدماء .

وعقدت المحكمة جلساتها الأولى فى ازمير ، لمحاكمة المقبوض عليهم من رجال الطبقة التالية للزعماء الكبار ، فأصدرت حكمها عليهم جميعاً بالشنق ، بغير مراعاة لقواعد المرافعات والإثبات المقررة فى القانون . . وأرسلت الأحكام إلى مصطفى كمال فى بيته للتوقيع عليها ! وكان بينها الحكم بإعدام « عارف » ، صفى الغازى القديم الذى كان قد اختلف معه فى المدة الأخيرة وانضم إلى معارضيه . . ويقرر شاهد عيان أن عضلة واحدة لم تختلج فى وجه مصطفى كمال وهو يضع سيجارته جانباً ويوقع على الحكم بالموت على ذلك الصديق القديم الحميم ! . ثم ينتقل إلى توقيع الحكم على غيره ، كما يوقع على أية ورقة عادية من أوراق الروتين الحكومى اليومى ، من غير أن يسمح للذكريات أو العواطف بأن تلين عزيمته !

ثم جاء دور محاكمة « الكبار » فى أنقرة ، فحشدوا جميعاً – عدا الذين

فروا من البلاد – فى قفص الاتهام . . وألفت المحكمة من ثلاثة قضاة من جماعـة الفدائيين أتباع الغازى ، يرأسهم من يدعى « بالدعلى » ، وكان يتباهى بأنه قد حكم بالشنق على عدد من الأتراك يفوق العدد الذى حكم عليه أى تركى منذ عهد السلطان محمود الثاني ! وكان « بالدعلى » هذا قد تلقى أمراً من مصطفى كمال بأن يحكم على المتهمين جميعاً بالادانة – أيًّا كان دفاعهم – فأدار المحاكمة بطريقة لم تسمح للمتهمين بالدفاع عن أنفسهم . وأظهرت المحاكمة مصطفى كمال فى دور البطل الوطنى العظيم ، بينما لطخت بالأوحال سمعة الباشوات العسكريين الأربعة بحيث كتبت نهايتهم السياسية فى اعتبار الرأى العام . . وعندئذ أطلق سراحهم ، إظهاراً لنبل الغازى وكريم عفوه ! . . أما الباقون من المتهمين فقد حكم عليهم « بالد على » بالموت ، وعلى شفتيه ابتسامته المألوفة ! وفى أثناء المحاكمة بذلت الحكومات الأجنبية والبيوت المالية الأوربية الكبرى ، والصحف العالمية ، جهوداً جبارة لإنقاذ أحد المتهمين من اليهود ، وهو « يافيد » وزير مالية تركيا فى عهد « أنور » . . . لكن هذه الجهود لم تزد الغازى إلا إصراراً على رأيه . . فلما حمل إليه « بالد على » أحكام إعدامهم ليوقع عليها ، بادر إلى ذلك فوراً ، وأمر بتنفيذ الإعدام فى الليلة ذاتها ! . . بل رأى – إمعاناً فى الانتقام – أن يحتفل بهذه المناسبة بإقامة حفلة راقصة رسمية بقصره فى (شان كايا) فى الليلة نفسها ! على أن يدعى إليها بالتليفون بأقصى سرعة جميع البارزين فى العاصمة من الأتراك والسفراء الأجانب والوزراء والقضاة وأجمل سيدات أنقرة ! . .



الغازى مصطفى كمال أتاتورك ، رئيس الجمهورية .

هدم . . وبناء !

صار مصطفى كمال هو الحاكم بأمره فى أنحاء البلاد ، بعد أن تخلص من معارضيه جميعاً واستكان الشعب التركى لحكمه . . وتركزت كل سلطات الدولة فى يديه ، وبات حزب الشعب الذى يرأسه هو الآلة المهيمنة على الحكومة ، بحيث صار محتوماً على كل ذى منصب حكومى ، من أصغر موظف فى أصغر قرية إلى رئيس الوزارة ، أن يكون عضواً فيه . كانت لجان الحزب الأقليمية بمثابة فروع محلية للحكومة ، تنفذ أوامر اللجنة المركزية العليا وتطلعها على كل صغيرة وكبيرة فى أنحاء البلاد ، وتدين بالطاعة العمياء لمصطفى كمال ، طبقاً للأسس العسكرية التى نظمت بمقتضاها . . وكان الغازى يختار منها وزراءه ، الذين كانوا موظفين دائمين أكثر منهم وزراء ، بسبب انعدام أحزاب المعارضة !

وصارت انتخابات الجمعية الوطنية إنتخابات « اسمية » ، إذ لم يكن يسمح لأحد بمنافسة مرشحى الحكومة الذين ينتقيهم مصطفى كمال من أعضاء حزبه ولجانه . . وكان النائب يلتزم الطاعة المطلقة لرغبات الغازى عند التصويت على مشروعات القوانين . . وإذا اجترأ شخص ، سواء أكان نائباً أم شرطياً فى إحدى القرى ، على أية مخالفة أو عصيان فسرعان ما يفصل فوراً من الحزب ، فيفقد تبعاً لذلك عمله ويتعذر عليه أن يجد عملاً آخر ، ولو أدى الأمر إلى موته جوعاً ! . . وهكذا صار الحزب أشبه بجيش احتلال ، يشرف على إدارة شؤون البلاد !

وكان مصطفى كمال يستعين فى حكمه بثلاثة أشخاص ، يجتمعون به كل ليلة فى منزله فينهون إليه الأنباء ويتلقون أوامره : عصمت ، الذى كان

يختص بشؤون الحكومة والجمعية الوطنية . . وفوزى ، الذى اختص بشؤون الجيش . . ثم « ظيا صفت » السكرتير العام لحزب الشعب ، وهو يهودى قدير حاضر البديهة كان يسرد على مسامعه أنباء اليوم الهامة وشؤون الحزب . . وكان الثلاثة يستلهمون فى أعمالهم رئيسهم الوافر النشاط ، الذى جمع بين رياسة الجمهورية ، ورياسة الجمعية الوطنية ، ورياسة حزب الشعب ، ورياسة مجلس الوزراء ، ثم القيادة العليا للجيش !

وكان مصطفى كمال يباشر مهام مناصبه بتعصب المؤمن بنفسه وبرسالته . وكانت رسالتـه أن يخلق من تركيا دولة متمدينة غنية رفيعة الشأن . تأخذ بأفضل ما فى الحضارات الأخرى ، إلى جانب الاحتفاظ بالصالح من حضارتها الخاصة . وأدرك أنه لكى ينجح فى مهمته عليه أن يستنهض همم الشعب نفسه ، ويدربه ويقوده ، بروح المستبد المصلح ، أو ناظر المدرسة مع تلاميذه الصغار ، البسطاء الأغرار ، الذين هم أشبه بالمادة الخام التى تصاغ حسب طلب صائغها ! . . ومثل ناظر المدرسة ، كان إذا لم يفلح فى الإقناع عمد إلى استخدام القوة . مؤمناً بأنها لخير تلاميذه ! وجعل همه الأول أن يكمل الهدم قبل أن يشرع فى البناء ، كى يطهر تركيا من أدران الماضى الفاسد تماماً . . لقد مزق الكيان السياسى للدولة بأكمله ، فحول المملكة إلى جمهورية ، وفصل الدين عن الدولة ، وأقصى السلطان والخليفة ، وأزال كل أثر للإمبراطورية العثمانية . . وصار عليه الآن أن يغير عقول الشعب بأسره : أفكارهم القديمة ، وعاداتهم ، وأزياءهم ، وأساليب حياتهم ، وأدق الدقائق التى تربطهم بنشأتهم الشرقية وماضيهم . . وكانت هذه المهمة أصعب بكثير من إعادة بناء الكيان السياسى للدولة ، أو على حد تعبيره : « لقد قهرت العدو ، وقهرت الدولة ،

فهل أستطيع أن أقهر الشعب !؟»

ورأى أن يتخلص من الطربوش ، رمز الدولة العثمانية . . وكان يعلم أنه سيلقى مقاومة عنيفة من الشعب ، الذى سيشعر أنه قد طعن فى شعاره القومى ، فآثر أن يصل إلى هدفه بالتدريج . . بدأ بأن فرض على حرسه الخاص ارتداء القبعة . فلما لم يعترض أحد عمم القبعة فى الجيش كله . وبث فى صفوفه من يشرح للجنود أفضليتها على الطربوش فى حماية الرأس من الشمس والمطر . . فلما لم يحتج الجيش ظهر هو فى حفلة رسمية مرتدياً قبعة من القش ! وكان الغازى قد وطن نفسه على احتمال ضحك الناس وسخريتهم من منظره . فقد كان يملك من الشجاعة الأدبية مثل ما يملك من الشجاعة البدنية . . وبدأ يبشر بنظريته قائلاً : «إذا أردنا أن نكون شعباً متمديناً فينبغى أن نرتدى ثياب المتمدينين الدولية . أما الطربوش فهو رمز الجهل !» . . لكن الجماهير أبت أن تجاريه أو تقلده فى «بدعته» ، وحتى الأفراد القليلين الذين تبعوه عادوا فنكصوا أمام إزدراء الناس وتهكمهم ! . وعندئذ أحس الغازى أنه فشل فى إقناع الأتراك برأيه ، فلم يجد بدًّا من فرضه عليهم بالقوة !

إلغاء الطربوش .. وفرض القبعة !

وهكذا أصدرت «الجمعية الوطنية» بناء على طلبه ، قانوناً يحرم ارتداء الطربوش ويعاقب من يرتديه . وبعد يومين من إصداره انتشر رجال البوليس فى الشوارع الرئيسية فى جميع المدن والقرى وأخذوا «يصادرون» الطرابيش من فوق رؤوس المارة . وكل من قاوم أو اشتكى كان مصيره

الحبس ! . . وسرت فى البلاد موجة من الغضب والسخط ، ورجمت الجماهير فى كثير من البلاد ممثلى الحكومة بالأحجار ، مدفوعة بتحريض رجال الدين الموتورين الذين ألقوا فى روع الناس أن هذه « البدعة » مخالفة لتعاليم الإسلام ، وأن القرآن والسنة يحرمان ارتداء القبعة ! . . وفى الجمعية الوطنية نفسها وقف الجنرال نور الدين باشا يحتج على البدعة الجديدة ! عندئذ انقلب « ناظر المدرسة » إلى مستبد غاشم ، لسان حاله أن الثورات يجب أن تبنى على الدم . وإلا انهارت ولم تدم ! . . وبدأ فأقصى نور الدين باشا عن الجمعية ، وأرسل « محاكم الاستقلال » إلى الأقاليم لتحكم على مئات من « المتمردين » بالشنق والرمى بالرصاص والسجن ! . . فتوقفت حركة المقاومة ، وسارع كل تركى إلى شراء القبعة وارتدائها ، وحين لم يجد الأهلون فى إحدى القرى قبعات كافية هاجموا متجراً لبيع قبعات النساء يملكه أرمنى فابتاعوا محتوياته وارتدوها ، بريشها وأشرطتها الملونة !

وصار كل رجل فى تركيا يرتدى القبعة ، ولكى يوطد مصطفى كمال هذا التقليد فى أذهان العالم الخارجى أرسل مندوبه إلى المؤتمر الإسلامى المنعقد فى مكة ، مرتدياً قبعة ! . . وكان المؤتمر يضم ممثلين لجميع دول العالم الإسلامية ، ولم يجد المؤتمرون بداً من احترام المندوب وقبعته تقديراً لمصطفى كمال !

وبقى أمر « الدراويش » ، الذين كانوا يملكون أخصب الأراضى وأفخم العمارات ، وكانوا أشبه بالعالة على المجتمع العامل النشيط ، المحروم . . فضلاً عن صلتهم بثورة الأكراد . . ومن ثم رأى مصطفى كمال أن يتخلص منهم ، فأصدر قانوناً من الجمعية الوطنية يقضى بإغلاق

التكايا ومصادرة ثروات الدراويش وتشريدهم فى الشوارع ، كى يعيشوا من عرق جبينهم ، أو يموتوا جوعاً إذا آثروا الكسل . . شأنهم شأن جميع المواطنين ! وبذلك قضى مصطفى كمال على الأساس والمظاهر الدينية للدولة والشعب ، بأكملها !

* * *

وإذ فرغ الغازى من الهدم ، بدأ يشرع فى البناء . . فاستدعى الخبراء والمشرعين الأجانب كى يسنوا للبلاد قوانين تحل محل القوانين والتشريعات القديمة . فوضع أولئك الخبراء نصوص القوانين الجنائية والمدنية والتجارية ، المقتبسة عن تشريعات إيطاليا وسويسرا وألمانيا على الترتيب . . وبمقتضاها منع تعدد الزوجات ونظام « الحريم » وتقررت المساواة بين الرجال والنساء فى جميع الحقوق والواجبات . ثم عكف على تحقيق حلمه القديم الذى كان عماد مقاومته للغاصب الأجنبى ، وهو جعل « تركيا للأتراك » فأصدر مجموعة من القوانين والتشريعات التى تكفل بلوغ هذه الغاية . . استبعد من اللغة التركية سائر الكلمات الأجنبية — العربية أو الفارسية — واستبدل بها كلمات من لغة التتار ، التى هى أصل اللغة التركية ، وأمر بأن تتلى الصلوات فى الجوامع بالتركية وحدها . . وطبع طوابع بريد جديدة تحمل صورة « الذئب الأغبر » ، رمز الأتراك القدماء . وألزم المدارس الأجنبية بتعليم لغة البلاد واستخدام مدرسين أتراك ، وحتم أن تكون الدراسة الابتدائية مقصورة على المدارس التركية وحدها . . كما حتم أن تخزن نسبة كبيرة من رأس المال فى كل مؤسسة تجارية ، ملكاً للأتراك ، وكذلك الحال بالنسبة للمديرين والموظفين فيها . . وألزمها بجعل مراسلاتها وحساباتها بالتركية . وأغلق فى وجه غير الأتراك ممارسة مهن الطب والمحاماة

وبعض الصناعات . وشجع الصناعات الوطنية بفرض الحوائل الجمركية ، وشن حملة لإغراء الشعب بمقاطعة البضائع الأجنبية التى لهـا نظير من انتاج البلاد ، إلى درجة استعمال شراب « البابونج » الذى يزرع محلياً بدلاً من الشاى الذى يستورد من الخارج !

وبعد أن كانت ساعات النهار تحسب إبتداء من الفجر المتغير ، صارت تحسب ابتداء من منتصف الليل الثابت . . وأدخل التقويم « الجريجورى » . . بل بز دول أوربا ذاتها فى بعض الأمور ، فقضى باعتبار الضحك سخرية بالمجنون والشاذ والكسيح ، إهانة إجرامية معاقباً عليها . . وطهر الشوارع من المتسولين ، وقضى بوجوب حصول الراغبين فى الزواج على شهادات رسمية بخلوهم من بعض الأمراض ، بغية خلق جيل صحيح الجسم يخدم البلاد . . هذا إلى مئات الإصلاحات الأخرى ، الكبيرة والصغيرة !

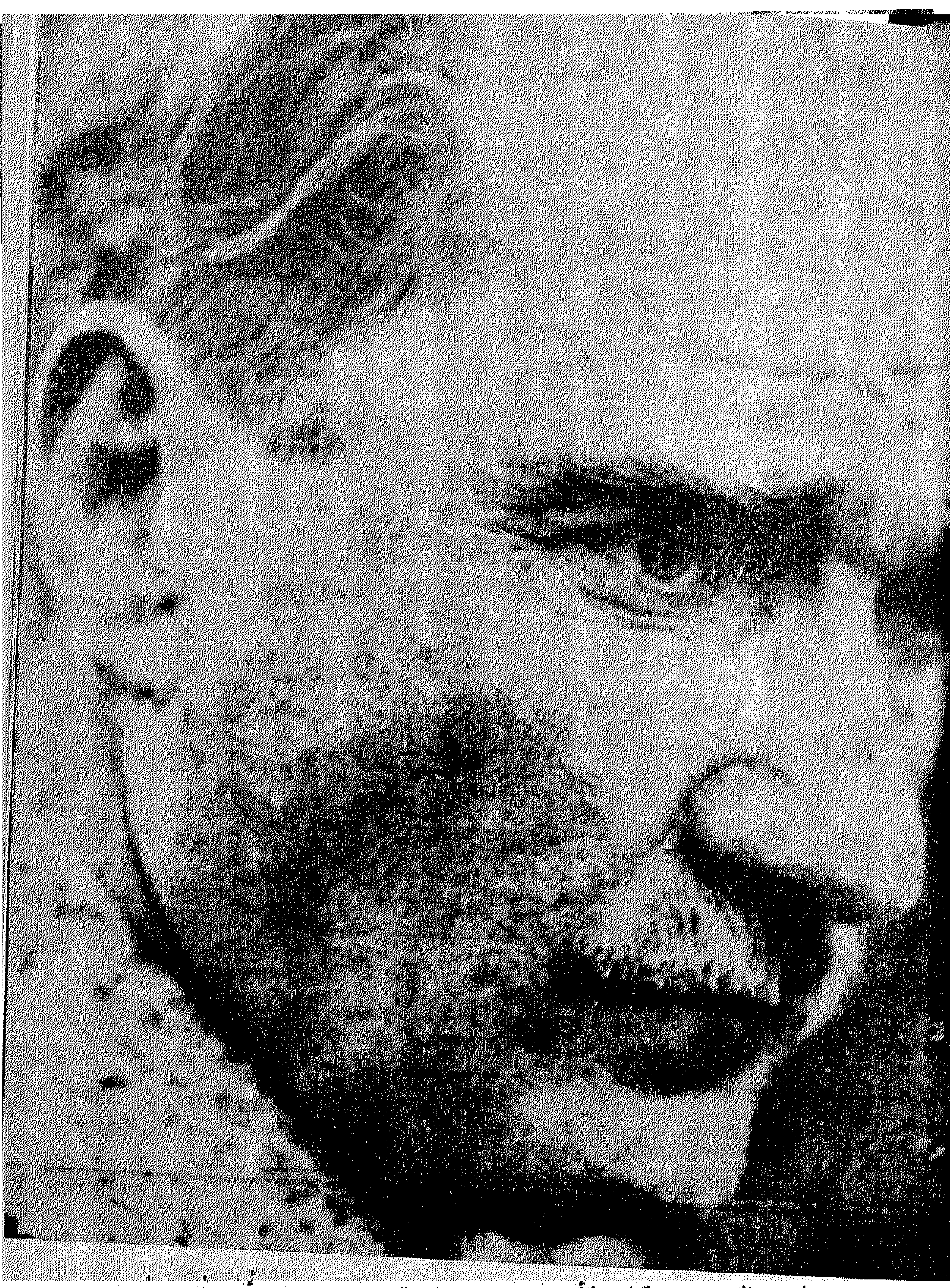
واعتزم أن يجعل أنقرة عاصمة جديدة بتركيا الناهضة ، برغم العوائق الطبيعية والجغرافية العديدة ، فاستدعى من برلين وفينا خبراء أخصائيين فى تخطيط المدن ، وكلفهم بتخطيط مدينة ذات شوارع وميادين فسيحة ومبان جميلة . . وشاركهم فى البحث والدراسة . . ثم استصدر من الجمعية الوطنية الاعتمادات المالية اللازمة للمشروع ، وأمر بزرع ملايين الأشجار ، وإنشاء الطرق وردم المستنقعات لمكافحة الأوبئة المتفشية . . حتى أنفق فى هذا السبيل ، فى مدة وجيزة ، ثلاثة عشر مليون جنيه ! ثم بدأ مصطفى كمال يحصر اهتمامه فى « الإشراف » على الأمور ، تاركاً أمر التنفيذ وما يكتنفه من دقائق وتفصيلات فى يد عصمت رئيس وزارته ، الذى صار يقتنص كل يوم مزيداً من الاختصاصات . . أما مصطفى فعاد تدريجاً

إلى انزوائه فى داره بضاحية «شان كايا» ، وإلى نفوره من الناس والمجتمعات ، بحيث لم يعد يراه غير ألصق أصدقائه وصديقاته ، وكبار الموظفين والمسئولين . .

وفى «شان كايا» عاش حياته الضارية الشاذة . . كان قد بلغ السابعة والأربعين ، وبدت عليه علائم الكهولة ، فامتلأ جسمه إلى حد يقرب من البدانة ، وتساقط شعره عن مقدم رأسه ، واكتسب وجهه تلك الصرامة التقليدية التى كانت متكلفة فى البداية ، فصارت فى النهاية غير ارادية . . بحيث لم تعد الابتسامة تعرف طريقها إلى شفتيه إلا نادراً ، ولفترة قصيرة من الوقت ، برغم ما كانت تنطوى عليه من جاذبية نادرة ! وكانت صحته دائمة التغير ، لا تستقر على حال . كان أحياناً يقضى ليالى بأكملها مؤرقاً ، وتعاوده نوبات الكآبة السوداء . . وآلام الكليتين الحادة . . وأحياناً أخرى ، وربما فى خلال ساعات قليلة ، ينقلب شخصاً ممتلئاً صحة وحيوية ! . . فهو اليوم شيخ مهدم ، وغداً شاب قوى البنية . . على أن حيويته الخارقة فى عمله لم تضعف أو تتضاءل ، فكان يقوم فى بعض الأحيان بمجهود متواصل يعجز عن مثله عشرة من الرجال الأقوياء !

وفى إحدى المناسبات ألقى خطاباً عن تاريخ الثورة الوطنية استغرق منه إعداده سبع ليال كاملة ، واستغرق إلقاؤه ستة أيام متوالية . . حتى تعب النواب ودهمهم النعاس ، وهو محتفظ بكامل حيويته وقوة صوته !

وكان بعد ذلك يقضى عدة أيام منزوياً فى داره ، يسهر طول الليل مع أصفيائه . . وعقب هذه الليالى المرهقة ، أو ليالى الأرق الطويلة ، كان ينهض عند الفجر ليمتطى جواده إلى المزرعة النموذجية التى كان يشيدها فى واد قريب ، والتى زودها بأحدث المستحدثات الزراعية



علائم الشيخوخة قبل الأوان ، تبدو على قسمات وجه « أتاتورك » !

والميكانيكية ، وأحسن فصائل الأبقار والخنازير . . وكانت تراوده على الدوام صورة حالمة لتركيا فى المستقبل ، وقد عمتها هذه المزارع وفاضت أرضها حنطة وزيتاً . . فأمر بإنشاء الجمعيات التعاونية والبنوك الزراعية للتسليف ، لعقد القروض للفلاحين وتوزيع البذور . . ووضع مشروعات للرى ، وللطرق والسكك الحديدية الجديدة ، ولأعظم المستحدثات الصناعية !

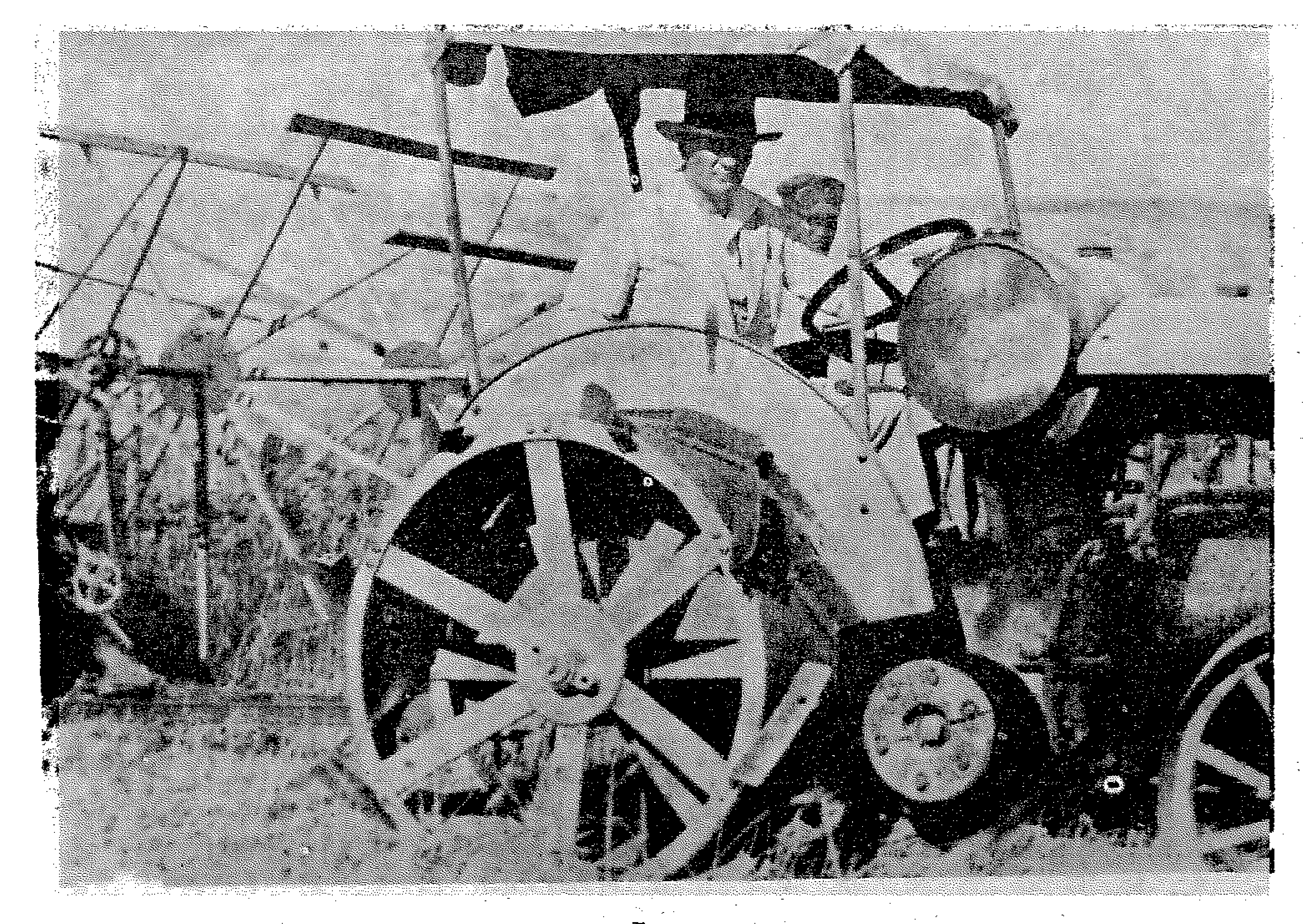
ولا شك أن مصطفى كمال – برغم دكتاتوريته – كان وطنياً ، مؤمناً برسالته وبنجاحه ، لكن عوائق كثيرة كانت تصدمه فى مراحل جهاده ، أهمها نقص المال ، وقصور الشعب وتواكله وفقره . .

الحروف اللاتينية ، بدلاً من العربية !

بدأ مصطفى كمال يمل حياته المتشابهة فى « شان كايا » ، فود لو يسافر ويرى الحياة والناس ويبتعد فترة عن السهول الصفراء المترامية أمام داره !

ومن جهة أخرى كانت صحته آخذة فى التدهور بسبب الإرهاق فى العمل ، حتى لقد أصيب مرتين بنوبة قلبية مصحوبة بإغماء شديد . . فأنذره الطبيب بوجوب العناية بصحته والاعتدال فى حياته ، وتغيير الهواء .

لكن « الذئب الأغبر » كان يبيت فى نفسه مشروعاً خطيراً يديره فى رأسه منذ زمن ويتردد فى الإقدام عليه . . فتحامل على متاعبه وهب من مرقده أخيراً لينفذه : إنه سيذهب إلى القسطنطينية ، وهناك يفاجئ الشعب من شرفة قصر السلطان العثماني بإصلاح جديد عنيف الأثر . سوف يلغى الكتابة بالحروف العربية ويجعل اللغة التركية تكتب بالحروف اللاتينية ، وبذلك يحدث ثورة فى الأدب التركى بأجمعه ، وفى وسيلة التراسل بين

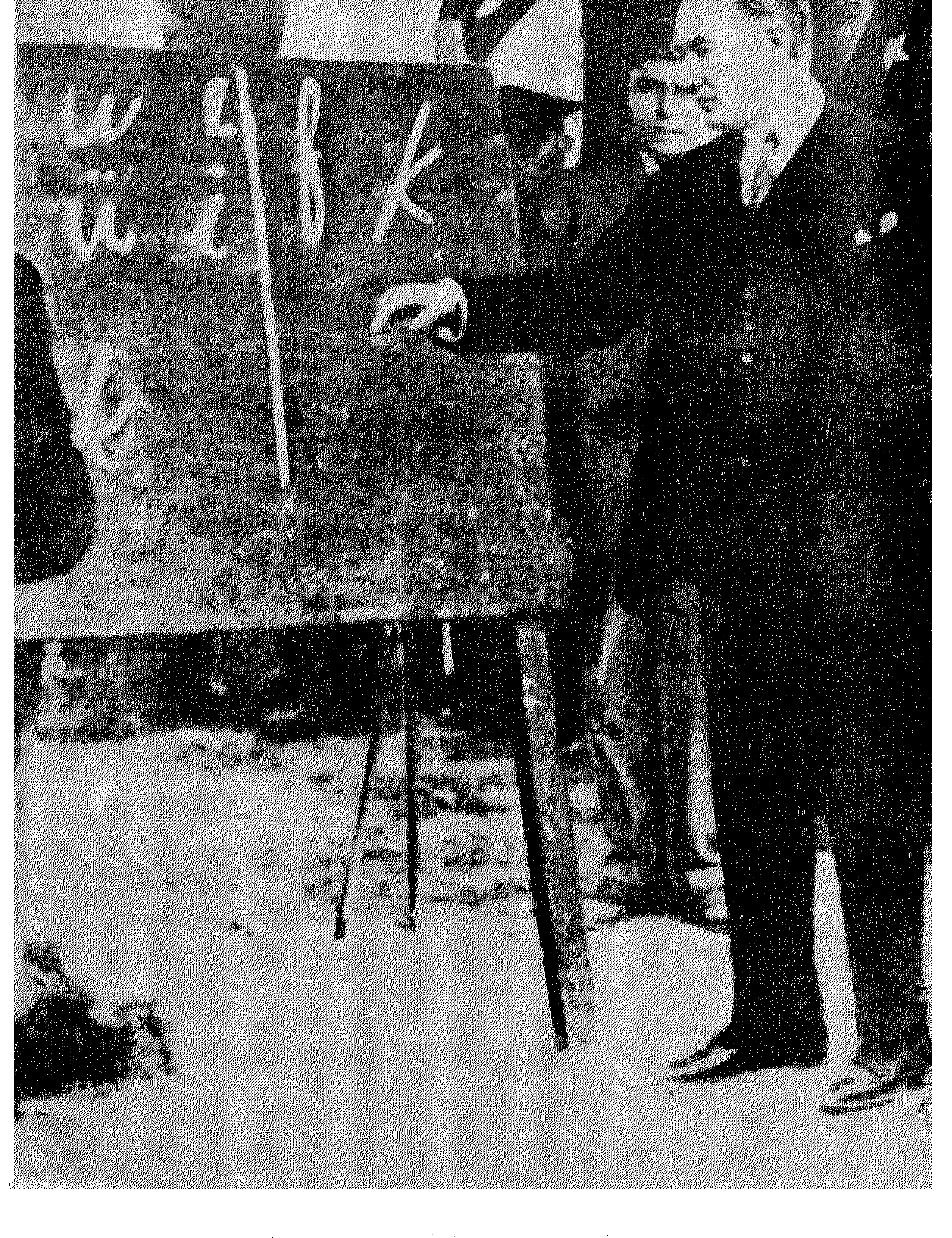


مصطفى كمال فى جولة تفتيشية يجرب آلة حصاد زراعية بالمزرعة النموذجية التى سميت بأسمه بالقرب من (أنقرة) .

التركي والتركي . . سوف يقلب كل الأفكار فى البلاد رأساً على عقب !

وكانت حجته أن الكتابة بالحروف العربية شديدة التعقيد ، بحيث صارت وقفاً على خاصة المثقفين ورجال الدين . . أما أكثرية الشعب ، أو نحو تسعين فى المائة منه ، فلا تعرف القراءة والكتابة . . وحتى الذين يعرفونها تقتصر ثقافتهم على الأفكار العربية والفارسية فحسب ، وكأن جداراً قد اقيم بينهم وبين الفكر الغربي الوثاب . . لكنه بجرة قلم سوف يقلب هذه الأوضاع ، ويرسل أفراد الشعب جميعاً إلى المدرسة ، المتعلمين إلى جانب الجهال ، ورجال الدين إلى جانب الخدم والعامة . . سوف يفتح لهم جميعاً أبواب المعرفة ويقودهم إلى مستقبل باهر ! وعكف على مشروعه يدرسه بعناية وتؤدة ساعات كل يوم ، مستعيناً بأساتذة اللغة وخبرائها على وضع حروف أبجدية لاتينية تلائم اللغة التركية ، حتى أتم إعداد العدة لانقلابه الخطير ، فأعلن اعتزام الحكومة الانتقال خلال عطلة صيف سنة ١٩٢٨ إلى القسطنطينية وشاطئ البوسفور . . وعند وصوله استقبله أهل المدينة الكبرى بأعظم حفاوة وترحيب ، بعد أن طالت غيبته عنهم تسع سنوات . . وفى موكب رائع شق طريقه إلى مقره الجديد : قصر السلطان !

وبعد أيام وجه الدعوة إلى أكبر عدد من الشخصيات والنواب والموظفين ورجال الدين والصحفيين والكتاب وأساتذة المدارس وسيدات المجتمع وكبار التجار ، لحضور حفلة استقبال كبرى فى القصر . . وبعد أن اكتمل عقدهم وقف فشرح للمدعوين غرضه من دعوتهم ، وكانت إلى جانبه « سبورة » وقطعة من الطباشير ، فشرع يردف شرحه بالكتابة ، موضحاً طريقة الكتابة الجديدةوأفضليتها ، ملقياً النكات والملح اللطيفة بين الحين والآخر ، على خلاف عادته ، داعياً بعض الحاضرين إلى تقليده !

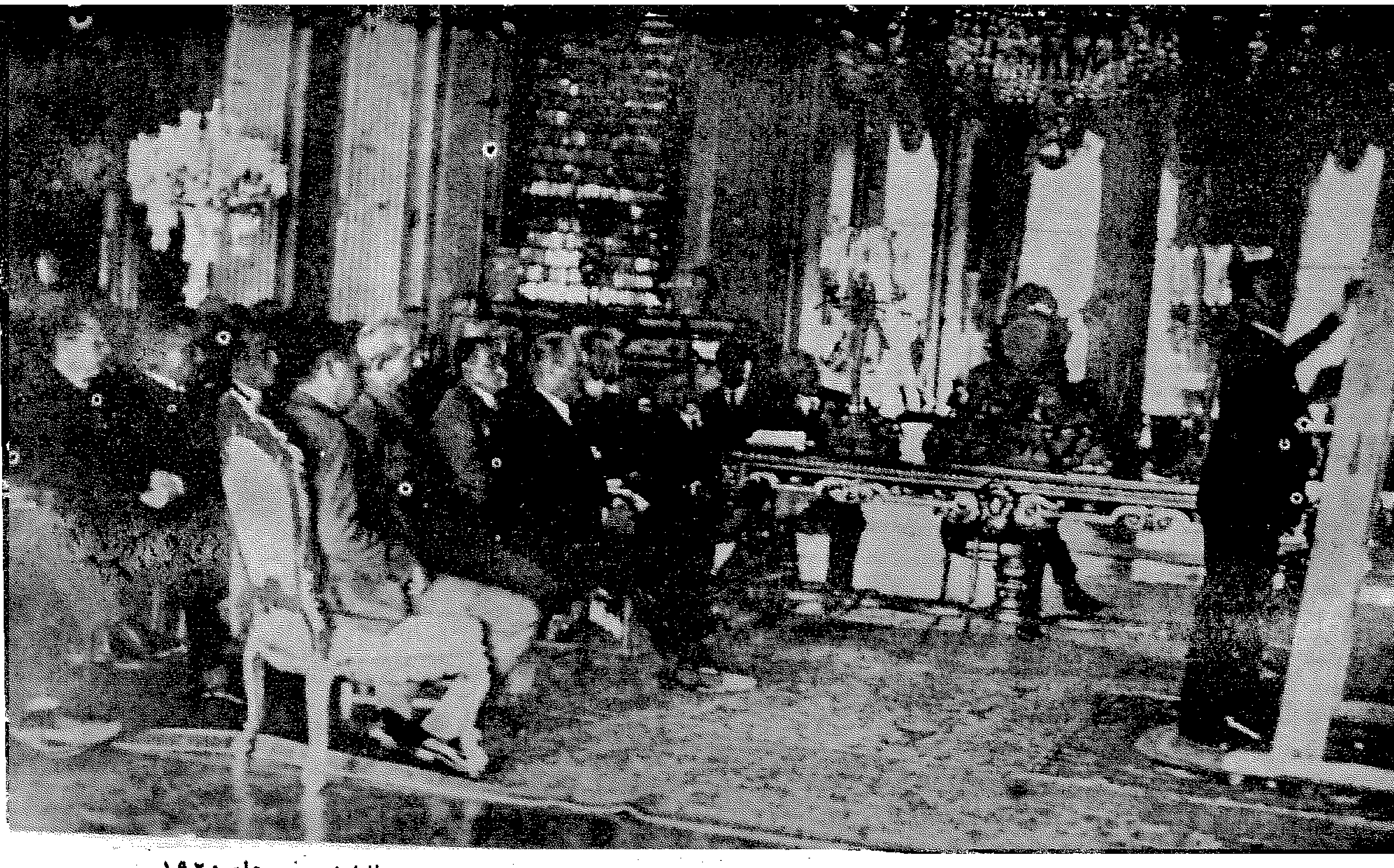


أتاتورك يعلم الشعب طريقة الكتابة بالحروف اللاتينية على « السبورة »

ثم قام فى الأيام التالية بجولات فى المدن والقرى حاملاً معه سبورته وطباشيره ، ملقياً دروس الكتابة باللاتينية فى الأسواق والميادين العامة . . . فاستجاب الشعب بأجمعه للدعوة الجديدة ، التى هى مفتاح الباب المؤدى إلى النجاح الذهبى والثروة والرخاء . . وصار الجميع ، شباباً وشيباً ، يجلسون فى أركان المقاهى والجوامع والميادين ، حاملين ألواح الإردواز والطباشير ، يتمرنون على « البدعة » الجديدة ! وكان الغازى لا يدع فرصة إلا امتحن فيها كل من يلتقى به فى مدى إتقانه الكتابة اللاتينية ، حتى لقد أوقف الرقص فى إحدى الحفلات ذات ليلة وطلب سبورة وطباشيرة ثم ألقى على الحاضرين درساً وعقد لهم امتحاناً ! . . ثم حدد يوماً يصبح بعده كل متخلف عن إتقان الكتابة الجديدة عرضة لعقوبات قاسية ، منها الطرد من الوظيفة والتجريد من الجنسية بل النفى من البلاد أو الاعتقال فى السجون ! وأخذ الغازى يقوم بجولاته فى أنحاء البلاد لتعليم شعبه بهمة ونشاط لا يعرفان الكلل . . وهكذا استرد من جديد إهتمام الناس به وتركيز الأضواء على شخصيته . . وأحياناً كان يفرغ من جولته فيسهر مع أصدقائه حتى مطلع النهار التالى ، ثم يخرج إلى جولة تعليمية جديدة دون أن ينام لحظة أو حتى يخلع ثيابه !

يحرر المرأة ، ويتجه نحو الديمقراطية

وواصل الغازى اصلاحاتــه . . فأمر بتشجيع نهضة الفنون وفق الأساليب العصرية ، وأنشأ فى أنقرة مدرسة يدرس فيها الجنسان الفنون الجميلة ، وأمر بإقامة تماثيل فى الميادين الكبرى ، وإحلال الموسيقى



أتاتورك يحضر أحد دروس تعليم الكتابة بالحروف اللاتينية فى قصر (ضولماباتشى) ، عام ١٩٢٨

الغربية محل الموسيقى التركية العتيقة فى المناسبات والحفلات ، وإنشاء مدارس لتعليم الرقص الغربى الراقى ، وترقية الرقص التركى !

أما المرأة فقد رأى وجوب تحريرها تماماً من الحجاب ومن الانزواء فى عقر دارها ، كى تشارك الرجل فى حياته العامة وتساهم فى أوجه نشاط الأمة والحكومة . . ومنحها حق انتخاب أعضاء المجالس البلدية ، ووعد بمنحها حق الانتخاب للبرلمان – الجمعية الوطنية – وعين بعضهن عضوات فى حزب الشعب على قدم المساواة مع الرجل . وشجعهن على دراسة الطب والمحاماة ، وعين اثنتين منهن فى مناصب القضاء وفى المجلس البلدى لاستانبول . . وفتح مدارس للخدمة الاجتماعية ، بمعاونة أخته « مقبولة »

ومرة أخرى أمسى مصطفى كمال الرئيس العامل للدولة ولحزب الشعب ، فصار يطلب وضع تقارير لاطلاعه على تطورات الأمور ، ويستدعى إليه الوزراء والنواب وكبار الموظفين لمناقشتهم ، وطالب بأن تعرض عليه القرارات الهامة قبل تنفيذها ، ويكون له الإشراف الفعلى على شؤون الدولة . وكان عصمت قد ركز فى شخصه كل هذه السلطات أثناء انزواء الغازى فى « شان كايا » ، فأبى أن يتنازل عنها . . وصارا يصطدمان فى كثير من المناسبات ، فيوفق بينهما فوزى . . حتى بلغ الخلاف أقصى حدته فى صيف سنة ١٩٣٠ ، حين صارح فتحى – وكان قد عين سفيراً لتركيا فى باريس – زعيمه مصطفى كمال بمدى الهاوية التى يقود عصمت البلاد إليها بسياسته الخرقاء . . فرأى الغازى – الذى لم يكن يسهل عليه الإستغناء عن عصمت – أن ينشئ له « صمام أمان » يمنعه من الشطط . . فألف حزباً معارضاً باسم « الجمهوريون الأحرار » كى يحول الحكومة من أوتوقراطية ذات حزب واحد إلى دستورية برلمانية مثل سائر

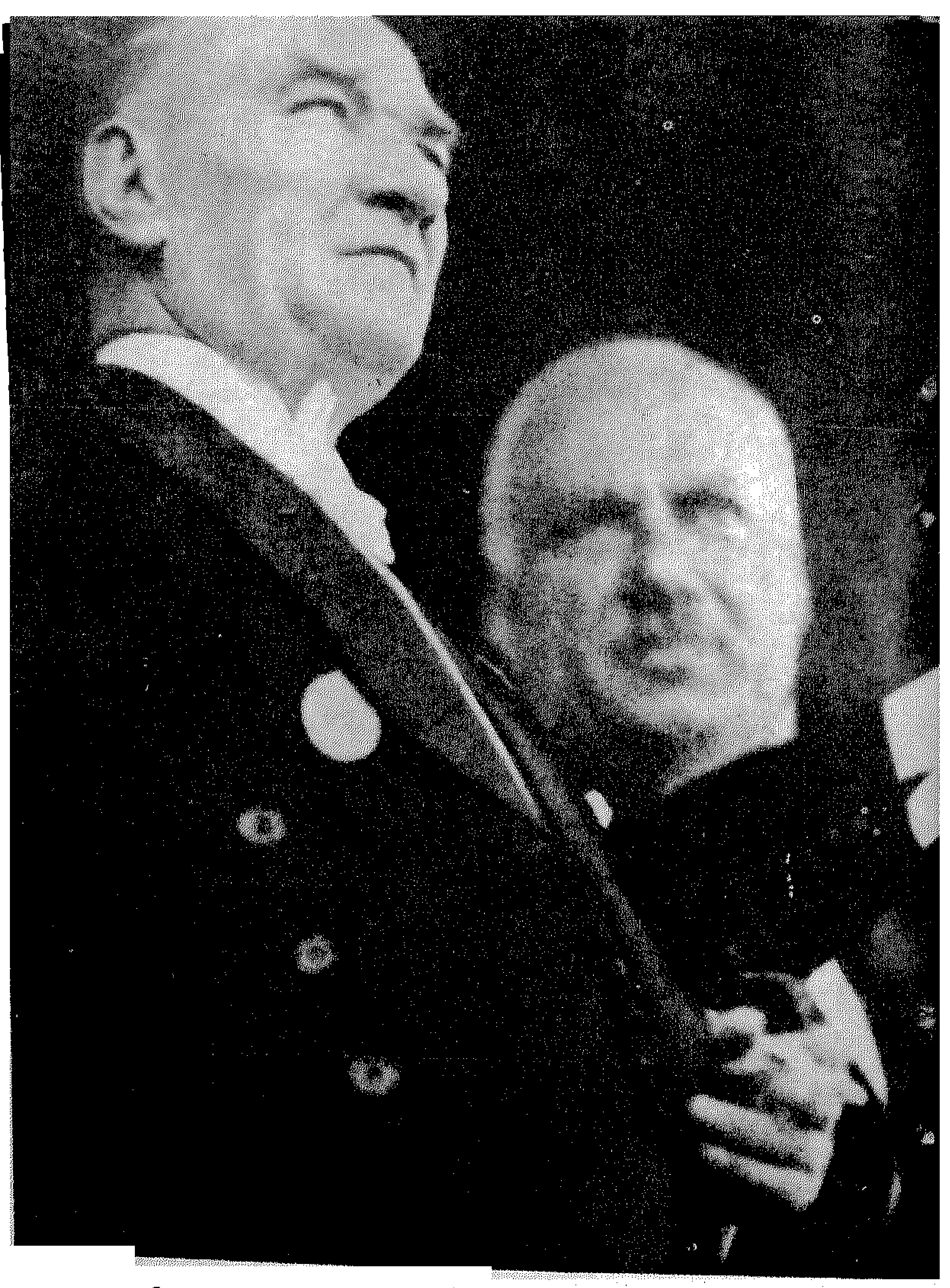


أمر بتشجيع نهضة الفنون وفق الأساليب العصرية . .

الحكومات الديمقراطية ، وأسند رياسة الحزب إلى فتحى ، يعاونه أحد عشر نائباً ، وثلاثة من أخصائه ، ثم شقيقته مقبولة . . وشرح لكل من عصمت وفتحى نظريته فى وجوب قصر الخلاف بينهما على ما فيه صالح البلاد ، داخل الجمعية الوطنية ، على أن يظل الخصمان السياسيان صديقين فى الخارج ، كما هو الحال فى إنجلترا ، العريقة فى ديمقراطيتها .

وحين أجريت التجربة فى اجتماع الجمعية الوطنية بحضور مصطفى كمال وقف فتحى فهاجم عصمت هجوماً عنيفاً ، ورد عليه عصمت بهجوم أعنف ، ثم خرج الاثنان فى النهاية يتضاحكان متشابكى الأذرع . . لكن أنصارهما من النواب عجزوا عن فهم هذه المعارضة الشريفة أو هضمها ، فاشتبك الفريقان فى مشاجرات – داخل الجمعية وخارجها – استخدمت فيها المسدسات وأصيب فيها الكثيرون ! وقبيل موعد انتخاب المجالس البلدية قرر مصطفى كمال رفع الرقابة عن الصحف وإباحة حرية الاجتماعات ، بعد كبت استمر عشر سنوات ، كى يتاح للشعب أن يعبر عن إرادته فى انتخابات حرة . . لكن الحرية شجعت الشعب على إطلاق عواطفه المكبوتة دون حساب ، فتوالت على الحكومة الهجمات وحملات النقد والتشهير المعبرة عن السخط الشديد من جانب جميع الطبقات : التجار والمصدرين ورجال الأعمال وأصحاب السفن والموظفين والفلاحين ودافعى الضرائب وجميع النساء !

وشجع السخط أعداء مصطفى كمال القدماء ، من رجال الدين والمعارضين الذين خمدت أصواتهم منذ حركة التطهير العامة سنة ١٩٢٦ ، فانتعشت نفوسهم . . وحدثت أكثر من محاولة لاغتيال الغازى ، لا من جانب الساسة أو الثوريين المعادين له ، بل من جانب أفراد عاديين من

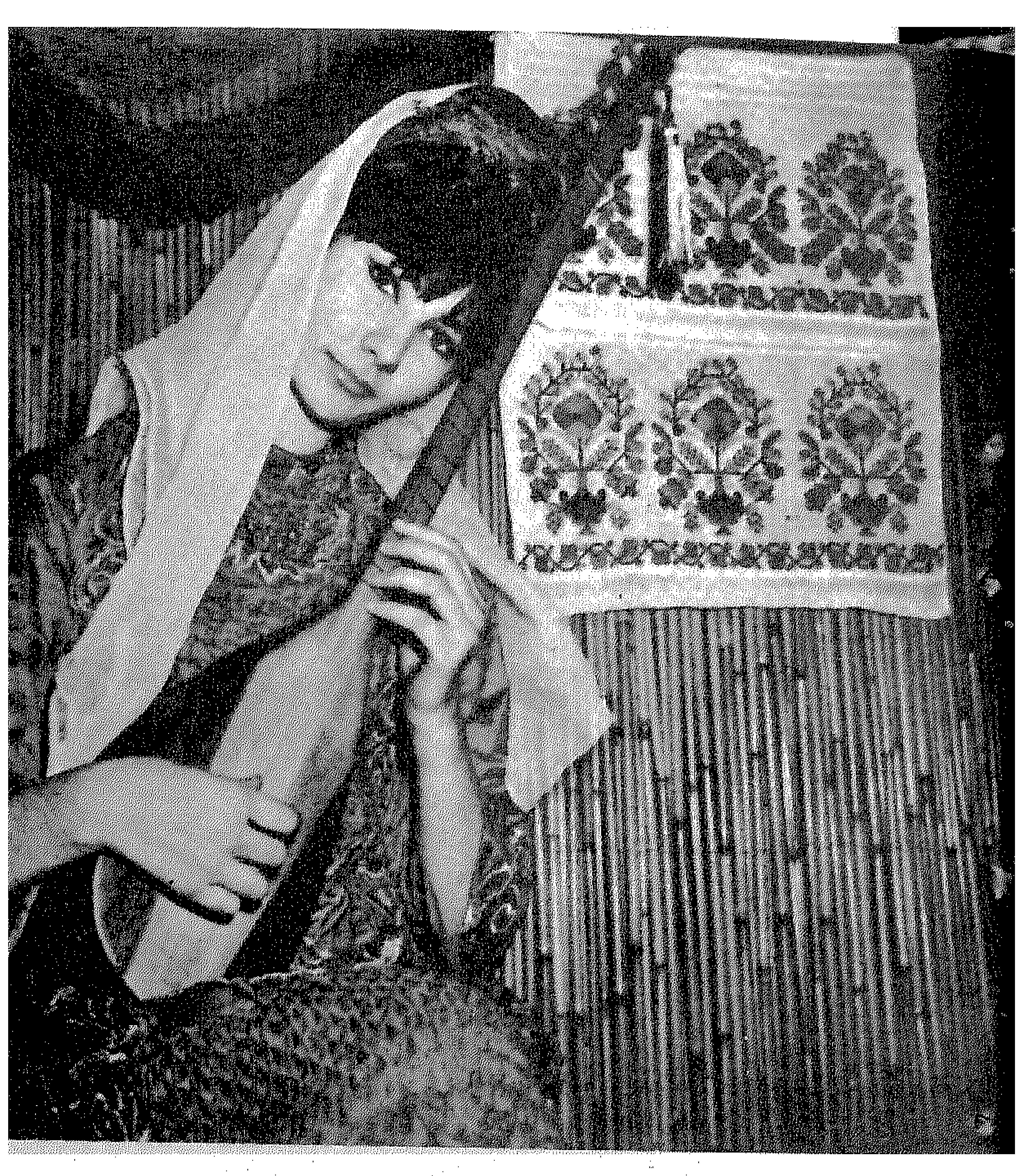


أتاتورك أثناء الاحتفال بعيد إعلان الجمهورية في إحدى سنوات حكمه الآخرة

الساخطين . . وانتشر الإضراب والاعتصاب - بتشجيع الشيوعيين - فى مصانع تعبئة التين فى ازمير ، ثم امتد إلى كثير من المناطق الأخرى . . وفى الجنوب ، على حدود سوريا (الفرنسية حينذاك) نشط الثوار الأرمن يعاونهم الأكراد المغيرون ، وعلى طول الحدود الإيرانية ثار الأكراد من جديد وعمدوا إلى القتل والحرق والنهب ، حتى لقد عجز عن قهرهم جيش تركى من خمسة عشر ألف مقاتل !

وأخيراً نشبت ثورة جدية فى بلدة « منيمين » القريبة من ازمير ، على أثر صدام حدث فى سوق البلدة بين شيخ من مدعى النبوة زعم أنه المهدى المنتظر جاء لينقذ تركيا من طغيان مصطفى كمال ، وبين ضابط من الجيش . . وانتهى الشجار بذبح الضابط « بالمنشار » بين تصفيق الجماهير وتهليلها ، فلما استدعيت قوات البوليس الضئيلة غلبت على أمرها ، أما قوات الجيش فقد أبت إطلاق النار على المتظاهرين . . وعندئذ هبت الثورة التى أعد « الدراويش » العدة لها منذ شهور ، فى منطقة تمتد من قونية إلى أضاليا وازمير . . فطرد الأهالى فى كل مكان موظفى الحكومة من مكاتبهم ، بين تهليل النساء وزغاريدهن . . ثم جاءت الأنباء بقرب نشوب ثورة مماثلة فى (أرضروم) . . فى الوقت الذى كان الأكراد فيه يقاومون الأتراك بعنف ووحشية ، ويسومون أسراهم أفظع ألوان التعذيب !

وأطل الغازى على الحالة المنذرة بالخطر ، كما أطل من قبل من مقعد الرياسة فى الجمعية الوطنية على النواب المتشاجرين ، فأدرك أن وعى الأتراك السياسى لم ينضج بعد إلى الحد الذى يحتمل معه تجربة إطلاق حرية الرأى والسماح للمعارضة بمزاولة نشاطها . . فشمر الغازى من جديد عن قبضته الحديدية ، وكشر الذئب الأغبر عن أنيابه مرة أخرى ! . . إنه حاكم



فنانة تركية تعزف مقطوعة من الموسيقى الشرقية

على شعب بدائى أَلِف الضراوة . فى أرض قاسية بدائية . فلا مفر من أن يكون فى حكمه قويًّا ضارياً . . ومن ثم أعلن الأحكام العرفية ، وأعاد الرقابة الصارمة على الصحف ، ومنع حرية الخطابة منعاً باتًّا . . وسوى خلافاته مع عصمت ، فقد كان فى حاجة إلى حزمه وصرامته . . ثم أخمد الثورات فى كل مكان بمنتهى العنف والقسوة ، وشنق الذين حاولوا اغتياله فى مشهد عام فوق قنطرة « غلطه » عبر « القرن الذهبى » . . كما شنق زعيم الدراويش – وكان فى الثمانين من عمره – مع أتباعه البارزين جميعاً . . وأرسل إلى « منيمين » قوات بطشت بالثوار وسجنت ألفاً من الأهالى وشنقت ثمانية وعشرين رجلاً من أبرز زعماء الثوار .

وهكذا عاد الأمن والسكينة يرفرفان على ربوع البلاد ، وخرست أصوات النقد والشكوى فجأة وعاد أصحابها إلى جحورهم . . وأحسَّت طبقات الشعب جميعاً بقبضة الغازى تشتد وتقوى من جديد ، فمنحته إيمانها القديم وثقتها العمياء !

قاد بلاده إلى المجد

ثم قام الغازى بجولة واسعة فى أنحاء تركيا ، اتصل فيها بشتى الطبقات ، ووقف على أسباب تذمرهم وشكواهم ، ودرس مطالبهم . . فلما عاد إلى مقر حكمه دبر العلاج لكل داء . . وبدأ بإقصاء فتحى ، الذى تسبب دون قصد فى كل تلك الاضطرابات ، ثم طهر صفوف حزب الشعب من المسنين العاجزين وغير الأكفاء ، وأمر بإجراء انتخابات عامة جديدة ، حرص فيها على أن ينتخب فى الجمعية الوطنية تسعون نائباً جديداً من الصناع والعمال والتجار . إنه لم يفقد ذرة من إيمانه بالشعب ، وبقدرته على



طالبات معهد التمريض فى مستشفى (هاشيتيبى) بأنقرة . وهو مقر كلية الطب . ومركز تدريب للأطباء فى الوقت نفسه .

أن يقوده إلى مستقبل عظيم . وقد عبر عن رأيه بتصريح أدلى به فى ربيع سنة ١٩٣٢ ، قال فيه : « فليترك الشعب السياسة جانباً فى الوقت الحاضر ، وليضع همه فى الزراعة والتجارة ! . . إننى ينبغى أن أحكم هذه البلاد عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً أخرى . . وبعدها أستطيع أن أطلق للناس حرية الرأى ! »

* * *

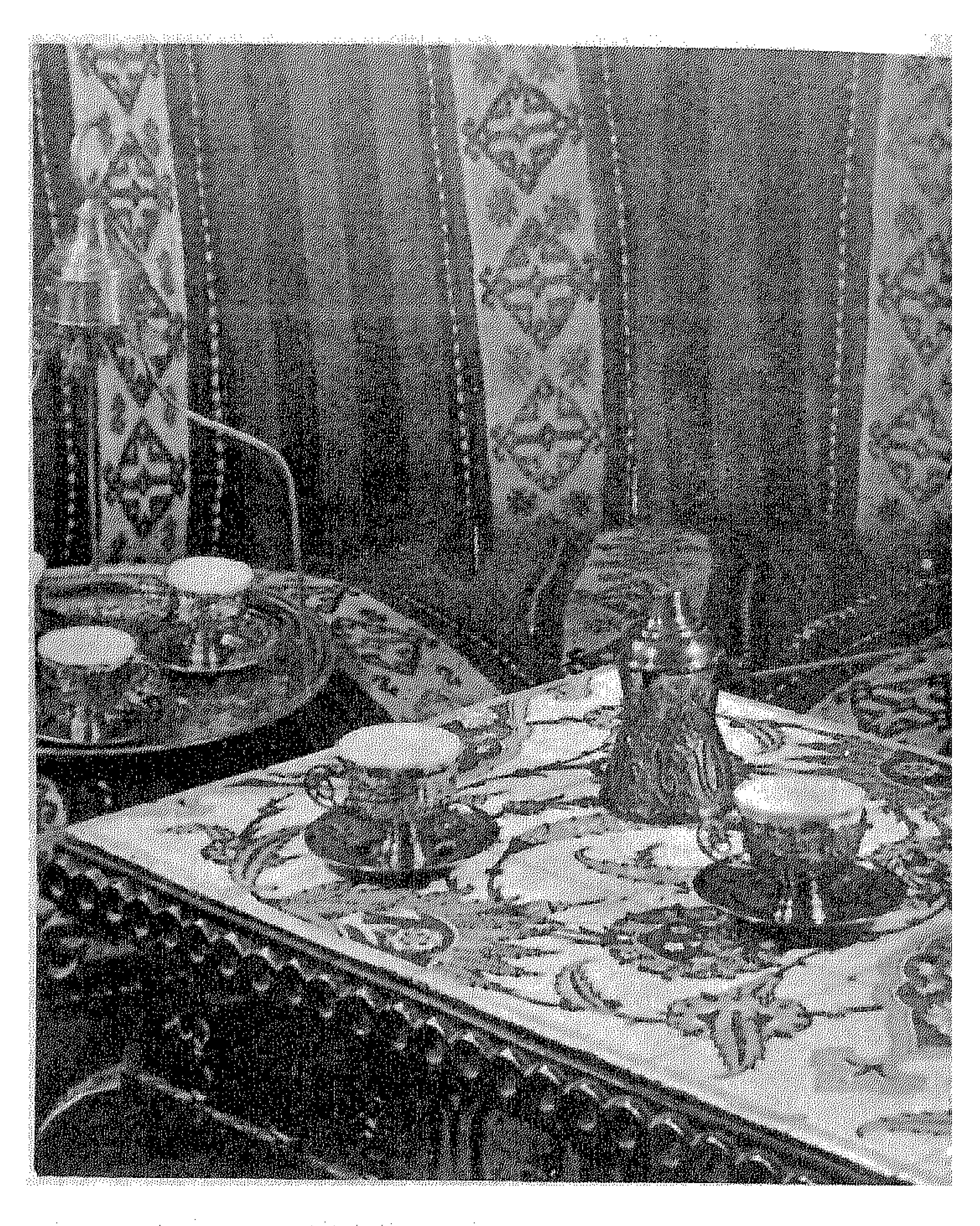
وهكذا بقى مصطفى كمال – بحيويته الخارقة – دكتاتوراً لتركيا . . انه رجل أوجدته الظروف فى الوقت المناسب ليقود بلاده إلى المجد . . ولو أنه ولد فى الزمن الذى كانت فيه آسيا الوسطى كلها قبائل من الرحل لتزعمهم كما فعل (سليمان شاه) وقادهم فى ترحالهم تحت علم « الذئب الأغبر » ، وبقلب الذئب الأغبر وغرائزه !

ولو أنه وجد فى عصر « جنكيزخان » لبزه فى عبقريته الحربية وعزيمته الجبارة التى لا تضعفها عاطفة أورحمة أو وفاء . . ولقاد مثله قبائل الفرسان المتوحشين فغزا بهم الأقطار واجتاح الأمصار ودمر المدن . . ثم أنفق فترات الراحة بين الحملات المتعاقبة فى المجون الصارخ ، والخمر والنساء !

ولكنه ولد وريثاً لامبراطورية ميتة ، شذبت الظروف أطرافها وقلمتها فى عصره ، حتى جعلت منها بلداً صغيراً فقيراً أقرب إلى البداوة . . وورطته هو فى شباك السياسة الوضيعة ، وفى الإصلاحات الحتمية !

لقد عاش – بعقلية امبراطور – فى داره بضاحية (شان كايا) . . أشبه برئيس قبيلة بدائية ، سلاحه سبورة وقطعة من الطباشير . . !

إن عظمته تكمن فى معرفته للحدود الضيقة لفرصه ، وقبوله لهذه



لم يهمل أتاتورك المحافظة على الطابع التقليدى للفنون اليدوية لبلاده ،
وفى الصورة طقم قهوة من النحاس ، فوق منضدة من مصنوعات (كوتاهية)

الحقيقة ! . . لكنه قبل كل شيء عظيم فى ايمانه العظيم بمستقبل شعبه الزاهر . . أو على حد قوله : « لقد عرفت جميع الشعوب . درستها فى ميدان القتال تحت النار وفى وجه الموت ، حيث تنكشف طبائع البشر وتبدو عارية . . وأقسم لكم ، يا شعبي ، أن القوة الروحية لوطننا تفوق قوى جميع الشعوب ! . . إني سوف أقود شعبي من يده خلال الطريق الطويل . . حتى تتوطد أقدامه فيه ويعرف سبيله . . وعندئذ يكون فى وسع مواطني أن يختاروا لأنفسهم،بأنفسهم ، الحاكم الذى يريدونه . . ويحكموا أنفسهم على هواهم . وعندئذ تكون مهمتى قد انتهت ! » .

انتهى الكتاب ، كما نشره مؤلفه فى حياة أتاتورك (قبل وفاته بنحو عامين) ، فلم يغفل سوى أحداث مرضه ثم وفاته ، التى نوجزها بما ورد عنها فى التلخيص التالى لحياته فى سطور . الذى نقله عن السجل الذى نشرته اللجنة التركية التابعة لليونسكو عام ١٩٦٣ ، لمناسبة ذكرى مرور ٢٥ سنة على وفاة مؤسس تركيا الحديثة :

حياة « أتاتورك » فى سطور

١٨٨١ : ولد « مصطفى » فى الحى التركى بمدينة (سالونيك) اليونانية . التى احتلها الأتراك لخمسة قرون (١٤٣٠ — ١٩١٢)

حوالى عام ١٨٩٠ : توفى والده « على رضا افندى »

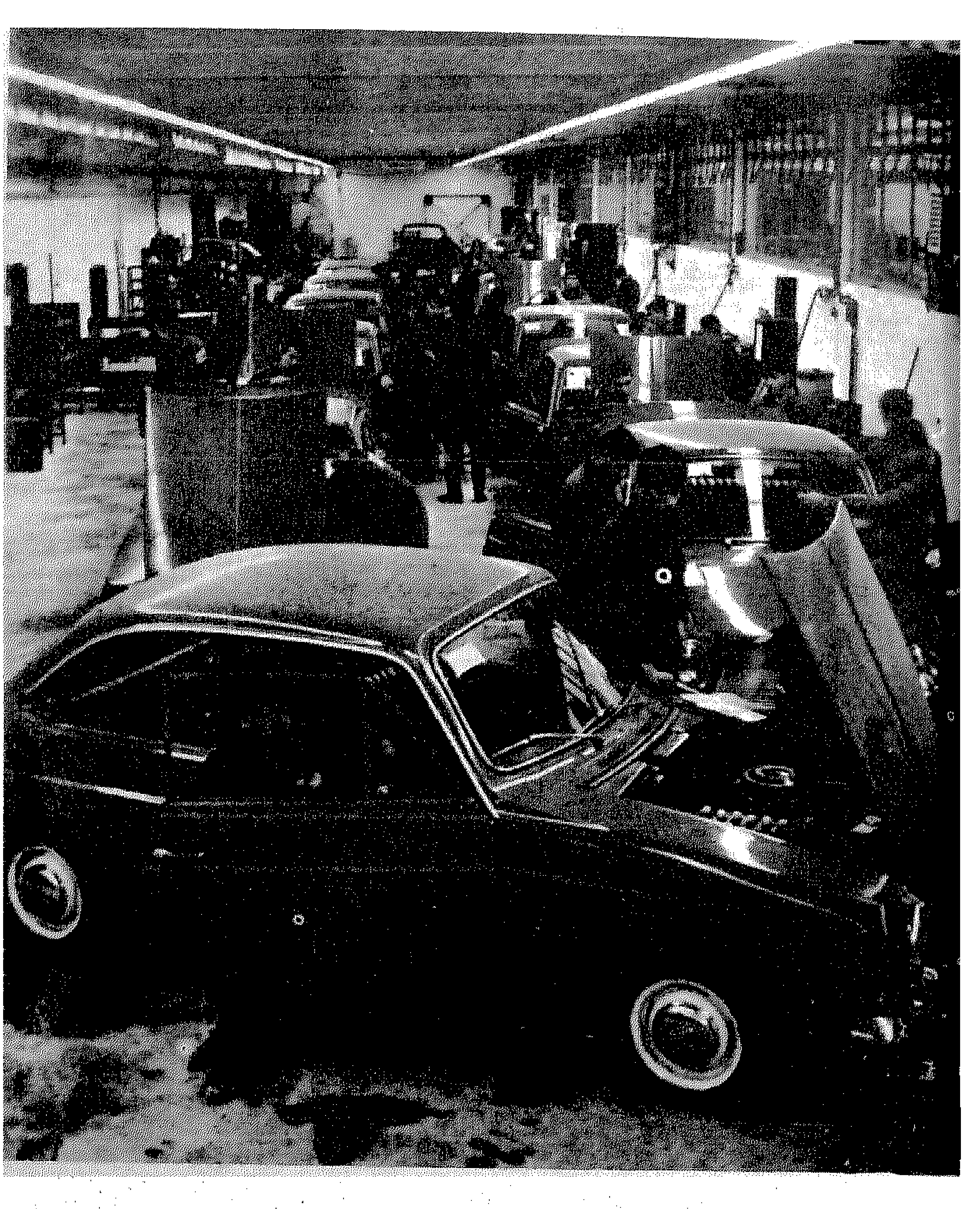
١٨٩٣ : التحق بالمدرسة الحربية الإعدادية بسالونيك .

١٨٩٥ : أنهى دراسته الحربية الإعدادية والتحق بالمدرسة الحربية العليا .

١٨٩٩ : تخرج منها فى موناستر ، والتحق بكلية استانبول الحربية .

١٩٠٢ : تخرج من الكلية الحربية والتحق بكلية أركان الحرب .

١٩٠٥ : تخرج منها ، والتحق بالجيش الخامس المعسكر فى دمشق .



اهتم أتاتورك بإنشاء مختلف الصناعات فى بلاده ، ومنها صناعة السيارات . وفى الصورة مصنع السيارات الذى ينتج سيارة « أناضول » التركية

١٩٠٦ : ألف مع أصدقائه فى دمشق جمعية سرية باسم « الوطن والحرية »

١٩٠٧ : رقى إلى مساعد رائد ، ثم نقل إلى الجيش الثالث .

١٩٠٩ : على أثر تمرد ٣١ مارس ، اتجه إلى استانبول كرئيس لاركان حرب جيش الإضراب . ثم رقى قائداً لفرقة المشاة ٣٨ .

١٩١٠ : اشترك فى عمليات حربية فى ألبانيا كرئيس لأركان حرب .

١٩١١ : نقل إلى الأركان العامة فى استانبول ورقى إلى رتبة « رائد » .

١٩١٢ : قاد بنجاح هجوم (طبرق) فى ليبيا (التابعة لتركيا وقتئذ) . ثم عين مديراً لعمليات القوات الخاصة لمضايق البحر الأبيض .

١٩١٣ : عين ملحقاً عسكرياً فى (صوفيا) ، ثم رقى إلى « مقدم » .

١٩١٥ : أوقف تقدم جيش الحلفاء الذى نزل إلى البر فى (أرى بورنو) ثم رقى إلى « عقيد ».وفى ١٠ أغسطس تولى الهجوم الذى قذف بالحلفاء إلى الوراء ، بعد تعيينه قائداً لجماعة (انافارتالار)

١٩١٦ : قاد الفيلق ١٦ فى (أدرنة) ، ثم رقى إلى رتبة « عميد » . واسترد من العدو بلدتي « بيطليس » و « موش » .

١٩١٧ : عين نائباً لقائد الجيش الثاني ، ثم قائداً للجيش السابع ، وكتب تقريره المشهور عن حالة الجيش والبلاد . وفى أكتوبر استقال وعاد إلى استانبول

١٩١٨ : عين قائداً للجيش السابع فى فلسطين ، ثم صد هجوم العدو شمالى حلب .

١٩١٩ : عين مفتشاً على الجيش التاسع فى (ارضروم) بسلطات واسعة . ثم استقال من الجيش كله وانتخب نائباً عن أرضروم ، فنائباً عن أنقرة فى الجمعية الوطنية الكبرى .

١٩٢٠ : وجّه فى ١٦ مارس احتجاجاً إلى الدول والبرلمانات الأجنبية ضد احتلال الحلفاء لأستانبول . وفى ٢٣ أبريل افتتح الجمعية الوطنية فى أنقرة ثم انتخب رئيساً لها . وفى ١١ مايو حكمت عليه حكومة استانبول بالإعدام ، وصدق السلطان على الحكم فى ٢٤ مايو .

١٩٢١ : عينته الجمعية الوطنية قائداً عاماً ، وفى ٢٣ أغسطس قاد الجيش فى معركة (سقاريا) التى استمرت ٢٢ يوماً وليلة ، فمنحته الجمعيـــة الوطنية رتبة الماريشال وأطلقت عليه لقب « الغازى » .

١٩٢٢ : شن هجومه الكبير ضد العدو فى ٢٦ أغسطس، وفى ١٠ سبتمبر دخل إزمير ظافراً . وفى أول نوفمبر وافقت الجمعية الوطنية على مشروعه المقترح بإلغاء السلطنة !

١٩٢٣ : توفيت والدته « زبيدة هانم » فى ازمير فى ١٤ يناير . وفى ٢٩ يناير تزوج من « لطيفة هانم » (لكنهما انفصلا بالطلاق فى ٥ أغسطس ١٩٢٥) . وفى ٩ أغسطس ألف حزب الشعب ، ثم انتخب رئيساً للجمعية الوطنية الثانية . وفى ٢٩ أكتوبر انتخب أول رئيس للجمهورية التركية .

١٩٢٤ : افتتح الجمعية الوطنية بخطاب دعا فيه إلى إلغاء الخلافة !

١٩٢٥ : ألغى الطربوش وارتدى القبعة لاول مرة فى ٢٤ أغسطس .

١٩٢٧ : زار استانبول لأول مرة كرئيس للجمهورية ، وفى ١٥ أكتوبر بدأ إلقاء خطابه التاريخى الذى استمر لستة أيام (على دفعات) ، فى المؤتمر الثاني لحزب الشعب . وفى أول نوفمبر انتخب رئيساً للجمهورية لثانيِ مرة . ثم أزاح الستار عن أول تمثال له فى أنقرة .

١٩٢٨ : فى مايو زاره فى أنقرة ملك أفغانستان « أمان الله خان » ، وفى

٩ أغسطس أعلن فى اجتماع بقصر (سراى بورنو) باستانبول مشروعه لكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية بدلا من العربية .

١٩٣١ : انتخب رئيساً للجمهورية للمرة الثالثة .

١٩٣٢ : زاره فى أنقرة ملك العراق فيصل الأول (١٢ يونية) .

١٩٣٣ : زاره فى استانبول ملك يوغوسلافيا « ألكسندر » (٤ أكتوبر) . وفى ٢٩ أكتوبر ألقى خطابه الشهير فى العيد العاشر للجمهورية ، معلناً فيه عبارته المأثورة : « سعيد هو المواطن الذى يدعى تركيًا » .

١٩٣٤ : فى ١٦ يونية زاره فى أنقرة شاه إيران « رضا بهلوى » . وفى ٢٤ نوفمبر أصدرت الجمعية الوطنية تشريعاً بمنحه لقب « أتاتورك » أى « أبو الأتراك » .

١٩٣٥ : انتخب رئيساً للجمهورية للمرة الرابعة (أول مارس) .

١٩٣٦ : زاره ملك بريطانيا « إدوارد الثامن » (٤ سبتمبر)

١٩٣٨ : أصدرت سكرتارية رئاسة الجمهورية أول نشرة عن مرضه ، فى ٣١ مارس . وفى ١١ مايو وهب ضياعه لخزانة الدولة ، وبعض أملاكه لبلدية أنقرة . وفى ١٩ يونية زاره فى استانبول ملك رومانيا « كارول الثاني » . وفى ٥ سبتمبر حرر وصيته . وفى ١٦ أكتوبر صدرت أول نشرة طبية يومية عن حالته الصحية المتدهورة . ثم توفى فى ١٠ نوفمبر ، ودفن فى قبر مؤقت بمتحف السلالات البشرية (فى ٢١ نوفمبر) . وبعد أربعة أيام فضت وصيته .

١٩٣٩ : قرر مؤتمر فوق العادة لحزب الشعب أن يطلق عليه لقب « القائد الخالد » .

١٩٥٣ : نقل نعشه رسمياً فى ١٨ نوفمبر إلى ضريح جديد شيد من أجله .

محتويات الكتاب

الفصل الثانى :

صفحة

الفصل الثالث :

صفحة

الفصل الرابع :

صفحة

فهرس الصور

صفحة

رقم الإيداع	١٩٧٦/١٨٣١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٦ – ٠٨١ – ٥

كتب صدرت ، لحلمي مراد :

١ – مجموعة (كتابى)

صدر منها ١٠٥ كتب ، تضمنت ملخصات نحو ألف (١٠٠٠) كتاب من شوامخ الكتب العالمية ، من جميع اللغات والبلاد ، والعصور – منذ « إلياذة » هوميروس و « جمهورية » أفلاطون ، حتى غزو الفضاء ! – فى مختلف فروع الآداب والعلوم والفنون : سير وتراجم ، علم نفس ، تاريخ ، محاكمات ، قصص ، سياسة دولية ، اقتصاد ، صحة ، رحلات ، فلسفة ، مسرحيات ، تربية ، تراث قديم ، اجتماع ، فنون . . . إلخ . .

٢ – مجموعة (مطبوعات كتابى)

صدر منها ٧٦ كتاباً ، تضمنت الترجمة الأمينة لأشهر الكتب العالمية بنصها الكامل ، فى مختلف فروع المعرفة .

٣ – كتب فى سلاسل أخرى

عندما تحب المرأة : قصص مصرية مؤلفة **(كتب للجميع – اقرأ)**
سير وروايات : مترجمة **(كتاب الهلال . روايات الهلال)**
عندما تخون المرأة : قصص مصرية مؤلفة **(كتاب اليوم)** .

ص
٢٠

هـــذاالبطـــل

« . لقد أنعشت انتصارات أتاتورك العسكرية آمال شعوب الشرق ، وزادت فى مخاوف الغرب ، بحيث لم تكن تنشب أية اضطرابات معادية للغرب فى أى مكان ، إلا اتجهت الأنظار نحو هذا القائد الشرقى الذى هزم كل جبروت أوربا ! . . وانهالت عليه الدعوات من جميع الأنحاء كى يصبح بطل الشرق فى كفاحه ضد الغرب ! . . لكنه برغم مظاهرات التأييد والإعجاب ، وبرغم انتشائه بخمر المديح والملق ، وزهوه بنفسه على خشبة المسرح العالمى ، ظل كعهده محتفظاً باتزان أحكامه ، واضح الأهداف ، لا يستسلم لوهم أو يجرى وراء سراب زائف ! . . فلم يطلق خياله ليجمح وراء « أحلام » الغزو الخارجى وتكوين الإمبراطوريات ، بل أقنع نفسه بأنه خير لوطنه أن يجعل منه – داخل حدوده الطبيعية – دولة صغيرة الرقعة ، ولكن ميسورة الحال ! . . أن يخلق تركيا الجديدة ، وينظم أمورها ، ويقودها إلى بر الرفاهية !

« وكان فى موقفه تجاه « البلاشفة » أكثر وضوحاً ، فقد جاءه وفد من موسكو يرأسه القائد « فرونز » وفى مأدبة لتكريمه وقف القائد يتحدث عن نصرة البلاشفة للشعوب الشرقية المضطهدة ، ضد شعوب الغرب الظالمة ، ثم ناشد تركيا أن تنضم إلى بلاده فى « معركة التحرير » . . وعندئذ وقف أتاتورك ليجيبه بكلمة صغيرة حاسمة : « ليس هناك دول ظالمة ولا دول مظلومة ، وإنما هناك فقط شعوب تسمح لنفسها بأن تكون مظلومة ، والأتراك ليسوا من هؤلاء ، فهم يستطيعون حماية أنفسهم ، فليفعل الآخرون مثلهم ! » . . نعم ، إن الغازى لن يقود بلاده إلى حماقة من تلك الحماقات ، أو ينصب نفسه بطلاً للشرق معادياً للغرب ، وللإسلام ضد المسيحية ، أو للأجناس المضطهدة ضد مضطهديها ، وإنما سيلتزم بحدود برنامجه : « ليس لنا إلا مبدأ واحد ، هو أن ننظر إلى كل المشكلات بـ « العين التركية » ، ونصون مصالح وطننا ! » .